

«رواية رائعة عن الحب والفوضى،
مبنية بأستاذية»
«زادي سميث»

الأمريكي الهادي

رواية

جراهام جرين

t.me/qurssan





جراهام جرين
الأمريكي
الهادئ

ترجمها عن الإنجليزية
شوقي جلال ومحمود ماجد





لمزيد من المعلومات عن الكرمة: facebook.com/alkarmabooks

العنوان الأصلي: The Quiet American

حقوق النشر © جراهام جرين ١٩٥٥

©Verdant SA, 1955

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

حقوق الترجمة © شوقي جلال ومحمود ماجد

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب
بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

جرين، جراهام

الأمريكي الهادئ: رواية / جراهام جرين؛ ترجمة شوقي جلال ومحمود ماجد - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠١٩

٣٢٨ ص ٢٠١ سم

تسلك: 9789776743069

١- القصص الأمريكية.

أ- جلال، شوقي وماجد، محمود (مترجم).

ب- المؤلف.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٦٣٠٤ / ٢٠١٩

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣١

تصميم الغلاف: أحمد علف مجاهد

عزيزي «رينيه» و«فونج»

طلبت الإذن لإهداء هذا الكتاب لكما، ليس فقط من أجل الأمسيات السعيدة التي قضيتها معكما في سايجون خلال السنوات الخمس الماضية، لكن أيضًا لأنني -بعض الوقاحة- استعرت موضع شقتكما ليصبح منزل إحدى شخصياتي، واسمك «فونج»، لمناسبته للقارئ، بسبب بساطته وجماله وسهولة نطقه، وهي أمور ليست متحققة في كل أسماء النساء في بلدكما. ستدركان أنني تقريبًا لم أستر شيئًا آخر، وبالتأكيد لم أستر ملامح أي شخص في فيتنام. إن «بايل» و«جرانجر» و«فاولر» و«فيجو» و«جو» لا أصل لهم في سايجون أو هانوي، أما الجنرال «تي» فقد مات، قُتل مغدورًا، كما يُقال. حتى الأحداث التاريخية أعيد ترتيبها. مثلًا، التفجير الكبير قرب «الكونتنتال» سبق تفجير الدراجات ولم يتله. لم أتردد في عمل تعديلات صغيرة كذلك. هذه قصة وليست عملاً تاريخيًا، وأرجو أن تكون قابلة للتصديق بالنسبة لكما -بصفتها قصة عن بضع شخصيات خيالية- في أحد مساءات سايجون الحارة.

المخلص

«جراهام جرين»

لَا أَحِبُّ أَنْ أُحْرَكَ، فَهَذَا يَشِيرُ إِلَى الْإِرَادَةِ، وَالْعَمَلِ
شَيْءٍ بِالْغِ الْخَطُورَةِ؛ أَرْتَعِدُ خَوْفًا مِنْ الشَّيْءِ الْزَائِفِ،
مِنْ سِوَا تَصَرُّفَاتِ الْقَلْبِ وَمِنْ الْإِجْرَاءَاتِ الشَّاذَّةِ،
فَنَحْنُ مِيَالُونَ تَمَامًا إِلَيْهَا، بِمَفَاهِيمِنَا الرَّدِيئَةِ عَنِ الْوَاجِبِ.
«إِيه. إِيْتِش. كَلَّاف»

هَذَا عَصْرُ الْإِخْتِرَاعَاتِ الْجَدِيدَةِ بِامْتِيَازِ
لِقَتْلِ الْأَجْسَادِ، وَإِنْقَاذِ الْأَرْوَاحِ،
وَكُلُّهَا تُنْشَرُ بِأَفْضَلِ النُّوَايَا.

«بَايرون»

الجزء الأول

الفصل الأول

جلست بعد العشاء في غرفتي المطلّة على شارع كاتينات منتظرًا «بايل»، وكان قد قال لي: «سأكون معك في العاشرة على الأكثر». وعندما دقت الساعة منتصف الليل لم أستطع البقاء ساكنًا مدة أطول فنزلت إلى الشارع. وعند منبسط الدرج، كانت مجموعة من النسوة العجائز يجلسن القرفصاء، وقد لبسن السراويل السوداء. كنا في فبراير، وأحسب أن الجو كان قائفًا بدرجة لا تسمح لهنّ بالبقاء في الفراش. كان أحد سائقي «التريشو» يدرج ببطء متخذًا وجهته إلى النهر. وكنت أرى المصاييح المشتعلة حيث أنزلوا شحنات الطائرات الأمريكية الجديدة. لم تكن ثمة علامة تشير إلى وجود «بايل» في أي مكان من الشارع الطويل.

حدثت نفسي أنه ربما كان محتجزًا في المفوضية الأمريكية لأمر ما. غير أنه في هذه الحالة بالتأكيد كان حرّيًا أن يتحدث في التلفون إلى المطعم، فقد كان فيما يختص بالمجاملات الصغيرة مبالغًا في التدقيق والتأدّب. وعندما التفت مزعمًا الدخول من باب المطعم،

لمحت فتاة منتظرة عند المدخل التالي. لم أستطع أن أرى وجهها، وإن رأيت فقط سروالها الأبيض الحريري وثوبها الطويل المنقوش بالأزهار. ولكنني عرفتھا مع ذلك، فقد تعودت كثيرًا أن تنتظر عودتي إلى البيت في نفس هذا المكان ونفس الساعة.

ناديتها: «فونج». والكلمة تعني «طائر العنقاء»، وإن لم يكن في أيامنا هذه شيء خرافي، ولا شيء يخرج من رماده بعد احتراقه. وعرفت أنها كانت تنتظر «بابل»، وابتدرتها بقولي:

- إنه ليس هنا.

فردت بالفرنسية:

- أعرف، رأيتك وحيدًا وراء النافذة.

- من الأفضل أن تنتظريه في الشقة، فسيأتي حاليًا.

- أستطيع الانتظار هنا.

- خير لك ألا تفعل ذلك، فقد يعتقلك البوليس.

تبعني إلى الشقة، فكرت في بعض التلميحات التهكمية والمسيئة التي يمكن أن أقولها، ولكن لم تكن لغتها - سواء الإنجليزية أو الفرنسية - جيدة بما يكفي لفهم التهكم. ومن الغريب أنني لم يكن لدي الرغبة في إيلاهما أو حتى إيلام نفسي. عندما وصلنا إلى منبسط الدرج تحولت إلينا رؤوس جميع النسوة العجائز، وحالما تجاوزناهن لغلطن وارتفعت أصواتهن وانخفضت كما لو كن يغنين معًا.

- عم يتحدثن؟

- إنهن يرين أنني قد عدت إلى بيتي.

وفي داخل غرفتي كانت الشجرة التي أقمتها منذ أسابيع مضت

احتفالاً برأس السنة الصينية قد أسقطت معظم أزهارها الصفراء بين مفاتيح آلي الكاتبة. استخلصتها من بينها. قالت «فونج» بالفرنسية: - أنت قلق.

- ليس هذا من مألوف عادته، فهو رجل دقيق المواعيد للغاية. خلعت رباط عنقي وحذائي واستلقيت على السرير. وأوقدت «فونج» الموقد الغازي، وشرعت تغلي الماء للشاي. ربما كانت قد مرت ستة أشهر منذ آخر لقاء لنا. قالت:

- يقول إنك سترحل في القريب العاجل.

- ربما.

- إنه مغرم جداً بك.

- شكراً له، أنا لم أفعل شيئاً يذكر.

لاحظت أنها تصفف شعرها بطريقة مختلفة، إذ تركته يسترسل، بلونه الأسود، مباشرة على كتفها. وتذكرت أن «بايل» انتقد ذات مرة طريقتها في تصفيف شعرها التي كانت تعتقد أنها الطريقة اللائقة ببنات الحكام. أغمضت عيني فعادت «فونج» مرة أخرى كما كانت: هسهسة بخار، وخشخشة فنجال، كانت ساعة من الليل معينة ووعداً بالراحة. قالت، كأنها تُسري عني لغيابه: «إنه لن يتأخر كثيراً».

ساءلت نفسي: أي شيء اعتادا أن يتحدثا عنه معاً؟ لقد كان «بايل» جاداً للغاية، كم عانيت من محاضراته عن الشرق الأقصى الذي خبره لشهور وخبرته لسنوات. كانت الديمقراطية موضوعاً آخر من موضوعات حديثه، وله آراء معلنة وحادة عما تفعله الولايات المتحدة للعالم. من ناحية أخرى، كانت «فونج» جاهلة بصورة مريعة، فلو

ورد ذكر «هتلر» في مناقشة لكانت جذيرة بأن تقاطعها لتسأل|من هو «هتلر»، ولكان الجواب أصعب عليها فهمًا فهي لم ترَ أبدًا ألمانيًا أو بولنديًا، ولا تعرف عن جغرافية أوروبا غير معلومات غامضة ومبهمة للغاية، رغم أنها تعرف بالطبع عن الأميرة «مرجريت» أكثر مما أتيج لي أن أعرف. سمعتها تضع صينية على طرف السرير.

- ألا يزال «بابل» متيمًا بك يا «فونج»؟

إن من يصطحب إلى فراشه فتاة من الجنس الأنثوي يكون أشبه بمن يصطحب بلبلاً، فإنهن يغردن ويغنين لك على وسادتك. مر بي وقت كنت أظن فيه أن لا واحدة منهن تغني بصوت يضارع صوت «فونج». مددت يدي وتحسست ذراعها، كانت عظامها نحيلة كعظام طائر.

- أهو كذلك يا «فونج»؟

فضحكت، وسمعتها تشعل ثقابًا، تساءلت: «متيم؟». ربما كان هذا أحد التعبيرات التي لا تفهمها.

سألني:

- هل أجهز لك غليونك؟

وعندما فتحت عيني كانت قد أضاءت المصباح وانتهت من إعداد الصينية، وقد جعل ضوء المصباح بشرتها في لون الكهرمان الداكن بينما كانت تنحني على اللهب وقد تقطب جبينها علامة على الاهتمام والتركيز، وهي تسخن قطعة من عجينة الأفيون وتديرها بإبرتها. سألتها:

- ألا يزال «بابل» لا يدخن؟

- كلاً.

- ينبغي أن تحمليه على التدخين، وإلا فلن يعود إليك.

كان من الخرافات الشائعة عندهم أن الحبيب المدخن يعود دائماً، حتى ولو من فرنسا. قد يضعف التدخين من قدرة الرجل الجنسية، إلا إنهن يفضلن دائماً المحب المخلص المقتدر. ها هي الآن تشكل كرة صغيرة من عجينة الأفيون الساخن على الناحية المحدبة من طاسة الغليون، واستطعت أن أشم رائحته التي لا مثيل لها. بجانب السرير كان المنبه يشير إلى الساعة الثانية عشرة والثلاث، ولكن تونري كان قد زال تماماً. تضاءل إحساسي بـ«بايل». أضاء المصباح وجهها وهي تنحني على الغليون الطويل باهتمام جاد جدير بأن توليه طفلاً. كنت مغرمًا بغليونني الذي يزيد طوله عن قدمين من البامبو المعتدل وقد حُلّي بالعاج عند طرفيه، وعند ثلثي المسافة من طرفه الأعلى يوجد القدح، كزهرة لبلاب مقلوبة، صُقل الإطار المحدب واكتسب لونًا داكنًا من جراء عمليات عجن الأفيون المتكررة. والآن، وبنقرة رسغ خفيفة، غرزت الإبرة في الفجوة فأسقطت فيها الأفيون، وعلبت الطاسة فوق اللهب ممسكة بالغليون ببات تجاهي. وانساب قطرات الأفيون متدافعة بلطف وأنا أجتذب الأنفاس.

إن المدخن المتمرس يستطيع أن يأتي على عبوة الغليون في نفس واحد، بيد أن الأمر كان يحتاج مني إلى عدة أنفاس. ثم أستلقي على ظهري مريحًا رقبتني على الوسادة الجلدية، بينما كانت تعد الغليون ثانية.

- أتعرفين، في الحقيقة، الأمر واضح كالشمس، إن «بابل» يعرف أنني أدخن غلايين قليلة قبل النوم، وهو لا يريد أن يرعجني، ولذا سيعود في الصباح.

دخلت الإبرة وأخذت غليوني الثاني، وبينما أستلقي قلت:
- لا شيء يدعو للانزعاج. لا شيء يدعو للانزعاج.

وأخذت رشفة من الشاي، وأسكنت يدي في إبطها، وقلت:

- من حسن الحظ أن اضطررت إلى العودة هنا بعد أن تركتني.
هناك منزل جميل في شارع أورماي. إننا معشر الأوروبيين نقيم الدنيا ونقعد لها للأشياء. لا أحبذ لك الحياة مع رجل لا يدخن يا «فونج».

- لكنه سيتزوجني... الآن حالاً.

- طبعاً... هذا موضوع آخر.

- هل أعد لك غليونك ثانية؟

- نعم.

وسألت نفسي ما إذا كانت تقبل أن تنام معي تلك الليلة إن لم يأت «بابل». غير أنني كنت أعرف، أنني سأكف نهائياً عن الرغبة فيها عندما أدخن أربعة غلايين. ولكن كم هو جميل أن أشعر بملمس فخذهما إلى جواربي في السرير، فقد كانت تنام دائماً على ظهرها. وعندما أستيقظ في الصباح أستطيع أن أبدأ يومي بغليون بدل أن أبدأه وحيداً بغير صاحب إلا نفسي. وقلت:

- لن يأتني «بابل» الآن... ابقِ معي يا «فونج».

ناولتني طرف الغليون وهزت رأسها. وعندما انتهيت من جذب

أنفاس دخان الأفيون لم يعد حضورها أو غيابها يمثل لي شيئاً ذا بال.
وسألتني:

- لم لم يأت «بابل» إلى هنا؟

- كيف لي أن أعرف؟

- هل ذهب ليرى الجنرال «تي»؟

- لا أدري.

- لقد أخبرني أنه إذا لم يتمكن من تناول عشائه معك فسيأتي هنا.

- لا تشغلي بالك. سيأتي. أعدي لي غليوناً آخر.

وعندما انحنت فوق اللهب خطرت في ذهني قصيدة «بودلير»

«طفلتي، أخيراً...» وكيف تمضي الأبيات قائلة:

نعشق بدون حد

نعشق إلى حد الموت

في البلد الذي يشبهك

ومن بعيد كانت السفن ترقد على سطح الماء، «بمزاجها المتسكّم»^(١).

وخطر لي أنني لو شممت بشرتها فلا بد أن يكون لها شذا الأفيون

الخفيف، وكان لونها كاللهب الواهن النحيل. كنت قد رأيت الأزهار

المرسومة على ثوبها إلى جانب القنوات في الشمال، كان الطابع

المحلي يستغرقها كما لو كانت عشباً من أعشاب هذه الأرض،

وزايلتني تماماً الرغبة في العودة إلى الوطن.

وقلت بصوت عالٍ: «كم أود لو كنت «بابل»». بيد أن ألمي كان

(١) من ترجمة سعيد الجندوبي لقصيدة «بودلير» المعنونة «دعوة إلى السفر».

المصدر: <https://www.carthamag.com/details/20170122140436> (الناشر).

محدودًا ومحملاً، فهكذا يصنع الأفيون. وطرق شخص على الباب.
قالت:

- «بايل»؟

- لا، ليست طرقاته.

وأعاد الشخص الطرق بصبر نافذ. فنهضت مسرعة، وهزت في
اندفاعها الشجرة الصفراء، فانتشرت بتلات أزهارها ثانية فوق آلتني
الكاتبه. فُتح الباب، وانطلق صوت يطلب «مسيو «فاولير»». فأجبت:
- أنا «فاولر».

لم أكن لأهب للقاء رجل من رجال البوليس، استطعت أن ألمح
بنطاله الكاكي القصير دون أن أرفع رأسي. علل سبب حضوره في
لغة فرنسية منطوقة بلهجة فيتنامية لا تكاد تُفهم، بأنني مطلوب فورًا
وفي الحال وبسرعة في مكتب الأمن.

- مكتب الأمن الفرنسي أم الفيتنامي؟

- الفرنسي.

بدت الكلمة من فمه وكأنها «الفرنسونج».

- لأي سبب؟

لم يكن يعرف إلا إن الأوامر لديه أن يحضرني. ثم قال لـ «فونج»:
«وأنت أيضًا».

قلت له:

- عندما تتحدث إلى سيدة قل «أنتم»، كيف عرفت أنها هنا؟

فاكتفى بترديد أن تلك كانت أوامره.

- سأحضر في الصباح.

- بل فورًا.

كان ضئيلاً مهندياً عنيذاً. لم يكن ثمة جدوى من النقاش، ولهذا نهضت، وعقدت رباط عنقي، ولبست حذائي. كانت للبوليس هنا الكلمة الأخيرة، وهم يستطيعون أن يسحبوا مني تصريح التجول، يستطيعون أن يمنعوني من حضور المؤتمرات الصحفية، بل يستطيعون - لو شاءوا - أن يرفضوا منحي تأشيرة الخروج. وتلك كانت الوسائل القانونية الصريحة، ولكن الصيغة القانونية ليست ضرورية في بلد في حالة حرب. أعرف رجلاً افتقد طاهيه فجأة ودون سبب واضح، وتبع آثاره وقاده هذا إلى مكتب الأمن الفيتنامي، فأكد له الضباط هناك أنهم أطلقوا سراحه عقب استجوابه، ولم تره أسرته بعد ذلك أبداً. ربما لحق بالشيوعيين، وربما سجل نفسه في أحد الجيوش الخاصة التي تنتشر حول سايجون، جيش «هوا هاو» أو جيش «الكاوديين» أو جيش الجنرال «تي». وربما كان في سجن فرنسي، أو لعله يكتسب الأموال - في سعادة - من تجارة الفتيات في كولون، الضاحية الصينية لسايجون. ويجوز أنه لفظ أنفاسه وهم يستجوبونه. قلت لرجل البوليس: «لستُ معترفاً أن أمشي، وعليك أن تدفع أجرة «تريشو» لنقلنا». إذ على المرء أن يحافظ على كرامته. ذلك ما دعاني إلى أن أرفض السجارة التي قدمها إليّ الضابط الفرنسي في مكتب الأمن. وبعد ثلاثة غلايين كنت أشعر بذهن صافٍ نشط يستطيع أن يتخذ بسهولة مثل هذه القرارات دون أن يحيد عن مواجهة السؤال الرئيسي: ماذا يريدون مني؟ لقد سبق لي أن قابلت الضابط «فيجو» عدة مرات في الحفلات. وقد استرعى

انتباهي لأنه كان على ما يبدو يحب زوجته - التي تتجاهله - حباً غير مألوف، وهي شقراء مبهرجة زائفة. كان الوقت الآن الثانية صباحاً، وقد جلس مرهقاً مغموماً يلفه دخان السجائر ويخنقه الحر الشديد، مرتدياً كاباً أخضر نصف شفاف، وأمامه على المكتب كتاب مفتوح لـ «بسكال» يزجي به الوقت. وعندما رفضت السماح له باستجواب «فونج» في غير حضوري استسلم على الفور، مطلقاً تهيدة وحيدة يمكن أن تشف عن إرهابه وضيقه بالحياة في سايجون، حيث الجو الحار، أو عن ضيقه بالأحوال البشرية عموماً.

قال بالإنجليزية:

- آسف لاضطراري أن أطلب منك الحضور.
- لم يُطلب مني الحضور بل أمرت بذلك.
- أوه، هذا الشرطي المحلي، إنهم لا يفهمون.
- وكانت عيناه على صفحة جريدة «لي بونسيه» ويبدو وكأنه ما زال منهمكاً في هذه المحاورات الكثيرة.
- أردت أن أسألك بضعة أسئلة عن «بايل».
- الأفضل أن توجه إليه هو أسئلتك.
- وتحول إلى «فونج» مستفسراً في حدة وبلغة فرنسية:
- كم من الوقت أقمت مع مسيو «بايل»؟
- شهراً... لست أدري.
- وكم دفع لك؟
- قلت:
- لا حق لك أن تسألها عن ذلك... إنها ليست للبيع.

فسأل بفظاظة:

- ألم تعدت الحياة معك؟ أليس كذلك؟ لقد عاشت معك عامين.
- إنني مراسل صحفي. مفروض أنني أتابع وأكتب عن حركم، هذا
إذا تركتموني وشأني. لا تسألني أن أزودك بمادة لفصائحكم.
- ماذا تعرف عن «بابل»؟ من فضلك يا سيد «فاولر» أجب عن
أسئلتي. أنا لا أريد أن أسأل تلك الأسئلة، لكن الأمر خطير.
صدقني إن الأمر خطير جداً.

- لست مخبراً، وأنت تستطيع أن تعرف كل ما أستطيع أن أخبرك
به عن «بابل». العمر اثنتان وثلاثون، ويعمل في بعثة المعونة
الاقتصادية، أمريكي الجنسية.

قال «فيجو» وهو يتجاوزني بنظره إلى «فونج»:

- يبدو أنك صديقه.

وهنا أحضر أحد رجال الشرطة المحليين ثلاثة أقداح من القهوة.

سأل «فيجو»:

- أو لعلك تفضل الشاي؟

قلت مؤكداً:

- نعم أنا صديق، ولم لا؟ سأعود يوماً إلى الوطن، أليس كذلك؟

ولن أستطيع أن أخذها معي، وستكون على خير حال معه. هذا

ترتيب عقلائي. وهو يقول إنه بصدد أن يتزوجها. وكما تعلم

فهذا ممكن. إنه فتى طيب حسن السلوك وجاد. وليس واحداً من

أولاد الحرام الصاخيين الذين تجدهم في فندق «الكونتنتال».

أمريكي هادئ.

اختزلت وصفه بدقة، وكأني أقول: «سحلية زرقاء»، «فيل أبيض». قال «فيجو» مؤكِّدًا: «نعم»، وكان يبدو كما لو كان يبحث بعينه فوق مكتبه عن الكلمات التي تنقل ما يرمي إليه من معنى على نحو دقيق ومحدد كما فعلت. تابع: «أمريكي هادئ جدًّا»، ثم ظل ساكنًا هناك في مكتبه الحار الصغير منتظرًا أن يتكلم واحد منا. بدأت بعوضة في الطنين معلنة هجومها، وأنا أرقب «فونج». إن الأفيون يجعل المرء سريع البديهة، وربما كان السبب أنه يهدئ الأعصاب ويسكن الانفعالات. لا يبالي الإنسان معه كثيرًا بأي شيء، حتى الموت نفسه. وظننت أن «فونج» لم تلتقط ما في صوته من سوداوية وحسم، فقد كانت لغتها الإنجليزية سقيمة جدًّا. وبينما كانت تجلس هناك على المقعد الخشبي الخشن، كانت ما تزال تنتظر «بايل» في صبر. أما أنا فقد ضقت ذرعًا بالانتظار في هذه اللحظة، واستطعت أن أرى «فيجو» وهو يأخذ هاتين الحقيقتين في الاعتبار.

سألني «فيجو»: «كيف قابلته أول مرة؟».

لماذا ينبغي أن أشرح له أن «بايل» هو الذي قابلني؟ لقد رأيته في سبتمبر الماضي قادمًا عبر الميدان قاصدًا «الكونتنتال». وجهٌ تبدو عليه نضارة الشباب لا تخطئها العين، اندفع نحونا كالسهم. إذا نظرت إلى ساقيه الممتلئتين بالحيوية، وشعره القصير، ونظرته الواسعة أحسست أن قلبه لا يطاوعه على الإساءة. وكانت معظم المناضد المشرفة على الشارع مشغولة، فتقدم في تلطف جاد وبشاشة: «أرجو عدم الإزعاج، اسمي «بايل»، وافد جديد في هذا المكان» ثم غاص

في أحد المقاعد، وطلب زجاجة من البيرة، وارتفعت عيناه ترمقان
بنظرة خاطفة الأضواء الساطعة للظهير القاسية. وتساءل في حماسة
وأمل:

- أكانت هذه قبيلة يدوية؟

فأجبت:

- الاحتمال الغالب أنها فرقة عادم إحدى السيارات.

وشعرت فجأة بالأسف لإخلافي ظنه. إن الإنسان ينسى بسرعة
أيام الشباب؛ في ذلك الحين كنت مهتمًا بجمع ما يسمونه - في أفضل
الأحوال - «الأخبار». لكن سقطت عليّ القنابل اليدوية ثم ظهر أن
تلك الأخبار مما ينشر في الصفحة الأخيرة في الصحيفة المحلية،
حدث هذا كثيرًا في سايجون وفي كولون، إن هذه الأخبار لا تشغل
الصحافة الأوروبية.

ومن نهاية الطريق قدمت الأجساد المسطحة الجميلة، في
سراويلهن الحريرية البيضاء والسترات المحكمة الطويلة ذات
الألوان القرنفلية والبنفسجية الزاهية والمشقوقة من الجانبين فيما
يلي الأفخاذ، راقبتهم بنظرة الحنين الذي أعرف أنني سأشعر به عندما
أغادر إلى الأبد هذه المناطق. وقلت من خلف قذح البيرة: «إنهن
جميلات، أليس كذلك؟»، وألقى «بابل» عليهن نظرة عابرة وهن
يمضين عبر شارع كاتينات.

قال بلامبالاة:

- نعم بالتأكيد.

كان من الطراز الجاد، استطرد قائلاً:

- إن الوزير مشغول جدًا بأمر هذه القنابل، فمن الممكن - كما قال - أن تسبب حرجًا بالغًا. أقصد إذا وقع حادث لأيّ منا.
- لأيّ منكم؟ نعم، أعتقد أن الأمر سيكون خطيرًا، إن الكونجرس قد لا يحب ذلك.

لماذا نرغب في إغاظة الأبرياء؟ ربما كان - منذ عشرة أيام فقط - يتمشى بين مجموع المارة في حديقة ذا كومون في بوسطن وذراعه مقلتان بالكتب التي طالع فيها مقدمًا دراسات عن الشرق الأقصى ومشكلات الصين. إنه حتى لم يسمع ما قلته، فقد كان مستغرقًا فعلاً في معضلات الديمقراطية ومسؤوليات الغرب، وأدركت على الفور أنه مصمم أن يفعل الخير، ليس من أجل أي فرد بذاته، ولكن في سبيل بلد أو قارة أو العالم بأسره. حسنًا، لقد أصبح الآن في بيئته الحقة، حيث العالم كله في حاجة إلى التقدم والإصلاح.
سألت «فيجو»:

- أهو الآن في المشرحة؟

- كيف عرفت أنه مات؟

لقد كان سؤالاً غريباً لرجل بوليس، وغير جدير برجل يقرأ «بسكال»، وغير جدير برجل يحب زوجته على هذا النحو الغريب، فالمرء لا يمكن أن يحب ما لم يكن على حظّ من الفطنة.

قلت: «لستُ مذنّبًا». وحدثت نفسي أن الأمر صحيح. ألم يكن «بايل» يمضي على هواه دائماً؟ وفتشت عن أي إحساس في نفسي فلم أستطع أن أجد شيئاً، حتى شعور الامتناع تجاه استرابة رجل البوليس لم أجده. فلا أحد مسؤول غير «بايل». وجادلني الأفيون

في داخلي: أليس من الأفضل لنا جميعًا أن نموت؟ ولكنني نظرت بحذر إلى «فونج»، إذ كان الأمر صعبًا بالنسبة لها. لقد أحبه على طريقتها الخاصة، ألم تكن متعلقة بي، ألم تتركني من أجل «بايل»؟ ربطت نفسها بالشباب والأمل والجدية، والآن خذلها كل أولئك بأكثر مما فعل التقدم في السن واليأس. جلست هناك ترقب كلينا، وحدثت أنها لم تفهم بعد، ولعل أفضل شيء أن أتمكن من الخروج بها قبل أن يصل الخبر. لقد كنت على استعداد للإجابة عن أي سؤال إذا كان ذلك من شأنه أن ينهي سريعًا هذا اللقاء مع الإبقاء على غموض الموقف، بحيث يتسنى لي فيما بعد أن أخبرها بالأمر فيما بيننا بعيدًا عن عيني رجل البوليس، ومقاعد المكتب الخشنة، ونموذج الكرة الأرضية العاري حيث يدور العث.

سألت «فيجو»:

- ما المدة الزمنية التي تهتم بها؟

- بين السادسة والعاشرة.

- لقد تناولت شرابًا في «الكوننتنتال» في السادسة، وسيتذكر الجرسونات ذلك. وفي السادسة والدقيقة الخامسة والأربعين تمشيت حتى الميناء لأشهد الطائرات الأمريكية وهي تفرغ شحناتها. ولقد رأيت «ويلكتز» الذي يعمل في «الأسوشيتيد نيوز» عند باب فندق «الماجستيك» ثم ذهبت إلى السينما المجاورة. ومن المحتمل أن يتذكروا لأنهم أعطوني باقي ما دفعت. ومن هناك ركب «تريشو» إلى مطعم «فيو مولان». وأعتقد أنني وصلت حوالي الثامنة والنصف.

وتناولت العشاء وحدي. كان «جرانجر» هناك وتستطيع أن تسأله. ثم ركبت «تريشو» راجعًا في حوالي العاشرة إلا الربع، ويحتمل أن تتمكن من العثور على السائق، لقد كنت أتوقع لقاء «بايل» في العاشرة لكنه لم يظهر.

- لماذا كنت تتوقع لقاء؟

- كلمني بالتلفون، وقال إنه يجب أن يراني لأمر هام.

- ألدبك فكرة عن هذا الأمر؟

- لا، كل شيء هام عند «بايل».

- وفتاته؟ أتعرف أين كانت؟

- كانت تنتظره في الخارج عند منتصف الليل، كانت قلقة، وهي

لا تعرف شيئًا، ألا ترى أنها ما زالت تنتظره؟

- نعم.

- ولا أظنك تعتقد أنني قتلته بدافع الغيرة، أما هي فلماذا تُقدم

على ذلك؟ فقد كان سيتزوجها.

- أجل.

- أين عثرت عليه؟

- كان في الماء تحت القنطرة المؤدية إلى داکو.

إن مطعم «فيو مولان» يقوم إلى جانب القنطرة. وهناك بوليس

مسلح على القنطرة، وللمطعم شبكة حديدية تحميه من القنابل.

ولم يكن عبور القنطرة في الليل مأمونًا، فالجانب البعيد من النهر

يصبح في قبضة «الفيتمنه» بعد حلول الظلام. لا بد أنني تناولت

عشائي على مائدة خمسين ياردة تقريبًا من حيث كانت جثته.

قلت:

- المشكلة أنه كانت له صلات مشبوهة.
- إذا تكلمنا بوضوح فلست آسفًا على أي حال، فقد كان يسبب أذى كثيرًا.
- ليحفظنا الله دائمًا، من الأبرياء والطيبين.
- الطيبون؟

- نعم، الطيبون على طريقته. إنك كاثوليكي، ولن تستطيع أن تفهم طرائقه. وعلى أي حال فقد كان أمريكيًا ملعونًا.
- أيضاً يترك التعرف على جثته؟ أنا آسف ولكنه الروتين وإن كان روتيناً غير مستحب تمامًا.

ولم أهتم بسؤاله لِم لا ينتظر أحداً من المفوضية الأمريكية؟ إذ كنت أعرف السبب. الطرق الفرنسية عتيقة الطراز نوعاً بالقياس إلى أساليبنا الباردة. إنهم يؤمنون بالضمير وبالشعور بالإثم، وبأن المجرم ينبغي أن يواجه بجريمته إذ قد ينهار ويعترف. وحدثت نفسي ثانية بأنني بريء بينما نزل هو على السلالم الحجرية إلى حيث يثر موتور الثلاجة في الطابق السفلي.

- واجتذبوا جثمانه من الرف كما لو كانوا يخرجون صينية مكعبات ثلج. ونظرت إليه وقد تجمدت جراحه وسكنت، قلت:
- كما ترى، إنها لم تنكأ ثانية في حضوري.
- فقال بالفرنسية:

- كيف؟

- أليس هذا أحد الأدلة؟ التعذيب بهذا الشيء أو ذاك؟ ولكنك

جمدته حتى تصلب. لم تكن هناك ثلاجات بهذه القوة في
القرون الوسطى.
- هل تتعرف عليه؟
- نعم.

لقد بدا غريبًا أكثر مما كان في أي وقت مضى؛ كان جديرًا به
أن يمكث بين أهله وعشيرته. أذكر أنني رأيت صورة له في حافظة
للصور العائلية وقد امتطى حصانًا في مزرعة لرعاة البقر، وثانية وهو
يسبح في جزيرة لونج أيلاند، وثالثة في إحدى الشقق بالطابق الثالث
والعشرين ومعه بعض أقرانه. كان من النوع الذي يولع بالحياة في
ناطحة سحاب واستعمال المصعد السريع، وتناول الآيس كريم
والمارتيني، وشرب اللبن على الغداء، وتناول شطائر الدجاج في
محلات «ميرشانت ليمتد».

قال «فيجو» مشيرًا إلى جرح في الصدر:
- إنه لم يمت بسبب هذا، لقد أغرق في الطين، ووجدنا الطين
في رثيته.
- أنت تعمل بسرعة.
- في مثل هذا الطقس على المرء أن يفعل ذلك.
ثم دفعوا الطاولة التي رقدت عليها الجثة ثانية إلى مكانها على
الرف، وأغلقوا الباب الذي أحكم بإطار من المطاط.
سألني «فيجو»:
- ألا يمكنك مساعدتنا على الإطلاق؟
- إطلاقًا.

سرت مع «فونج» راجعين إلى شقتي، وأحسست أنني فقدت اعتزازي بنفسي. إن الموت يذهب بالغرور والخيلاء، حتى خيلاء الديوث الذي ينبغي له ألا يظهر ألمه. كانت «فونج» ما تزال غافلة عما يحيط بها، ولم يكن لي المقدرة أو الكفاءة على إخبارها بلطف وبالتدريج. لقد كنت مراسلاً صحفياً، وكنت أفكر في العناوين الرئيسية؛ «مقتل موظف أمريكي في سايجون». إن العمل في صحيفة لا يعلم المرء الطريقة التي يخفف بها وقع الأنباء السيئة، وحتى هذه اللحظة كان يتعين عليّ الآن أن أفكر في أمر صحيفتي، وابتدرتها سؤال:

- أيضاً يـُـقـالُ أن تتوقف عند مكتب التلغراف؟

وتركتها في الشارع، وأرسلت برقيتي، ثم رجعت إليها، كانت محض إشارة، فأنا أعلم يقيناً أن المراسلين الفرنسيين أحيطوا علماً بالخبر من قبل. وحتى إذا كان «فيجو» قد اتخذ مني موقفاً منصفاً - وهو أمر ممكن - فإن الرقباء خليقون أن يؤخروا إرسال برقيتي، ريثما يرسل الفرنسيون برقياتهم، إذ إن صحيفتي عليها أن تتلقى أخبارها أولاً من باريس باعتبارها المحور. لم يكن «بابل» بالشخص المهم جداً. لم يكن من المفيد أن أرسل بالتلغراف تفاصيل عمله الحقيقي، وأنه كان مسؤولاً قبل وفاته عما لا يقل عن خمسين وفاة، لأن ذلك من شأنه أن يفسد العلاقات الأنجلو-أمريكية، وكان حريّاً بأن يشير ناثرة الوزير. كان الوزير يُكنى احتراماً عظيماً لـ «بابل»، وكان «بابل» يحمل درجة علمية في... حسن، في واحد من تلك الموضوعات التي يستطيع الأمريكيون

أن يحصلوا فيها على درجات علمية. ربما في العلاقات العامة أو في المسرح، وربما في دراسات الشرق الأقصى (لقد قرأ عددًا كبيرًا من الكتب).

سألتني «فونج»:

- أين «بابل»؟ ماذا كانوا يريدون؟

قلت لها:

- تعالي معي إلى البيت.

- هل سيأتي «بابل»؟

- من المحتمل أن يأتي إلى البيت، بقدر ما هو محتمل أن يذهب إلى أي مكان آخر.

كانت النسوة العجائز ما زلن يرثرن عند منبسط الدرج في كسل وتراخ. وعندما فتحت الباب استطعت أن أؤكد لنفسي أن الغرفة فُتشت، فكل شيء كان أكثر ترتيبًا مما تعودت أن أتركه عليه.

سألت «فونج»:

- غليون آخر؟

- نعم.

وخلعت رباط عنقي وحذائي، ها قد انتهى الفصل الإضافي في التمثيلية، وعاد الليل كما كان تقريبًا، وجثمت «فونج» عند طرف السرير، وأضاءت المصباح. «طفلي، أخيرًا»، بشرة بلون الكهرمان، «لغتها الرقيقة».

قلت بالفرنسية بينما كانت تعجن الأفيون على طاسة الغليون:

- «فونج»، لقد مات يا «فونج».

أمسكت بالإبرة ونظرت إليّ كطفل يحاول أن يركز، وقد زوت
أبين حاجبيها وقالت:

- ماذا تقول؟

- لقد مات «بابل»، قُتل.

وضعت الإبرة، وأقعت على كعبيها ناظرةً إليّ. وجمدت في
مكانها، بلا حركة، ولا دموع، فقط كانت تفكر، ذلك النوع من التفكير
لشخص بات لزامًا عليه أن يحول مجرى حياته كلها. قلت لها:
- الأفضل أن تمكثي هنا الليلة.

أومأت برأسها والتقطت الإبرة، وبدأت تسخن الأفيون من جديد.
في تلك الليلة صحوت بعد هجعة عميقة قصيرة من ذلك النوع الذي
يخلفه الأفيون، حيث تبدو الدقائق العشر وكأنها راحة ليلة كاملة،
ووجدت يدي حيث تعودت دائمًا أن ترتاح في الليل، بين ساقها.
كانت نائمة. ولا يكاد يصل إلى سمعي صوت أنفاسها. هأنذا، مرة
أخرى، وبعد شهور عديدة، لم أعد وحدي، وفجأة فكرت بغضب،
متذكرًا «فيجو» وكابه الأخضر في مركز البوليس، وممرات المفوضية
الخالية من الناس، والبشرة الناعمة الملساء تحت يدي، أنا الشخص
الوحيد الذي يحفل حقًا بأمر «بابل»؟

الفصل الثاني

(١)

ت قد رأيت ما يكفي من الزملاء الأمريكيين في مهنة الصحافة صبيحة أن وصل «بايل» إلى الميدان الذي يشرف عليه «الكونتنتال». كانوا ضخام الأجسام، صاخبين، صغار السن أو من وسطى العمر، ازدحمت رؤوسهم بأخبار مريرة ضد الفرنسيين الذين كانوا - بعد كل ما يُقال عنهم - يخوضون غمرات القتال في هذه الحرب. وكان من المألوف بعد أن تنتهي أي موقعة حربية على الوجه الأكمل المرسوم لها، وبعد نقل القتلى والمصابين من ساحة المعركة، أن يُدعى هؤلاء بشكل دوري إلى هانوي التي بعد مسافة أربع ساعات بالطائرة، ويتحدث إليهم القائد العام، يستضيفهم ليلة واحدة في معسكر الصحافة، حيث يتباهون بأن حل البار هو أفضل من عرفوه في الهند الصينية، ثم يحلقون الطائرة على أرض المعركة الأخيرة على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم

(وهو أقصى مدى للمدافع الآلية الثقيلة) وتقلهم الطائرة بعد ذلك
بسلام إلى فندق «الكوتنتنتال» في سايجون، ويعلو اللغظ بينهم
كأنهم في رحلة مدرسية.

أما «بابل» فكان هادئاً يبدو عليه التواضع. وكنت أحياناً في أول
يوم ألقاه فيه، أجد نفسي مضطراً إلى أن أميل برأسي ناحيته، كي
تلتقط أذناي ما يقول. كان جاداً غاية الجد، وكثيراً ما كان يلوح عليه
الانقباض لما يثيره الصحفيون الأمر يكيون من لغظ في الشرفة التي
تعلوه، وكان الاعتقاد السائد أن هذه الشرفة بمنجاة من القنابل اليدوية،
بيد أنه لم يكن ينتقد أحداً. وسألني:

- هل قرأت مؤلفات «يورك هاردنج»؟

- لا، لا أظن، ماذا كتب؟

وكان يحدق بناظريه إلى محل لشرب اللبن على الناحية الأخرى
من الشارع، ويقول في صوت حالم:

- إنه يشبه مكاناً لبيع المياه الغازية الجيدة.

وعجبت من عمق إحساسه بالحنين إلى الوطن الذي يكمن خلف
اختياره الغريب لما يلاحظه في مثل هذا المنظر غير المألوف. ولكن
ألم ألاحظ أنا في جولتي الأولى بشارع كاتينات المحل الذي يبيع
عطر «جيرلين»، وواسيت نفسي بفكرة أن أوروبا - في نهاية الأمر -
كانت على مسافة ثلاثين ساعة فقط؟ حوّل عينيه على مضض عن
محل اللبن. قال:

- لقد كتب «يورك» كتاباً عنوانه «تقدم الصين الحمراء» إنه كتاب
عميق جداً.

- أنا لم أقرأه، أتعرف الكاتب؟
 هز رأسه في وقار ولاذ بالصمت، ولكنه قطع صمته بعد لحظة
 أخير من الانطباع الذي تركه:
 - أنا لا أعرفه جيدًا. أظن أنني التقيت به مرتين فقط.
 لقد أحببته لهذا السبب، إذ أنكر معرفته بالرجل حتى لا يظن أنه
 يساهى بمعرفته، ماذا كان اسمه؟ نعم، «يورك هاردنج». وعرفت فيما
 بعد أنه يُكنى احترامًا هائلًا لمن يسميهم «كُتّابًا جادين»، واستثنى هذا
 التعبير الروائيين والشعراء وكتاب المسرح، ما لم يتوفر لديهم ما سماه
 «الموضوع المعاصر»، وحتى في هذه الحالة، فالأفضل أن تقرأ أفكارًا
 .. أشرة كتلك التي يقدمها «يورك هاردنج». قلت:
 - إن الإنسان كما تعرف يكف عن القراءة عن مكان ما، إذا عاش
 فيه طويلاً.
 فأجاب باحتراس:
 - بالطبع، إنني أحب دائمًا أن أعرف ماذا لدى الرجل الخبير من
 أقوال.
 - وعندئذ تراجعها على أقوال «يورك».
 - نعم.
 وربما لاحظ ما في حديثي من تهكم، لأنه أضاف بأدبه المعهود:
 - إنني أعتبرها مآثرة عظيمة جدًا أن تجد الوقت لتوجز لي النقاط
 الرئيسية. وأنت تعرف أن «يورك» كان هنا منذ ما يزيد عن
 عامين مضياً.
 لقد أحببت ولاءه لـ «هاردنج» كائنًا من كان «هاردنج»، فقد كان

هذا خروجًا على مألوف عادة رجال الصحافة من الدأب على تشويه سمعة الرجال والاستخفاف الفج بهم، قلت له:

- خذ زجاجة بيرة، وسأحاول أن أعطيك فكرة عن الأمور.

وبينما هو يراقبني بإمعان، كما لو كنت تلميذًا متفوقًا، بدأت في شرح الموقف في الشمال؛ في توتكين، حيث كان الفرنسيون يحاولون تلك الأيام التشبث بدلتا النهر الأحمر التي تضم هانوي والميناء الشمالي الوحيد هايفونج. في تلك المنطقة كان ينمو الأرز، ومع موسم الحصاد تبدأ المعركة السنوية في سبيل الحصول عليه. قلت:

- هناك في الشمال قد يستطيع الفرنسيون، وبإلهم من شياطين يائسة، أن يصمدوا إذا لم يأت الصينيون لمساعدة «الفيتمنه».

إنها حرب الأحرار والمستنقعات وحقول الأرز التي تخوض في مياهها إلى كتفيك، وتتيح للعدو فرص الاختفاء بسهولة وأن يدفن أسلحته ويرتدي ثياب الفلاحين، ولكنك قد تذوي سريعًا بسبب رطوبة هانوي، فهم لا يلقون بالقنابل هناك حتى إنك لتستطيع أن تسميها حربًا نظامية.

- وماذا عن الجنوب هنا؟

- يسيطر الفرنسيون على الطرق الرئيسية حتى السابعة مساء. وسيسيطرون بعد ذلك على أبراج المراقبة والمدن، وهذا لا يعني أنك بمنجاة، أو أنه لن تكون هناك ستائر حديدية واقية أمام المطاعم.

كم من المرات تناولت فيها هذا الموضوع بالشرح قبل ذلك. لقد كنت أشبهه بجهاز تسجيل يدار دائمًا لمصلحة الوافدين الجدد؛

عضو البرلمان الزائر، الوزير البريطاني الجديد. وقد أستيظ أحيا في الليل وأنا أقول: «خذ مثلاً حالة «الكاوديين»، أو أنصار «هواهاو» أو مقاتلي «بين سين» وكل الجيوش الخاصة التي تباع خدماتها نظير مال أو بنية انتقام. وكان الغرباء يجدون في ذلك بهاء يمتع النظر، ولكن ليس في الخيانة أو الغدر ما يمتع النظر.

قلت:

-والآن هناك الجنرال «تي»، لقد كان رئيساً لأركان حرب جيش «الكاوديين»، ولكنه انسحب إلى التلال ليحارب كلا الجانبين، الفرنسيين والشيوعيين.

قال «بابل»:

- لقد كتب «يورك» يقول إن ما يحتاجه الشرق هو القوة الثالثة. ربما كان عليّ أن أثبت هذه الومضة المقتضبة وتلك الاستجابة السريعة لبعض الجمل والصوت السحري للعبارات المأثورة؛ «الطابور الخامس» و«القوة الثالثة» و«اليوم السابع». لقد كان بوسعي أن أوفر علينا جميعاً، بل وعلى «بابل» نفسه، الكثير من المتاعب، لو نبنت الاتجاه الذي يسير فيه تفكير هذا المخ الشاب المكدود. ولكني نركته وما زالت الجوانب المختلفة لموضوع حديثنا عظاماً جرداء لم يكسها لحم. ونهضت لأبدأ جولتي اليومية التي أذرع فيها شارع نائينات جيئة وذهاباً. أولى به أن يتعلم هو بنفسه الجوانب الحقيقية التي تجذبك إليها كما تجذبك رائحة شيء ما؛ اللون الذهبي لحقول الأرز تحت أشعة شمس الأصيل الواهنة، والصنارات النحيلة في أبدي صيادي الأسماك وهي تحوم كالفرشات فوق الحقول، وأقداح

الشي فوق منصة راهب عجوز وسريه وتقويمه التجاري ودلاءه
وأقداحه المهشمة وقاربه الذي هو بمثابة رفيق عمره مهملاً إلى جانب
كرسيه، والقبعات الرخوة التي ترتديها الفتيات وهن يصلحن الطريق
في موضع انفجار لغم، وثياب أهل الجنوب الزاهية الذهبية والخضراء
النضرة وفي الشمال ثياب سوداء وبنية قاتمة، وسلاسل الجبال التي
تحتلها جيوش الأعداء، وأزيز الطائرات. عندما وفدت إلى هنا كنت -
في أول أمزي - أحصي ما تبقى لي من أيام حتى أفرغ من مهمتي،
وكنت كتلميذ يعد أيام فترته الدراسية. وحسبت أنني سأقضي أيامي
بين أطلال ميدان بلومزيري، وداخل أتوبيس ٧٣ الذي يمر أمام معبد
«أوستون»، وأني سأقضي الربيع لهذه البلاد في ساحة تورنجنون.
وحان الوقت الذي تطفأ فيه مصابيح حديقة الميدان، ولم أعبأ بأي
هنة تحل بي. كنت أنطلق إلى يوم تتخلله تلك الأحداث السريعة التي
قد تكون أوصواتاً لعوادم السيارات أو ربما انفجارات القنابل. وتمنيت
ألا يغيب عن ناظري منظر الفتيات في سراويلهن الحريرية يخطرن
في رشاقة وقت الظهيرة الرطبة. كنت أفتقد «فونج» وقد نأت عني
أرض الوطن بثمانية آلاف من الأميال.

اتجهت إلى دار المفوض الأول حيث يتولى حراسته جنود «الفرقة
الأجنبية» بقبعاتهم البيضاء وعلى أكتافهم الشارات القرمزية، مررت
بالكاتدرائية ثم رجعت وسرت بمحاذاة الجدار الموحش لمكتب
الأمن الفيتنامي الذي يبدو وكأنما تفوح منه رائحة البول والظلم.
لقد كان بحاله تلك يمثل جانباً من وطني، يشبه الممرات المعتمة
في الطوابق العليا التي كنت أتحاشاها في طفولتي. وكانت المجلات

الغدرة الجديدة معروضة على الأرفف بجوار الميناء، مجلنا «تابو»
«البوجين». أما البحارة فقد جلسوا على الرصيف يشربون البيرة،
هدف سهل لقنبلة منزلية الصنع. كنت أفكر في «فونج»، لعلها تساوم
في ثمن سمك تشتريه في الشارع الثالث على أقصى اليسار، قبل أن
أذهب إلى محل اللبن لتناول وجبتها على عجل - لقد كنت أعرف
مكانها دائمًا في تلك الأيام - وتواري «بايل» عن ذاكرتي بسهولة
«بسر». بل إنني لم أكن أذكره لـ «فونج» عندما كنا نجلس معًا لتناول
الغداء في حجرتنا المطلة على شارع كاتينات، وقد ارتدت أجمل ما
ألبسها؛ ثوبها الحريري المنقوش بالزهور. لقد مضى عامان على أول
إمء لنا في فندق «الجران موند» في مقاطعة كولون.

(٢)

لم يذكره أيُّ منا عندما استيقظنا صبيحة اليوم التالي لوفاته. نهضت
«فونج» من نومها قبل أن يذهب النعاس من عيني تمامًا وأعدت
لكلينا الشاي. إن المرء لا يغار من الموتى، وبدالي في هذا الصباح
أن من السهل علينا أن نبدأ من جديد حياتنا القديمة التي عشناها معًا.
وتظاهرت بعدم الاكتراث قدر المستطاع، وأنا أسأل «فونج»
أثناء الإفطار:

- هل ستبقين معي الليلة؟

- يجب أن أحضر صندوقتي.

- قد يكون رجال الشرطة هناك، من الأفضل أن أذهب معك.

كان هذا أقرب ما تحدثنا به عن «بايل» في ذلك اليوم.

كان «بايل» يسكن شقة في فيلاً جديدة قرب شارع دورانتون، وهو أحد الشوارع الرئيسية التي اعتاد الفرنسيون تسميتها بأسماء قادتهم العسكريين تكريمًا لهم، هناك شارع دو جول ويقع بعد التقاطع الثالث لشارع لوكليير، ثم ينعطف هذا فجأة على مسافة غير قصيرة حيث يقع شارع دو لاتر. ويبدو أن ثمة شخصية هامة على وشك الوصول من أوروبا، إذ يوجد على بُعد كل عشرين ياردة، على امتداد الطريق حتى مقر المفوض الأول، شرطي يقف في مواجهة الرصيف.

على الطريق المرصوف بالحصاء المؤدي إلى شقة «بايل» ترى كثيرًا من الدراجات البخارية، وتمعن شرطي فيتنامي في بطاقتي الصحفية. لم يسمح لـ «فونج» بدخول المنزل، فذهبت لأبحث عن ضابط فرنسي. كان «فيجو» يغسل يديه بصابونة «بايل» ويجففهما بمنشفته. ولمحت على كُف سترته الصينية بقعة زيت، خمنت أنها من زيت «بايل»، وسألته:

- هل من أخبار؟

- وجدنا سيارته في الجراج، وكانت خالية من البنزين. لا بد أنه أخذ عربة «تريشو»، أو ربما ذهب في سيارة شخص ما. ولعل هناك من أفرغ منها البنزين.

قلت:

- من يدري، ربما ذهب على قدميه، فأنت تعرف الأمريكيين. واستطرد قائلاً وهو يفكر مليًا:

- لقد احترقت سيارتك، أليس كذلك؟ ألم تشتري سيارة جديدة
غيرها؟

- لا.

- إنها مسألة غير ذات بال.

- أبدًا.

وسألني:

- هل لك رأي خاص في هذا الشأن؟

- بل آراء كثيرة.

- حدثني.

- حسن، ربما اغتاله رجال «الفيتمه»، فقد اغتالوا الكثيرين في
سايجون. لقد عُثر على جثته في النهر. قرب القنطرة المؤدية
إلى داكو، وهي المنطقة التي يسيطر عليها «الفيتمه» ليلاً بعد
انسحاب شرطتكم. أو ربما قتله مكتب الأمن الفيتنامي، وله باع
طويل في ذلك. ربما لم يرقهم أصدقاؤه. وربما قتله «الكاوديون»
لأنه كان على علاقة بالجنرال «تي».

- هل كان كذلك فعلاً؟

- إنهم يقولون ذلك، وربما قتله الجنرال «تي» لأنه كان على
علاقة بـ«الكاوديين». وربما قتله أنصار «هوا هاو» لأنه تقرب
من عشيقات الجنرال. وربما قتله شخص ما طمعاً في نقوده.

قال «فيجو»:

- أو لمجرد الغيرة.

واستطردت في حديثي:

- أو ربما مكتب الأمن الفرنسي لأنهم كانوا غير راضين عن اتصالاته، هل تبحث جديدًا عن القتلة؟

- لا، كل ما أحاوله هو كتابة تقرير ولا شيء آخر، ما دامت الحرب دائرة، فهناك آلاف يُقتلون كل عام.

- بوسعك أن تستبعدني فلا دخل لي، لا دخل لي.

هذا هو أحد المبادئ التي أؤمن بها، فما دامت هذه هي أحوال البشرية، دعمهم يتقاتلون أو يحبون أو يقتلون فلا دخل لي، إن زملائي الصحفيين يسمون أنفسهم مراسلين، أما أنا فأثرت أن أسمى نفسي «مخبرًا صحفيًا» أكتب ما أرى دون تصرف، حتى مجرد إبداء الرأي أعتبره نوعًا من التصرف.

- ماذا تفعل هنا؟

- أتيت لأحضر أمتعة «فونج»، ولكن رجال شرطتكم لم يسمحوا لها بالدخول.

- حسن، هيا بنا لنحضر أمتعتها.

- هذا جميل منك يا «فيجو».

كانت شقة «بايل» تتألف من حجرتين ومطبخ وحمام. قصدنا حجرة نومه، كنت أعرف المكان الذي قد تحتفظ فيه «فونج» بصندوقها، تحت السرير. جذبناه معًا، كان بداخله كتبها المصورة. وأخرجت من الدولاب ملابسها البديلة وهي قليلة، وثوبها الجميلين، والسراويل البديلة. وخطر لي إحساس أنها كانت معلقة هناك لبضع ساعات قليلة من دون أن تنتهي للمكان، عابرة كأنها فراشة تحوم داخل الحجرة. ووجدت في أحد الأدراج سروالها الصغير المثلث

الشكل، ومجموعة من الأوشحة. لم يكن هناك سوى أشياء قليلة جدًا لأضعها في الصندوق، أقل مما يحتاج إليه زائر يتوي قضاء عطلة الأسبوع في البيت.

في حجرة الاستقبال رأيت صورة لها مع «بايل» التقطت لهما في حدائق النباتات بجوار تمثال حجري ضخّم لتنين. كانت تمسك بمقود كلب «بايل»، وهو كلب أسود من سلالة «تشاو» وله لسان أسود. كان أسود فاحمًا. وضعت الصورة بداخل الصندوق. سألت:

- ماذا حدث للكلب؟

- إنه ليس هنا. ربما اصطحبه معه.

- ربما عاد ثانية، حينها تستطيع أن تحلل نوع التربة التي علقته بمخالبه.

- لست «لوكوك» ولا «مجريه»^(١)، وثمة حرب ناشبة.

وقصدت خزانة الكتب، وتفحصت بعيني صفّي الكتب؛ مكتبة «بايل». «تقدم الصين الحمراء»، «الديمقراطية تواجه معركة التحدي»، «دور الغرب»، هذه هي على ما أعتقد مؤلفات «يورك هاردنج» الكاملة. ثمة أكّداس من تقارير الكونجرس، وكتاب عن اللغة الفيتنامية، وكتاب عن تاريخ الحرب في الفلبين، وطبعات حديثة لأعمال «شكسبير». ترى ما هي قراءاته التي كان يروح بها عن نفسه؟ وعثرت عليها فوق رفٍّ آخر، كتاب يحتوي على

(١) «لوكوك» و«جول مجريه»، شخصيتا محققَي شرطة خيالينان، اخترعهما الكاتبان الفرنسيان «إيميل جابوريو» و«جورج سيمينون» على التوالي.

مجموعة من كتابات «توماس وولف». ومختارات مجهولة بعنوان «انتصار الحياة»، ومختارات من الشعر الأمريكي. ووجدت أيضًا كتابًا عن ألغاز الشطرنج. ويبدو أنه لم يكن يختم عمله اليومي بهذا، فهناك بعد ذلك كله «فونج». وخلف كتاب المختارات الشعرية وجدت كتابًا بعنوان «فسيولوجيا الزواج»، لعله كان يدرس الجنس - مثلما كان يدرس الشرق - من الكتب. وكان الزواج هو كلمة السر. لقد كان «بايل» يؤمن بالاندماج في الحياة.

ونظرت إلى مكتبه فكان عاريًا تمامًا فقلت:
- لقد قمت بعملية كنس نظيفة.

قال «فيجو»:

- أوه، كان عليّ أن أعنى بكل هذه الأشياء من أجل المفوضية الأمريكية. وأنت تعرف كيف تنتشر الشائعات سريعًا، وربما تكون هناك عملية سلب. لذا فقد حفظت كل أوراقه وختمتها. قال عبارته هذه بجدية تامة، حتى من دون أن تبدو على وجهه ابتسامة.
- هل من خسائر؟

- إننا لا نرضى أن تلحق أي خسائر بالحليف.

- أيضيرك أن آخذ أحد هذه الكتب، على سبيل التذكار؟

- اعتبر أنني لم أر شيئًا.

وانتقيت كتاب «دور الغرب» لـ «يورك هاردنج» ووضعت داخل الصندوق مع ملابس «فونج».

قال «فيجو»:

- أسألك كصديق، هل هناك ما يمكن أن تسر إليّ به؟ لقد أنهيت

تقريرى. لقد قتله الشيوعيون. ربما كان هذا بداية الحملة ضد
المعونة الأمريكية. ولكن بيني وبينك... اسمع، حديثنا هذا
حديث جاف، ما رأيك في كأسين من «الفرموت» في مكان
قريب؟

- الوقت مبكر جدًا لشرب «الفرموت».
- ألم يسر إليك بأي شيء في آخر لقاء له معك؟
- لا.

- متى كان هذا اللقاء؟
- صبيحة أمس. بعد الانفجار الشديد.
وصمت هنيهة حتى تستقر إجابتي في عقلي، وليس في عقله هو،
سألني بأدب ووداعة:

- هل كنت بالخارج حين زارك ليلة أمس؟
- ليلة أمس؟ لا بد أنني كنت بالخارج. لا أظن...
- ربما كنت تطلب تأشيرة خروج. أنت تعرف أننا نستطيع أن
نؤجل إصدارها لأجل غير مسمى.
- هل تعتقد حقاً أنني أريد العودة إلى وطني؟
نظر «فيجو» من خلال النافذة إلى النهار الساطع بلا غيوم. قال بتعاسة:
- أكثر الناس تفعل هذا.
- يروق لي البقاء هنا. ففي بلدي هناك مشاكل.
قال «فيجو»:

- اللعنة، ها هو الملحق الاقتصادي الأمريكي.
ثم ردها ثانية بتهكم: «الملحق الاقتصادي».

- أفضل أن أنصرف، سيرغب في محاصرتي تمامًا أنا الآخر.
قال «فيجو»، وقد بدا عليه الإنهاك:
- أتمنى لك حظاً سعيداً. إن لديه ما سيفضي به إليّ، وهو كثير
لدرجة مفرقة.

كان الملاحق الاقتصادي واقفاً بجانب سيارته «البيكار» ساعة
خروجه. وكان يحاول أن يوضح شيئاً ما لسائقه، وهو رجل بدين في
أواسط العمر له عجيذة ضخمة ضخامة مفرطة، ووجه أملس يخل
إليك أنه لم يكن يوماً ما بحاجة إلى موسى. وناداني:
- «فاولر»، هل يمكنك أن تشرح لهذا السائق الملعون...؟
شرحت.

قال:
- ولكن هذا هو ما قلته له بالضبط، بيد أنه يتظاهر دائماً بأنه لا يفهم
الفرنسية.

- ربما هي مسألة لهجة.

- لقد عشت في باريس ثلاثة أعوام. لهجتي جيدة بما فيه الكفاية
بحيث يفهمها أي واحد من هؤلاء الفيتناميين الملاعين.

وقلت:
- «صوت الديمقراطية».

- ما هذا؟

- أعتقد أنه كتاب لـ «يورك هاردنج».

- أنا لا أفهمك.

نظر إلى الصندوق الذي أحمله نظرة ريبة. قال:

- ماذا تحمل في هذا الصندوق؟
- زوجين من السراويل الحريرية البيضاء، وثوبين من الحرير، وبعض الملابس الداخلية لفتاة، ثلاثة أزواج على ما أظن. كلها إنتاج محلي. بلا معونة أمريكية.
- وسألني:
- هل كنت هناك في الشقة؟
- نعم.
- هل سمعت الأخبار؟
- نعم.
- إنه لشيء مفزع، مفزع جداً.
- أظن أن الوزير منزعج جداً.
- أعتقد ذلك. إنه مجتمع مع المفوض الأول الآن، وقد طلب مقابلة رئيس الجمهورية.
- ووضع يده على ذراعي وسار بي بعيداً عن السيارات.
- لقد كنت تعرف «بايل» معرفة جيدة. أليس كذلك؟ أنا لا أطيق التفاوضي عن شيء كهذا الذي تعرض له. لقد عرفت أباه. الأستاذ الجامعي «هارولد. ك. بايل»، لعلك سمعت عنه؟
- لا.
- إنه حجة عالمي في دراسة عوامل التعرية تحت الماء، ألم تشهد صورته على غلاف مجلة «تايم» في الشهر الماضي؟
- أوه، أظن أنني أذكر هذا. صخرة مهشمة في خلفية الصورة وأقداح ذات حواف ذهبية في المقدمة.

- هذا هو. وجب عليّ أن أبرق إليه في أمريكا. إنه لشيء مفزع.

لقد أحببت هذا الشاب كما لو كان ابني.

- هذا يجعلك على علاقة وثيقة بأبيه.

وحول إليّ عينيه العسليتين المبللتين. قال:

- ماذا تعني؟ ليست هذه الطريقة التي تتحدث بها، بينما زميل

شاب...

قلت له:

- آسف، الموت يأخذ الناس بطرق متعددة.

ربما كان يحب «بايل» حقًا.

سألته:

- ماذا قلت في برقيتك؟

وأجاب بجدية قائلاً نصها:

- «يحزنني أن أنعى إليك موت ابنك ميتة جندي يدافع عن قضية

الديمقراطية»، ووقعها الوزير.

وقلت:

- «ميتة جندي»، أليس من المحتمل أن يؤدي هذا إلى شيء

من البلبلة؟ أقصد بالنسبة للناس في بلادنا. إن بعثة المساعدة

الاقتصادية لا تشبه الجيش في شيء، هل قد تحصلون على

وسام «القلب القرمزي»؟

قال في صوت خفيض يغلب عليه الغموض:

- لقد كان يقوم بمهام خاصة.

- أوه نعم. لقد خمنّا جميعًا ذلك.

- إنه لم يكن يتحدث عن شيء، أليس كذلك؟
- أوه أبداً.

وعادت إلى ذهني العبارة التي قالها «فيجو»: «لقد كان أمريكياً
هادئاً تماماً».
سألته:

- هل لديك أي فكرة عن السبب الذي قتلوه من أجله، ومن الذي
قتله؟

وفجأة أحسست بالغضب وشممت هذه الشرذمة ومستودعاتهم
الخاصة المليئة بزجاجات الكوكاكولا، ومستشفياتهم المتنقلة،
وسياراتهم الضخمة، وبنادقهم التي لا تعد حديثة تماماً، وقلت:
- نعم لقد قتلوه لأنه كان أبرأ من أن يعيش. كان لا يزال حدثاً جاهلاً
وساذجاً وتورط. لم يكن لديه أي فكرة أكثر مما يعرفه أي منكم
عن شؤون الحياة. وأعطيتموه نقوداً ومؤهلات «يورك هاردنج»
عن الشرق، وقتلتم له: «انطلق. افتح الشرق للديمقراطية».
لم ير أي شيء لم يسمع به في قاعة المحاضرات، الكتاب
والمحاضرون خدعوه. عندما رأى جثة لميت لم يستطع حتى أن
يتبين جروحها. الخطر الأحمر، جندي يدافع عن الديمقراطية.
قال بنعمة فيها تأنيب:

- حسبتك صديقه.

- كنت فعلاً صديقه. كان يروق لي أن أراه وهو يقرأ ملحق
«الصنداي» في بيته، يتابع لعبة «اليسبول». كان يروق لي أن
أراه آمناً مع فتاة أمريكية عادية عضوة في نادي الكتاب.

تنحني محرّجاً، قال:

- طبعاً لقد نسيت هذا التصرف التعس. لقد كنت في صفك تماماً
يا «فاولر». لقد أساء التصرف. لا أخفي عنك أنني تحدثت معه
طويلاً عن الفتاة. لعلمك، لقد انتهزت فرصة معرفتي بالأستاذ
«بايل» وزوجته...

قلت:

- «فيجو» في انتظارك.

انصرفت. ووقع بصره لأول مرة على «فونج». وعندما نظرت
خلفي ألفتته يرقبني بحيرة وألم؛ حيرة أخ أبدي هَرِم لم يفهم.

الفصل الثالث

(١)

كان اللقاء الأول بين «بايل» و«فونج» في «الكونتنتال» بعد وصوله بحوالي شهرين. كانت ساعة أصيل، مع هبة النسيم الرطبة العابرة التي تأتي في لحظة غروب الشمس، والشموع مضاءة فوق أعمدتها في الشوارع الجانبية. سُمعت دحرجة النرد فوق المناضد حيث كان الفرنسيون يلعبون لعبة ٨١، بينما الفتيات في سراويلهن الحريرية البيضاء يركبن الدراجات عائدات إلى بيوتهن على طول شارع كاتينات. كنت و«فونج» جالسين في صمت؛ هي تشرب كوبًا من عصير البرتقال بينما أتناول البيرة، كنا هائنين بوجودنا معًا. وإذا بـ«بايل» يظهر على استحياء، فقدَّمْتُ كلاً منهما إلى الآخر. كانت عادته إذا رأى فتاة أن يحدجها بنظرات قوية كما لو أنه لم ير فتاة من قبل، ثم تعلق وجهه حمرة الخجل. قال «بايل»: «كنت أتساءل ما إذا كان من الممكن أن تفضلنا - أنت والسيدة - معي إلى المائدة، إن أحد مُلحِقينا بالسفارة...».

كان يقصد الملحق الاقتصادي، الذي أطل من الشرفة التي تعلونا بابتسامة دافئة مُرحبة تشيع فيها الثقة، شأن رجل تعود أن يحتفظ بأصدقائه بفضل ما يستخدمه من المظهرات الصحية التي تزيل الروائح الكريهة. لقد سمعت أكثر من مرة من يناديه باسم «جو» بيد أنني لم أعرف كنيته. وحين شرع يجذب بعض المقاعد وينادي الجرسون أثار ضجة ملحوظة، رغم أن كل هذا الجهد ليس له أن يتمخض، في «الكونتنتال»، إلا عن طلب مشروب من البيرة أو براندي بالصودا أو بضع كؤوس من «الفرموت». قال الملحق:

- لم أكن أتوقع أن أراك هنا يا «فاولر». إننا في انتظار الأولاد العائدين من هانوي، ويبدو أنه قد وقعت معركة حقيقية، ألم تكن معهم؟

قلت:

- لقد سئمت الطيران لمدة أربع ساعات لحضور مؤتمر صحفي. ونظر إليّ نظرة استنكار. قال:

- هؤلاء الرجال متحمسون حقًا، أعتقد أنهم يستطيعون وهم في مكاتبهم أو عن طريق الراديو أن يحصلوا على ضعف ما يحصلون عليه دون حاجة للمخاطرة.

- ربما عليهم أن يؤديوا عملهم.

واصل كلامه باعتزاز دون أن يلقي بالًا للكلمات التي لا تروقه: - يبدو أنهم مثل خيول الحرب يهتدون إلى مواقع التزال بحاسة الشم، مثلًا «بيل جرانجر» إنك لا تستطيع بحالٍ من الأحوال أن تصرفه عن مشاهدة معركة.

- اعتقد أنك على حق، فقد رأيته مساء أمس في بار «سبورتنج».
- أنت تعلم تمام العلم أنني لم أقصد هذا.

وقدم سائقان من سائقي «التريشو» يدرجان بعربتيهما على
ملول شارع كاتينات، وانتهى سباقهما بطريقة لافتة للانتباه أمام
«الكونتنتال». كان «جرانجر» داخل العربة الأولى. أما الثانية فكان
1. اخلها كومة رمادية صغيرة شرع «جرانجر» يجذبها خارجاً إلى
الرصيف. قال:

- أوه، هيا يا «ميك»، هيا.

وبدأ يجادل السائق بشأن الأجرة:

- خذ هذا أو اتركه.

والقى بخمسة أضعاف المبلغ المطلوب على أرض الشارع
ابحنى الرجل ويلتقطه.

قال الملحق الاقتصادي بعصية:

- اظن أن هؤلاء الأولاد بحاجة إلى الاسترخاء قليلاً.

لقى «جرانجر» بحمله فوق أحد الكراسي. ثم لحظ «فونج» وقال:

- آه، ابن كذا وكذا أنت يا «جو». أين عثرت عليها؟ لم أكن أعرف أنك

صاحب نزوات. آسف، يجب أن أجد المبولة. اهتم بأمر «ميك».

وقلت:

- طباع عسكرية خشنة.

قال «بايل» بحماس، وقد علت حمرة الخجل وجهه ثانية:

- ما كان لي أن أدعوكما لو تصورت...

واهتز الكوم الرمادي في الكرسي وسقط الرأس على المنضدة

كأنه غير متصل بشيء، وتنهّد تنهيدة طويلة ذات صفير تنبئ عما يعانيه صاحبها من مشقة لا حدود لها، ثم سكن دون حراك.

وسألت «بايل»:

- هل تعرفه؟

- لا، أليس من رجال الصحافة؟

قال الملحق الاقتصادي:

- سمعت «بايل» يناديه «ميك».

- ألا يوجد مراسل جديد لوكالة «يونيتدبرس»؟

- ليس هو. أنا أعرفه. ماذا عن بعثتكم الاقتصادية؟ أنت لا تستطيع

أن تعرف رجالك كلهم، إن هناك المئات منهم.

قال الملحق الاقتصادي:

- لا أحسبه واحداً منهم، فأنا لا أتذكره.

اقترح «بايل»:

- يمكننا أن نبحث على بطاقته الشخصية.

- بالله عليك لا توقظه. إنه ثمل للغاية وسيتعرف عليه «جرانجر»

بشكل أو بآخر.

لكن «جرانجر» لم يعرفه. وجاء من دورة المياه مكتئباً. وسأل

عابس الوجه!

- من السيدة؟

ورد عليه «بايل» بجفاء:

- الأنسة «فونج» صديقة «فاولر». نريد أن نعرف من...

- أين عثر عليها؟ يجب أن تكون على حذر في هذه المدينة.

واستطرد مغتمًا:

- شكرًا لله على البنسلين.

قال الملحق الاقتصادي:

- «بيل»، نريد أن نعرف من هو «ميك».

- فتشني.

- لكنك أتيت به إلى هنا.

فقال مستخفًا:

- إن أكلة الضفادع لا يتحملون الويسكي. لقد غاب في دنيا أخرى.

- هل هو فرنسي؟ أعتقد أنك ناديت «ميك».

قال «جرانجر»:

- يجب أن أناديه باسم ما.

ثم مال ناحية «فونج»:

- أوه، أنت. هل لك أن تطلبي كوبًا آخر من عصير البرتقال. هل

أنت محجوزة الليلة؟

فقلت له:

- إنها محجوزة الليلة وكل الليالي.

وهنا قال الملحق الاقتصادي بسرعة:

- كيف حال الحرب يا «بيل»؟

- انتصار عظيم في الشمال الغربي من هانوي. استعاد الفرنسيون

قريتين لم يذكروا أنهم كانوا قد خسروهما. إصابات فادحة في

جانب «الفيتمنه». لم يتمكنوا بعد من حصر هذه الخسائر، لكنهم

سيعلموننا خلال أسبوع أو أسبوعين.

قال الملحق الاقتصادي:

- ثمة إشاعة بأن «الفيتنة» اخترقوا منطقة فات ديم، وأحرقوا الكاتدرائية، وطرّدوا الأسقف.

- إنهم ما كانوا ليخبرونا بذلك في هانوي، فليس هذا انتصارًا.
قال «بايل»:

- إن إحدى فرقنا الطبية لم تستطع اجتياز منطقة نام دين.
سأل الملحق الاقتصادي:

- ألم تستطع الوصول إلى هذا المكان يا «بايل»؟
- من تحسبني؟ إنني مراسل أحمل أمرًا بأن نتجول داخل حدود معينة. أذهب بالطائرة إلى مطار هانوي، فيهيئون لنا سيارة تحملنا إلى معسكر الصحافة. ثم تحلق بنا الطائرة فوق المدينتين اللتين استردوهما، ويشيرون إلى العلم المثلث الألوان، ولعله أن يكون مجرد راية مرقعة تتراءى لنا من هذا الارتفاع، ثم نحضر مؤتمرًا صحفيًا لشرح لنا فيه أحد القادة العسكريين ما رأينا. بعد ذلك نسلم برقياتنا إلى الرقيب، وتُقدم لنا الخمر فنتعم بخدمة أفضل بارمان في الهند الصينية، ثم لا نلبث أن نلحق بالطائرة عائدين.
هنا تجهّم «بايل» ونظر إلى بيرته.

قال الملحق الاقتصادي:

- لقد بخست نفسك حقها يا بايل. ماذا عن قصة شارع ٦٦ بم عنونته؟ «الطريق إلى الجحيم»، لقد كان جديرًا بجائزة «بوليتزر»، أنت تعرف القصة التي أعنيها، الرجل الذي كان جاثيًا في الخندق وقد انفصل عنه رأسه، وذلك الذي رأيته يسير في حلم...

- هل تعتقد أنني ذهبت حقاً إلى هذا الطريق العام التتن؟ إن «ستيفن كرين» يستطيع وصف حرب لم يرها. لماذا لا أفعل مثله؟ على أي حال ليست هذه الحرب إلا حرباً استعمارية ملعونة. اسقني كأساً أخرى، ثم هيا نبحث لنا عن فتاة، لقد وجدت رفيقة لك وأنا أيضاً أريد رفيقة.

قلت لـ «بايل»:

- هل تظن أن ثمة شيئاً وراء إشاعة فات ديسم؟
- لا أدري. أهنالك أهمية لذلك؟ أود أن أذهب إلى هناك لألقي نظرة، إن كان الأمر مهماً.

- تقصد مهماً بالنسبة للبعثة الاقتصادية؟

- أوه، حسناً، أنت لا تستطيع أن تضع حدوداً فاصلة ثابتة، فالطب نوع من الأسلحة، أليس كذلك؟ وأخرى بهؤلاء الكاثوليكين أن يكونوا متشددين في مواجهتهم للشبيوعيين، ألا يصح أن يكونوا كذلك؟

أثرت غيظه:

- إنهم يتاجرون مع الشبيوعيين. الأسقف يشتري من الشبيوعيين بقراته وخشب البامبو لأغراض البناء، إنني لا أميل إلى القول بأنهم يمثلون بالدقة القوة الثالثة التي يتحدث عنها «يورك هاردنج».

صاح «جرانجر»:

- فلتنته هذه الجلسة، لا أحتمل ضياع كل وقتي سدى في هذا المكان، سأذهب إلى «دار الخمسمائة فتاة».

قال «بايل»:

- هل لك أنت والأنسة «فونج» أن تتناولوا العشاء معي...

قاطعته «جرانجر»:

- بوسعك أن تأكل في «الشاليه» بينما أبحث لي عن فتاة في المبنى المجاور، هيا يا «جو»، فأنت رجل على أي حال.

وأحسب أن تلك هي المرة الأولى التي أشعر فيها بعاطفة تجاه «بايل». وكنت أسأل نفسي: أي رجل هذا؟ لقد جلس برهة مشيحاً بوجهه عن «جرانجر»، وهو يدير قدح البيرة بين يديه، وقد بدا عليه أنه بعيد عنا تمامًا، ثم قال لـ «فونج»:

- أظنك ستمت كل ما في هذا المكان، أعني فيما يتعلق ببلدك؟
قالت بالفرنسية:

- كيف؟

وسأل الملحق الاقتصادي:

- ماذا أنت صانع بـ «ميك»؟

قال «جرانجر»:

- أتركه هنا.

- لا تستطيع ذلك، فأنت لا تعرف حتى اسمه.

- يمكن أن نحمله معنا، ونتركه للبنات يرعينه.

وقهقه الملحق الاقتصادي من قلبه، وبدأت عليه سيماء وجه

معروض على شاشة التلفزيون، قال:

- أنتم شباب تستطيعون أن تفعلوا ما يحلو لكم، أما أنا فقد كبرت

سني وأصبحت عجوزًا لا أصلح لهذه الألعاب. سأخذه معي
إلى البيت. أظنك قلت إنه فرنسي؟
- كان يتكلم الفرنسية.

- هل لك أن تدخله في سيارتي؟

وبعد أن انطلق بسيارته، أخذ «بايل» و«جرانجر» عربية «تريشو»
، نبعناهما أنا و«فونج» على طول الطريق المؤدي إلى كولون. وبذل
«جرانجر» من جانبه محاولة ليدلف داخل العربة التي تقل «فونج»،
إلا إن «بايل» صرفه عن ذلك. وبينما كان السائقان يدرجان بنا في
الضاحية المؤدي إلى المدينة الصينية مر بنا طابور من السيارات
الفرنسية المسلحة. وقد أطل من كل سيارة مدفع وضابط صامت
مامد بغير حراك يشبه تمثالًا تظلل قبة السماء السوداء الداكنة. ربما
دعت بعض القلائل من جانب أحد الجيوش الخاصة، مثل جيش
«بن سين» الذي زحف على ملهى «الجران موند» وصلات لعب
الخمار في كولون. إذ كانت هذه المنطقة تابعة لعدد من البارونات
المتمردين، الأمر الذي يذكر بما كان عليه الوضع في أوروبا إبان
العصر الوسيط، لكن ماذا يفعل الأمريكيون هنا؟ إن كولومبس لم
يكن قد اكتشف بلادهم بعد.

قلت لـ«فونج»:

- إنني أحب هذا الرجل، «بايل».

فقلت:

- إنه هادئ.

وكانت هي أول من سمعتها تصفه بهذه الصفة التي رسخت في ذهني كأنها اسم لتلميذ، إلى أن استخدمها «فيجو» نفسه بكاية الأخضر وهو جالس هناك ينبني بوفاة «بايل».

أوقفت عربة «التريشو» التي نُقلنا خارج «الشاليه» وقلت لـ «فونج»: - ادخلي واحجزي لنا مائدة. فإنني أفضل أن أرافق «بايل» لأرعه. كان هذا أول إحساس غريزي من جانبي لحمايته. لم يسبق لي إطلاقاً أن شعرت بمثل هذه الحاجة الملحة لحماية نفسي. فالبراءة دائماً تطلب الحماية بلسان أخرس، عندما نوغل في الحكمة ونعمل على حماية أنفسنا منها؛ ما أشبه البراءة بمجذوم أخرس فقد ناقوسه يجوب العالم ولا يبغي إساءة لأحد.

عندما وصلت إلى «دار الخمسمائة فتاة» كان «بايل» و«جرانجر» قد سبقاني إليها ودخلا. وسألت عند نقطة حراسة الشرطة العسكرية القائمة قرب المدخل مباشرة: - هل دخل أمريكيان هنا؟

توقف صف ضابط من «الفرقة الأجنبية» عن تنظيف مسدسه وأشار بإبهامه ناحية المدخل وهو يلقي دعابة باللغة الألمانية. لم أفهمها. كانت هذه هي ساعة الراحة في الفناء الفسيح المكشوف للسماء. وثمة مئات من الفتيات مستلقيات على العشب أو جالسات القرفصاء يتحدثن إلى رفيقاتهن ورفعت ستائر الحجرات الصغيرة المخصصة للمضاجعة والمطلة على الفناء. وثمة فتاة متعبة استلقت وحدها على سرير وقد شبكت كاحليها. إنهن جميعاً بلا عمل فقد كانت هناك قلائل في كولون وكانت القوات محتجزة داخل الشكنات؛ إنه يوم راحة

الجسد. رأيت جماعة من الفتيات يتعاركن ويتصايحن. وكان ذلك هو الدليل على أن طباع هذا المكان ما زالت على قيد الحياة. وتذكرت قصة سايجونية قديمة عن زائر متميز فقد سرواله وهو يشق طريقه عائداً إلى نقطة البوليس بحثاً عن الأمان. لم يكن ثمة ضمان لحماية أحد من المدنيين هنا، وعلى من يختار اختلاس المتعة في منطقة عسكرية أن يتنبه وأن يهتم بأمr نفسه وأن يبحث عن مخرج إذا وقع في مأزق. لقد تعلمت طريقة ماهرة أستفيد منها في عملي، «فرق تسد»، فانتقيت واحدة من جمع الفتيات اللاتي التففن حولي وسرت محاذاتها رويداً رويداً، وانسحبت معها إلى حيث كان «بايل» و«جرانجر» يصارعان ليشقا طريقهما.

قلت بالفرنسية:

- إنني رجل عجوز ومنهك تماماً.

وقهقهت الفتاة، واندفعت لتزاحم معهن.

- أما صديقي فإنه غني جداً وقوي جداً.

فردت بالفرنسية:

- إنك لقذر.

ولمحت «جرانجر» مزهواً متورداً الوجه؛ يبدو أنه اعتبر هذه المظاهرة تحية لرجولته. وتأبطت إحدى الفتيات ذراع «بايل»، وهي نجاهد لتجذبه برقة خارج الحلقة. دفعت بفتاتي بينهن، وناديته:

- «بايل»، تعال هنا.

نظر إليّ من فوق رؤوسهن. قال:

- هذا فظيع. فظيع.

وبدا لي وجهه شاحبًا. ولعل السبب خداع بصر سبيه ضوء
المصباح. وخطر لي أنه ربما بكر عفيف.
قلت:

- تعال يا «بابل»، اتركهن لـ «جرانجر».
ورأيت يده تتحرك تجاه الجيب الخلفي لسرواله. وإني لموقن
أنه كان عازمًا على أن يفرغ جيوبه مما فيها من قروش وأوراق مالية.
ناديته بحدة:

- لا تكن معتوهًا يا «بابل»، ستدفعهن إلى التقاتل.
والتفتُ إلى فتاتي ثم دفعتها دفعة أخرى داخل الحلقة التي تحيط
بـ «جرانجر» وقلت لها بالفرنسية:
- لا، لا، أنا إنجليزي، فقير، فقير جدًا.

ثم أمسكت بكم «بابل»، وجررته إلى الخارج، بينما كانت الفتاة
متعلقة بذراعه الأخرى كأنها سمكة في صنارة. وحاولت فتاتان أو
ثلاث أن يعترضن طريقنا إلى البوابة حيث كان العريف واقفًا يرقبنا،
ولكن همتهن فترت في الحال.

قال «بابل»:

- ماذا سأفعل بهذه؟

- إنها ليست مشكلة.

وفي هذه اللحظة أخلت الفتاة ذراعه، ورجعت واندفعت وسط
الزوبعة التي تحيط بـ «جرانجر».

وسألني «بابل» في قلق:

- هل سيكون بخير؟

- لقد حصل على ما كان يبتغيه؛ رفيقة.
بدا الليل في الخارج ساكنًا تمامًا، ولم يقطع سكونه سوى طابور
آخر من السيارات المسلحة يتحرك كمجموعة من الناس، يقصدون
هدفًا ما. قال بروع حزين:

- إنه لأمر فظيع، لم أكن لأصدق، إنهن جميلات للغاية.
لم يكن يحسد «جرانجر»، بل كان يشكو لتشويه شيء جميل
وإساءة معاملته، والجمال بلا ريب صورة من صور الخير. كان «بايل»
ممن يستطيعون رؤية الألم إن كان مائلًا أمام أنظارهم. (وأنا لا أكتب
ذلك تهكمًا، ويكفي أن كثيرين منا يعجزون عن ذلك تمامًا). وقلت له:

- هيا نعود إلى «الشاليه»، إن «فونج» في انتظارنا.

- آسف، لقد نسيت تمامًا. كان حريًا بك ألا تتركها.

- لم يكن ثمة خطر يهددها.

- كنت أفكر فقط في أن أرى «جرانجر» بسلام.

غرق ثانية في أفكاره، بيد أنه قال بنبرة حزينة غامضة بينما ندخل
«الشاليه»:

- نسيت كم من الرجال هناك...

(٢)

حجزت لنا «فونج» منضدة تقع مباشرة على حافة حلبة الرقص، كانت
الأوركسترا تعزف لحنًا كان شائعًا في باريس منذ خمسة أعوام. أربعة

أزواج من الفيتناميين، ضئيلي الحجم، تبدو عليهم الأناقة، يرقصون معاً وقد انتحوا ركنًا قصيًا، وبان عليهم من سيماء التحضر ما نعجز عن أن نباريهم فيه. (عرفت اثنين منهم؛ محاسب في «بنك الهند الصينية» وزوجته). وأحسست أن هؤلاء لم يتخلوا أبدًا عن أناقتهم طوال حياتهم، أو أنهم - إذا استخدمنا عبارة نائية - لم يكونوا يومًا ما فريسة لآلام التصعلك. وإذا كانت الحرب تبدو لنا من أحداث العصور الوسطى، فإنهم ليمثلون أيام المستقبل في القرن الثامن عشر. أكاد أتخيل أن السيد «فام فان تو» يقضي وقت فراغه في كتابة أدب يشبه ما كان يكتب في عصر القيصر «أغسطس». وقد اتفق لي أن عرفت أنه كان أحد طلبة «ووردزورث»، وأنه ينظم قصائد يذهب فيها مذهب الأدب الطبيعي. وقد اعتاد أن يقضي أيام عطلته في دالات وهي أنسب مكان يذكره بصورة البحيرات الإنجليزية. وبينما هو يدور حول الحلبة انحنى انحناء خفيفة على سبيل التحية، وعجبت كيف ارتضى «جرانجر» لنفسه أن يقيم على مبعدة خمسين ياردة من هنا، في هذا الطريق.

وفي لغة فرنسية ركيكة اعتذر «بايل» لـ «فونج» لأننا تركناها تنتظر بقوله «إنه أمر لا يغتفر».

وسأله «فونج»:

- أين كنت؟

فقال:

- صحبت «جرانجر» إلى البيت.

وضحكت لذلك، وقلت:

- البيت؟

ونظر إليَّ «بابل» وكأنني «جرانجر» آخر، وفجأة تمثلت نفسي
 كما رأيته: رجلًا في متوسط العمر، عيناه محمرتان قليلًا، بدأ وزنه
 في الزيادة، ثقل الظل في حبه، أقل صخبًا من «جرانجر» ولكنه أكثر
 سخرية، وأقل براءة. وبدأت «فونج» برهة كما رأيته أول مرة في
 ملهى «الجران موند»، عندما كانت ترقص مارة بمائدتي في ثوب
 أبهى من ثياب الرقص، فتاة في الثامنة عشرة من عمرها، ترقبها
 أمها لها أكبر منها عقدت العزم على أن تزوجها زيجة أوروبية طيبة.
 اشترى أمريكي تذكرة وسألها أن تراقصه، كان ثملًا إلى حد ما، ولكن
 مسرورة لا تسبب أذى. وأحسب أنه كان وافدًا جديدًا إلى البلد يظن
 أن مضيفات «الجران موند» كلهن عاهرات. أمسك بها وقربها إليه
 حتى التصق بها تمامًا وهما يرقصان لأول مرة ويدوران فوق الحلبة،
 إذا بها تعود فجأة لتجلس مع أختها، وتركته وحده مغيطًا لا يعرف
 ما حدث ولا لماذا حدث، ورأيت الفتاة التي لم أكن أعرف اسمها
 ماضية جالسة هناك في هدوء ترتشف بين حين وآخر عصير البرتقال،
 مالكة لنفسها تمامًا.

سمعت «بابل» يقول بنبرته الفرنسية المروعة:

- هل يمكن أن يكون لي الشرف بهذه الرقصة؟

وبعد برهة رأيتهما يرقصان بصمت في الطرف الآخر من الصالة،
 فدا. أمسك بها «بابل» بعيدًا عنه قدر المستطاع، حتى ليخيل إليك
 أنه سيقطع كل صلة له بها في أي لحظة. كان راقصًا رديئًا، أما هي
 فكانت أمهر راقصة رأيته خلال أيامي التي ترددت فيها على
 «الجران موند».

كانت علاقة حب شاقة ومخيبة للآمال، فلو أنني عرضت الزواج والإقامة معي لأصبح كل شيء ميسراً لي، ولغادرت الأخت الكبرى بهدوء ولباقة كلما كنا معاً. لكن مضت أشهر ثلاثة قبل أن أراها وحدها إلا للحظات قصيرة في شرفة «الماجستيك»، بينما لا تكف أختها في الغرفة المجاورة عن سؤالنا متى سندخل. وكانت ثمة مركب آتية من فرنسا تفرغ شحنتها على ميناء نهر سايجون تحت أضواء المشاعل، وأجراس «التريشو» ترن كأنها أجراس التليفونات وأحسست أنني حدثٌ غرٌّ بسبب كل ما عزمت أن أفضي به من كلام، فعدت يائساً إلى فراشي في شارع كاتينات. ولم أكن أحلم على الإطلاق أنها بعد أربعة أشهر ستكون راقدة إلى جانبي لاهثة الأنفاس قليلاً تضحك دهشة لأن شيئاً ما لم يكن على نحو ما توقعت.

- مسيو «فاولير».

كنت أرقبهما وهما يرقصان، ولم أر أختها وهي تشير إليّ من مائدة أخرى. وها هي تأتي وطلبت منها على مضض أن تجلس، فلم يتبادل مشاعر المودة على الإطلاق منذ تلك الليلة التي خرجت فيها مريضة من ملهى «الجران موند» وصحبتُ «فونج» إلى منزلها.

قالت:

- لم أرك منذ عام بأكمله.

- كثيراً ما أسافر إلى هانوي.

- من صديقك هذا؟

- رجل يُدعى «بايل».

- ماذا يعمل؟

- يتبع البعثة الاقتصادية الأمريكية، لعلك تعرفين شيئاً عن هذا الموضوع، ماكينات كهربائية للخياطة توزع على المعوزات المشتغلات بأعمال الخياطة.

- أهناك واحدة منها؟

- لست أدري.

- ولكنهن لا يستخدمن ماكينات الخياطة فليس ثمة كهرباء في أي مكان من الأماكن التي يعشن فيها. كانت امرأة واقعية تمامًا. قلت:

- عليك أن تسألني «بايل».

- أمتزوج هو؟

ونظرت إلى حلبة الرقص، وأنا أقول لها:

- أود أن أقول لك إن المسافة بينه وبين الزواج كالمسافة التي تفصل بينه وبين أي امرأة. إنه يرقص بطريقة رديئة للغاية.

- نعم.

- ولكنه يبدو رجلاً رقيق الحاشية وموحيًا بالثقة.

- أجل.

- هل لي أن أجلس معك قليلاً؟ فإن أصدقائي كلهم ثقلو الدم.

توقفت الموسيقى عن العزف، وانحنى «بايل» لـ «فونج» بطريقة مأمدة، ثم عاد بها، وجذب لها كرسيها لتجلس. وأستطيع أن أقول

إنها سُرّت لمراعاته قواعد السلوك. وكنت أفكر إلى أي حد قصرت
في علاقتي بها.

وقلت له «بايل»:

- هذه أخت «فونج»، الأنسة «هي».

- إنني سعيد جدًا بلقائك.

قالها، واحمر وجهه خجلًا. وسألته الفتاة:

- أنت قادم من نيويورك؟

- لا، من بوسطن.

- هل هي في الولايات المتحدة أيضًا؟

- أوه نعم، نعم.

- هل والدك من رجال الأعمال؟

- ليس كذلك بالضبط، إنه أستاذ.

وعادت تسأله، وفي صوتها نغمة خفيفة تنم عن خيبة أمل:

- مدرّس؟

- حسن، إن له سلطة ما، يستشير به الناس.

- في الشؤون الصحية؟ هل هو دكتور؟

- ليس دكتورًا من هذا النوع، إنه دكتور في الهندسة، فهو يفهم

في كل ما يتعلق بمظاهر التعرية التي تحدث تحت الماء، هل

تعرفين شيئًا عنها؟

- لا.

قال «بايل» في محاولة غامضة للسخرية:

- حسنًا، سأترك هذه المهمة لأبي ليحدثك عنها.

- هل هو هنا؟

- أوه لا.

- لكنه سيأتي؟

قال «بايل» معترضاً:

- لا، كانت هذه مجرد دعابة.

وسألت الأنسة «هي»:

- ألك أخت أخرى؟

- لا، لماذا؟

- يبدو لي أنكما تختبران مدى صلاحية السيد «بايل» للزواج.

- لي أخت واحدة.

فالتها الأنسة «هي» وخبطت بيدها في قوة على ركة «فونج»،
أنها قاضٍ يطرق بمطرقته ليعلن نقطة نظام.

قال «بايل»:

- إنها أخت غاية في الجمال.

قالت الأنسة «هي»، كمن تصحح له كلامه:

- إنها أجمل فتيات سايجون.

- أستطيع أن أو من على ذلك.

قلت:

- حان وقت طلبنا العشاء، حتى أجمل فتيات سايجون يجب أن

تأكل.

قالت «فونج»:

- لست جوعانة.

واستطردت الأنسة «هي» تقول في حزم، بل إن حديثها كان ينم عن نعمة وعيد:

- إنها رقيقة، وبحاجة إلى رعاية، وهي تستحق الرعاية، إنها وفيه إلى أبعد حدود الوفاء.

قال «بايل» بصوت هادئ وقور:

- صديقي إنسان محظوظ.

قالت الأنسة «هي»:

- إنها تحب الأطفال.

وضحكت ورمقت عيني «بايل»، كان ينظر إليّ دهشًا كمن صدم، وأدركت من فوري أنه كان مولعًا حقًا بسماع كل ما تقوله الأنسة «هي». وبينما كنت أطلب الغداء (على الرغم من أن «فونج» قالت لي إنها غير جائعة، فقد كنت أعرف أنها تستطيع أن تتناول شريحة اللحم المشوي اللذيذ مع بيضتين غير كاملتي النضج مع الإضافات). وسمعت «بايل» في هذه الأثناء يناقش بجدية مسألة الأطفال. قال:

- كثيرًا ما أفكر في أن يكون لي عدد كبير من الأطفال، فالأسرة الكبيرة متعة رائعة. وهي تدعم العلاقة الزوجية، فضلًا عن أنها تعود بالنفع على الأطفال. لقد كنت طفلًا وحيدًا، وإنه لخطأ جسيم أن يكون ثمة طفل وحيد.

لم أسمعه قبل ذلك يتحدث بمثل هذه الغزارة. سألت الأنسة «هي»:

- كم عمر أليك؟

- تسعة وستون عامًا.

- الشيوخ يحبون الأحفاد، إنه لأمر محزن حقًا أن أختي ليس لها أبوان ليفرحا بأطفالها حين يأتي الأوان.

أضافت جملتها الأخيرة، وهي تنظر إليّ نظرة كلها بؤس وألم.

قال «بابل»، ولم تكن هناك ضرورة لما قاله، على ما أظن:

- ولا أنتِ أيضًا؟

- كان أبونا من أسرة عريقة. كان يعمل موظفًا عامًا في هوي.

وقلت:

- لقد طلبت عشاء لكم جميعًا.

قالت الأنسة «هي»:

- لا تطلب لي، يجب أن ألحق بأصدقائي. أود أن أقابل السيد «بابل» مرة ثانية، ربما يمكنكم ترتيب هذه المقابلة.

فقلت:

- بعد أن أعود من الشمال.

- هل أنت ذاهب إلى الشمال؟

- أظن أن الوقت قد حان لألقي نظرة على الحرب.

قال «بابل»:

- ولكن رجال الصحافة عادوا جميعًا.

- هذا هو أفضل وقت بالنسبة لي، فلن يكون عليّ أن ألتقي بـ «جرانجر».

وهنا قالت الأنسة «هي» في تودد مشوب بالعبوس:

- إذن يجب أن تأتي لتتناول العشاء معي أنا وأختي عندما يرحل مسيو «فاولير»، لتدخل على قلبها البهجة.

قال «بابل» بعد أن انصرفت:
 -إنها امرأة رقيقة ومهذبة جداً، كما أنها تحدثت الإنجليزية بطلاقة.
 قالت «فونج» باعتزاز:
 -قل له إن أختي كانت تقوم ببعض الأعمال ذات يوم في سنغافورة.
 -حقاً؟ أي نوع من الأعمال؟
 وترجمتُ نيابة عنها:
 -الاستيراد والتصدير، كما أنها تجيد الاختزال.
 -بودي أن يكون لدينا الكثير من أمثالها في البعثة الاقتصادية.
 قالت «فونج»:
 - سأحدثها في ذلك، فهي يسرها أن تعمل مع الأمريكيان.
 ورقصا ثانية بعد العشاء. أنا راقص رديء أيضاً، بيد أنني لا أتمتع
 بنفس المقدرة على عدم إدراك الذات التي يتمتع بها «بابل». وتساءلت
 آه لو كنت أتمتع بهذه المقدرة في أيام حبي الأول لـ«فونج»؟ لا بد أنه
 كانت هناك مناسبات كثيرة في ملهى «الجران موند» قبل تلك الليلة التي
 لا تنسى، ليلة أن مرضت الأنسة «هي» وراقصت «فونج» فقط لأجد
 فرصة الحديث إليها. أما «بابل» فلم يكن يغتنم مثل هذه الفرصة إذ إنهما
 دارا حول الحلبة ثانية، واسترخى قليلاً ولم يفعل أكثر من ذلك، وأمسك
 بها على بُعد مسافة تقل قليلاً عن امتداد ذراعيه بيد أنهما كانا صامتين.
 وفجأة سقط نظري على قدميها، خفيفتان للغاية ودقيقتان، تتحكمان في
 حركته، ووقعت في الحب مرة أخرى. لم أكن أصدق أنها بعد ساعة أو
 ساعتين ستعود معي إلى تلك الغرفة القذرة، ذات المرحاض المشترك
 والنسوة العجائز الجالسات القرفصاء عند منبسط الدرج.

وددت لو أنني لم أسمع أبدًا تلك الإشاعة عن فات ديسم، أو أنها
«انت خاصة بأي مدينة أخرى غير هذا المكان في الشمال حيث تجمعني
صدقة بضابط بحري فرنسي سيهيئ لي الفرصة لكي أنسلّ خفية، بغير
غابة أو تحكّم. أسبقُ صحفي؟ ليس في هذه الأيام التي يتشوف فيها
الناس للقراءة عن كوريا. أفرصة للموت؟ لماذا أنشد الموت و«فونج»
من أحضاني كل ليلة؟ بيد أنني عرفت الإجابة عن ذلك السؤال. إنني
أم أو من منذ طفولتي بالخلود، وإن كنت أتوق إليه. كنت أخشى دائمًا
أن أفقد السعادة. ستركني «فونج» في هذا الشهر، في العام القادم.
إذا لم يكن العام القادم ففي غضون أعوام ثلاثة. كان الموت وحده
هو القيمة المطلقة في عالمي. إذا خسر المرء الحياة فلن يخسر شيئًا
ناية إلى الأبد. وكنت أغبط أولئك الذين يؤمنون بأن ثمة إلهاً وأرتاب
منهم. إنهم يستجمعون شجاعتهم بفضل خرافة اللامتغير والأبدي. إن
الموت مؤكد أكثر من الله، ومع الموت تنتفي كل إمكانية يومية لموت
الحب، وسيزول عنا كابوس مستقبل كله ملل ولا مبالاة. إنني لم أستطع
بومًا أن أكون داعية سلام. فقتلك لإنسان يعني يقينًا أنك تمنحه فائدة
لا حدود لها. نعم، لقد اعتاد الناس، دائمًا وفي كل مكان، أن يحبوا
اعداءهم، وأن يُبقوا على أصدقائهم للألم وحياة الفراغ.

سمعت صوت «بابل»:

٩

- معذرة أن أخذت منك الأنسة «فونج».

- لست راقصًا، بيد أنني أحب مشاهدة رقصها.

كنت أتحدث عنها دائمًا بضمير الغائب، رغم أنها لم تكن غائبة،
لقد كانت تبدو لي، أحيانًا، كالسلام شيئًا غائبًا عن العين.

بدأت أولى الفقرات الليلية: مغنٌ، حاوٍ، وكوميديان كان فاحشاً غاية الفحش. وكلما نظرت إلى «بابل» بدا لي واضحاً أنه عاجز عن متابعة اللغة العامية، يتسم إذا ما ابتسمت «فونج»، ويضحك بصعوبة إذا ما رأيته أضحك.

قلت:

- ترى أين «جرانجر» الآن.

نظر إليّ «بابل» نظرة تأنيب.

حان منتصف الليل، وظهرت جوقة من الإناث في ثياب تنكزية. سبق لي أن رأيت كثيرات منهن أثناء النهار يجبن شارع كاتينات جينّة وذهاباً، وقد ارتدين سراويل فضفاضة وسترات بالية، وأردافهن تتمايل. وها هن الآن يرتدين فساتين قصيرة للسهرة، ويتحلين بجواهر مزيفة ويضعن نهوداً زائفة وأصواتهن مبحوحة. يجاهدن قدر الاستطاعة ليظهرن، على الأقل، في صورة مقبولة مثل أكثر النساء الأوروبيات في سايجون. وشرعت مجموعة من ضباط الطيران يصفرون لهن وجاوبنهم بابتسامة كلها إغراء. ودهشت لاحتجاج «بابل» الفجائي العنيف حين قال:

- «فاولر»، هيا بنا، لقد رأينا ما فيه الكفاية، إن هذا المشهد لا يليق بها.

الفصل الرابع

(١)

من أعلى برج أجراس الكاتدرائية لم تكن المعركة إلا منظرًا أخاذًا هامدًا، أشبه بصورة بانورامية لحرب البوير منشورة في عدد قديم من «أخبار لندن المصورة». وثمة طائرة كانت تُسقط بالمظلات إمدادات لموقع منعزل وسط جبال كالكير المتاخمة لمنطقة أنام، تلك الجبال التي تآكلت بفعل عوامل التعرية الجوية وأصبحت تشبه أكوامًا من حجر الخفاف، ويبدو أنها لم تتحرك من مكانها قط، إذ إن سفوحها المنحدرة كانت تعيد ما يتآكل منها إلى نفس المكان تقريبًا، والمظلة هناك دائمًا في نفس الموقع عند منتصف المسافة إلى الأرض. من السهل تصاعدت انفجارات قذائف «الهاون» على وتيرة واحدة، دخانها صلب صلابة الحجر، وألسنة اللهب تتصاعد في السوق،^١ لو أنها شاحب في ضوء الشمس. وأجسام المظليين الدقيقة تتحرك في طابور منفرد على طول حواف القنوات، لكنها بدت من هذا الارتفاع

كانها جامدة في مكانها. حتى القيس القابع في ركن من البرج لم يغير وضعه أبدًا وهو منهمك في قراءة كتاب الصلوات. بدت الحرب من هذا البعد شيئًا منسقًا ونظيفًا للغاية.

بدأت رحلتي إلى هنا من نام دين على ظهر سفينة نهريّة، ووصلت قبل الفجر. لم يكن من المستطاع أن ترسو بنا السفينة في المحطة البحرية، فقد انقطع الطريق بعد أن أحكم العدو حصاره للمدينة على بُعد ستمائة ياردة، ومن ثم فقد شقت السفينة طريقًا لها بمحاذاة السوق المشتعل بالنيران. كنا هدفًا سهلاً في ضوء ألسنة اللهب، ولكن لسبب ما لم يطلق علينا أحد النار. كان كل شيء هادئًا جدًا إلا من صوت فرقة الأكشاك التي أضرمت فيها النيران. واستطعت أن أسمع صوت حارس سنغالي يغير موقعه على حافة النهر.

كنت قد زرت فات ديم قبيل الهجوم بأيام قلائل وعرفتُها جيدًا؛ شارعها الوحيد الطويل الضيق، تحيط به أكشاك خشبية، وتتقاطع معه على بعد كل مائة ياردة قناة وكنيسة وقنطرة. وفي المساء لا تضيئه غير الشموع أو مصابيح زيت صغيرة (فلم تكن هناك كهرباء في فات ديم سوى في ثكنات الضباط الفرنسيين) ولم يكن الشارع ليخلو نهارًا أو ليلاً من الناس والضجيج. كانت أكثر المدن حياة في هذه المنطقة، مع طريققتها الغريبة الشبيهة بالعصور الوسطى، تحت ظل وحماية كبير الأساقفة، والآن بعد أن رسوُتُ إلى البر وقصدت ثكنات الضباط ألفيتها أكثرها مواتًا. أكوام الحجارة المتناثرة، والزجاج المهشم، ورائحة الطلاء والجبس المحترقين، وبدا الشارع الطويل فقيرًا على طول امتداد البصر، مما أعاد إلى ذاكرتي منظر أحد الطرق العامة في

لندن في الصباح المبكر بعد دوي صفارة انتهاء الخطر وقد هجره الناس جميعاً إلى بيوتهم. وتوقعت أن أرى لوحة: «احذر: قبلة لم نفجر».

تهدم الجدار الأمامي لبيت الضباط، وتحولت المنازل المقامة على الطريق إلى خرائب، وأخبرني الملازم «بيرو» بكل ما حدث أثناء رحلتي في النهر من نام دين، هو ضابط شاب ماسوني جاد يرى فيما وقع جزء من القدر لما يؤمن به رفاقه من خرافات. كان أسقف فات ديسم قد زار أوروبا ذات مرة واكتسب إيماناً بسيدة فاتيما، تلك الرؤيا للعدراء التي ظهرت، حسب الرومان الكاثوليك، لمجموعة من الأطفال في البرتغال. وبعد أن عاد إلى بلده أقام مغارة تيمناً بها في دائرة المنطقة التابعة للكاتدرائية، واعتاد أن يقيم موكباً كل عام احتفالاً بعيدها. وتوترت العلاقات مع قائد القوات الفرنسية والفيتنامية منذ ذلك اليوم الذي سرحت فيه السلطات المسؤولة الجيش الخاص بالأسقف. وكان ثمة تعاطف ومودة بين هذا القائد والأسقف، إذ كان كلُّ منهما يؤمن بأن بلده أهم عنده من الكاثوليكية. وفي هذا العام حيا القائد الأسقف تحية مودة وسار مع كبار ضباطه في مقدمة الموكب. ولم تشهد فات ديسم في تاريخها حشدًا بهذه الضخامة تجمع تكريمًا لسيدة فاتيما. بل إن كثيرًا من البوذيين -الذين يؤلفون نصف السكان تقريبًا- لم يحتملوا أن تفوتهم متعة المساهمة في المهرجان، واعتقد أولئك الذين لا يؤمنون بأي إله أن كل هذه الرايات والمباخر ووعاء السر المقدس الذهبي للكنيسة ربما تحفظ بيوتهم من ويلات الحرب. ولم يكن قد بقي من جيش الأسقف

سوى فرقة الموسيقى النحاسية التي تقدمت الموكب، يتبعها - بأمر القائد - الضباط الفرنسيون الذين بدا عليهم الورع، كأنهم كورس المرتلين من أطفال الكنيسة. وعبر الموكب البوابة إلى داخل منطقة الكاتدرائية، ومر أمام التمثال الأبيض للقلب المقدس القائم على جزيرة وسط بحيرة صغيرة تطل عليها الكاتدرائية، وواصل مسيرته تحت برج الأجراس بأجنحته المبسوطة الشرقية الطابع، ثم اجتاز الكاتدرائية المبنية من خشب محفور، وأعمدتها العملاقة التي صنعت من جذور الشجر، والمذبح ذا النقوش القرمزية التي يغلب عليها الطابع البوذي أكثر من المسيحي. وتدفع الناس إلى الكاتدرائية آتين من القرى القائمة بين القنوات وحقول الأرض الواطئة حيث تنبت براعم الأرز الخضراء والمحاصيل الذهبية بدلًا من أزهار التيوليب وكنائس طواحين الهواء.

لم يلاحظ أحد عملاء «الفيتمنه» الذين انضموا إلى الموكب أيضًا، وفي تلك الليلة بينما كانت الفرقة الرئيسية للشيوعيين تتحرك عبر ممرات منطقة كالكير في طريقها إلى سهل تونكين ترقبها في عجز نقطة حراسة الحدود الفرنسية الواقعة على الجبال المطلة على هذه المنطقة، ضرب العملاء المتقدمون في فات ديم.

الآن وبعد أربعة أيام استطاعوا، بمساعدة المظليين، دفع العدو إلى الخلف لمسافة نصف ميل حول المدينة. كان هذا بمثابة هزيمة، ومن ثم لم يُدع الصحفيون، ولم يُسمح بإرسال برقيات، ذلك أن الصحافة يجب ألا تنشر شيئًا غير الانتصارات. كانت السلطات المسؤولة في هانوي ستحتجزني إن علمت غرضي، ولكنك كلما

اردت بعداً عن مراكز القيادات العسكرية تخف قيود الرقابة، إلى أن تجد نفسك موضع حفاوة وترحيب بعد أن تدخل دائرة نيران العدو. وما يمثل تهديداً في نظر قائد أركان الحرب في هانوي وقلقاً بالنسبة للقائد العام في نام دين، يعده الملازم في أرض المعركة دعابة وترويحاً وعلامة اهتمام من جانب الآخرين الذين يعيشون بعيداً عن المعركة، لذلك فإنه يستطيع خلال ساعات قليلة أن يسبغ على نفسه بعض الأهمية، وهو يرى كل شيء في ضوء من البطولة الزائفة بمن في ذلك جرحاه وموتاه.

طوى القسيس كتاب الصلوات وقال: «حسنًا، لقد فرغت من هذا». كان أوروبيًا، ولكنه لم يكن فرنسيًا. إذ إن الأسقف ما كان ليسمح بقميس فرنسي في أبروشيته، قال معتذرًا: «كان لا بد لي أن انهي إلى هنا، كما تعلم، لأنعم ببعض الهدوء بعيداً عن كل أولئك المساكين». بدا لي أن أصوات نيران مدافع «الهاون» تقترب منا، أو ربما كان العدو يرد أخيرًا. وكانت الصعوبة الغربية تتمثل في العثور عليهم، إذ كانت هناك دزينة من الجبهات المحدودة، وفضلاً عن ذلك كانت هناك فرص لا حصر لها لنصب كمائن بين القنوات ومباني الفلاحين وحقول الأرز.

تحتنا مباشرة كان كل سكان فات ديم بين جالسين وراقدين، الكاثوليكيون والبوذيون والوثنيون حزموا كل ما غلا ثمنه من الممتلكات - موقد طهي، مصباح، مرآة، ملابس، حصير، صورة مقدسة - وانتقلوا جميعاً إلى داخل منطقة الكاتدرائية. هنا في الشمال يشتد البرد عادة مع حلول المساء، وبالفعل كانت الكاتدرائية مكتظة؛

لم يعد ثمة مكان يأوي إليه أحد، حتى السلم المؤدي إلى برج الأجراس احتل اللاجئون كل درجاته، وكلما امتد بنا الوقت تزايد عدد الناس المتراحمين داخل البوابات حاملين أطفالهم وأمتعته المتزلية. كانوا يعتقدون جميعًا، على اختلاف دياناتهم، أنهم سيكونون هنا بمأمن من الأخطار. بينما كنا نرقبهم اندفع شاب يرتدي زياً فيتنامياً ويحمل بندقيّة فشق طريقه بينهم. وأوقفه القسيس، وأخذ بندقيته منه. قال الأب الواقف بجانبني موضعاً «نحن هنا محايدون، فهذه أرض الرب». قلت لنفسي: «إنهم مساكين أولئك الذين اختارهم الرب ليسكنوا مملكته، يعانون من الخوف والجوع والبرد، (أخبرني القسيس: «لست أدري كيف سنطعم هؤلاء الناس») لعلك تظن أن ملكاً عظيماً قد يفعل ما هو أفضل من ذلك». ثم فكّرتُ: «الشيء نفسه دائماً أينما ذهبت، ليس أقوى الحكام سطوة هم الذين يحكمون أسعد الناس».

وكانت هناك دكاكين صغيرة مقامة بالفعل تحت الكاتدرائية، قلت: - ما أشبه هذا بمهرجان ضخم، أليس كذلك؟ ولكن من دون وجه واحد تعلوه ابتسامة.

قال القسيس:

- كانوا بالأمس يعانون من البرد لدرجة مروعة. اضطررنا إلى غلق بوابات الدير، وإلا فإنهم كانوا سيهجمون علينا كالطوفان. سألته:

- هل كنتم، جميعًا، تنعمون بالدفء هناك؟

- لم يكن دفئاً كاملاً. ولم يكن في وسعنا أن نجد مكاناً يتسع لعشرهم. أنا أعرف ما يدور بخلدك، بيد أنه أمر لازم وضروري

بالنسبة لبعض منا أن يحتفظ بصحته. فنحن نملك المستشفى الوحيد في فات ديم، وليس ثمة ممرضات غير هؤلاء الراهبات. - وطبييكم الجراح؟

- إنني أفعل ما في وسعي.
وهنا لاحظت أن ثوبه الكهنوتي عليه بقع من الدم.
قال:

- هل أتيت إلى هنا لمقابلتي؟
- لا، بل أردت أن أعرف ما سأفعل لاحقًا.
- لقد سألتك لأن رجلاً صعد إلى هنا ليلة أمس وطلب مني الاعتراف. فقد انتابه الخوف مما رآه على طول القناة، ولا يسع المرء أن يلومه على هذا.

- هل الأمر سيئ هناك إلى هذا الحد؟
- لقد حاصروهم المظليون داخل حلقة من النيران، يا لهم من أرواح بائسة. لعلك، على ما أظن، تحمل نفس الشعور.
- لست كاثوليكيًا من أتباع كنيسة روما، بل لا أظن أنك تستطيع أن تقول حتى إنني مسيحي.
- غريب ما يفعله الخوف بإنسان.

- هذا ما لا يفعله بي أبدًا. ولو أنني أو من ياله أيًا كان، فإنني سأظل على كراهيتي لفكرة الاعتراف. أكره أن يجثو الإنسان على ركبتيه في إحدى صوامعك. وأكره أن أعري نفسي أمام إنسان آخر. أستميتك العذر يا أبي، فإن الأمر يبدو لي مسألة مرضية، بل حتى غير إنسانية.

قال بصوت خفيض:

- أوه، أظنك إنسانًا طيبًا، لا أعتقد أنك فعلت ما تأسف عليه أبدًا ونظرت إلى الكنائس وهي تمتد على استقامتها على طول الفراغات القائمة بين القنوات حتى تنتهي عند البحر، وبرق وميض عند البرج الثاني.

قلت:

- إنكم لم تحافظوا على حياد كل كنائسكم.

قال:

- هذا أمر غير ممكن، فقد قِيلَ الفرنسيون ذلك بالنسبة لمنطقة الكاتدرائية وحدها. ولا نتوقع أكثر من ذلك. إن ما ننظر إليه هو أحد مواقع «الفرقة الأجنبية».

- سامضي، وداعًا يا أبي.

- وداعًا وحظًا سعيدًا. حذارٍ من القناصة.

كان عليّ أن أشق طريقي بين الحشد مارًا بالبحيرة والتمثال الأبيض بذراعيه المنفتحتين بترائح حتى أصل إلى الخارج حيث الشارع الطويل. استطعت أن أكشف جانبي الطريق على امتداد ثلاثة أرباع الميل. وعلى طول هذه المسافة كان هناك اثنان من الأحياء بالإضافة إليّ، جنديان يرتديان خوذين مموهتين يسيران على مهل على طول جانب الشارع، وقد وضعار شاشيهما «ستين» في وضع الاستعداد. أقول «الأحياء» لأن جثة كانت ملقاة هناك أمام أحد الأبواب بينما رأسها ملقى على قارعة الطريق. ولم يكن من صوت غير طنين الذباب الذي يتجمع هناك، وأحذية الجنود الثقيلة يخفت صوتها رويدًا

وبدا. وحين مررت بجانب الجثة غذذت السير، وأدّرت رأسي إلى جانب الطريق الآخر. وبعد دقائق قليلة نظرت خلفي فإذا بي وحيداً مع ظلي، ولم يكن ثمة غير الأصوات التي تصدر عني. وأحسست أنني هدف في مرمى النيران. وفكرت في أن ساعات عديدة قد تمر قبل انتشالي إذا حدث لي حادث في هذا الطريق، كافية كي يتجمع اللباب من حولي.

وبعد أن اجتزت قناتين سرت في منعطف يصل بي إلى إحدى الكنائس. ألفت دزينة من الرجال جلوساً على الأرض، وقد ارتدوا الملابس المموهة الخاصة بالمظليين، بينما يتفحص ضابطان إحدى الخرائط. ولحقت بهم فلم يعرني أحدهم أدنى اهتمام. قال رجل: «مسك بصارية طويلة لجهاز لاسلكي خاص بالميدان:» يمكن أن «حرك الآن»، ووقف الجميع.

وسألتهم بلغتي الفرنسية الرديئة إن كان ممكناً أن أصحبهم. من مزايا هذه الحرب أن الوجه الأوروبي، بعد في ذاته جواز مرور في أرض المعركة؛ إذ لا يمكن الشك في أوروبي أنه عميل للعدو. وسألني الملازم:

- من أنت؟

- أنا أكتب عن الحرب.

- أمريكي؟

- لا، إنجليزي.

قال:

- إنها مسألة بسيطة للغاية، ولكن إذا شئت أن تأتي معنا...

وهنا بدأ يخلع خوذته المصنوعة من الصلب.
وقلت:

- لا لا، فهذه للمقاتلين.
- كما تشاء.

وسرنا خلف الكنيسة في طابور منفرد يتقدمنا الملازم، وتوقفنا لحظة عند حافة قناة، ريثما يتصل جندي الإشارة بالدورية الموجودة على الجانب الآخر. وبدأت قذائف «الهاون» تمزق الجو فوقنا وتنفجر بعيداً عن مجال البصر، وجمعنا عدداً أكبر من الرجال خلف الكنيسة، وأصبحنا الآن حوالي الثلاثين. طعن الملازم بإصبعه موضعاً على الخريطة، وبدأ يشرح لي بصوت خفيض:

- وصل إلينا تقرير يفيد أن ثلاثمائة قد تجمعوا هنا في هذه القرية، ربما يحتشدون لعمل يقومون به الليلة، لسنا ندري، فلم يعثر عليهم أحد بعد.

- كم يبعدون؟

- ثلاثمائة ياردة.

التقط اللاسلكي بعض الكلمات وواصلنا السير بصمت، على يميننا القناة الممتدة باستقامة، وعن يسارنا أرض تغطيها الأعشاب وحقول ثم أعشاب مرة أخرى. وبينما نحن منطلقون همس الملازم بنغمة تنسم بالتأكيد «المكان خالٍ تماماً». بعد أربعين ياردة عبرنا قناة أخرى كانت لا تزال قنطرتها مقامة عليها، ومر أمامنا طوف خشبي. وأشار إلينا الملازم أن نتشر، وجلسنا القرفصاء مواجهين تلك الأرض المجهولة على بعد ثلاثين قدماً عبر الطوف الخشبي.

نظر الرجال إلى الماء، ثم إذا بهم جميعاً وفي وقت واحد يشيحون
بصرهم عنه كأنما صدر إليهم أمر بذلك. مضت برهة قبل أن أرى
ما راوه، ولا أدري لماذا عادت بي الذاكرة حينذاك إلى الورا حيث
«الشالية» والنساء المتكررات، والجنود الشبان وهم يصفرون، وإلى
«بابل» حين قال لي: «هذا مشهد غير ملائم».

كانت القناة مليئة بالجثث، ذُكِرْتُ الآن بحساء أيرلندي يحوي
أحماً كثيراً جداً. تراكمت الجثث فوق بعضها؛ رأس واحد رمادي
ملون حيوان الفقمة، غفل من كل المعالم كأنه رأس مجرم حليق،
يطفو على الماء كأنه عوامة. لم يكن ثمة دماء، أظن أنها جرت مع
الماء منذ زمن طويل. ولا أدري كم من هذه الجثث هناك، لا بد أنهم
حوصروا داخل دائرة متقاطعة من النيران وهم يحاولون الرجوع،
أظن أن كل رجل منا على طول حافة القناة كان غارقاً في التفكير
«يمكننا أيضاً فعل ذلك». وأشحت بعيني بعيداً أنا الآخر؛ لا نريد
شئنا يذكرنا بمدى ضآلتنا وكيف يأتي الموت بسرعة وبساطة وعلى
غير توقع. وعلى الرغم من أن عقلي يتشوف لحالة الموت، إلا إن
خوفاً أليماً بي كأنتني عذراء تخشى فعل الجنس. كنت أفضل أن يأتيني
الموت ومعه تحذير في الوقت الملائم حتى يتسنى لي أن أهيئ النفس
للفاته. لماذا؟ لم أكن أعرف لماذا أو كيف. فيما خلا نظرة ألقياها على
الفيل الذي سأخلفه ورائي.

جلس الملازم إلى جانب الرجل حامل اللاسلكي وحملق إلى
الأرض فيما بين قدميه. وبدأت الآلة تحدث طقطقة بتعليمات،
ونفض الضابط واقفاً وهو يتنهد كأنه أوقظ من نومه. كانت تسود

بينهم ألفة غريبة فيما يتعلق بكل حركاتهم، وكأنهم جميعًا ملتزمون على قدم المساواة بعمل اشتركوا معًا في أدائه منذ زمن قديم لا تعيه الذاكرة. لم يكن أيُّ منهم ينتظر حتى يُقال له ما عليه أن يفعله. تقدم رجلان ناحية الطوف الخشبي وحاولا أن يعبراه، بيد أنهما فقدتا توازنهما بسبب ثقل أسلحتهما، فاضطرا أن يمتطياه ويحاولا التقدم عليه بوضة بعد بوضة. وعثر رجل آخر على قارب من مخبأ بين الأحراش على شاطئ القناة وسار به إلى حيث يقف الضابط. ركب ستة منا في القارب وبدأ الرجل يوجهه نحو الشاطئ الآخر، إلا إننا اصطدمنّا بسرب من الجثث سد علينا الطريق. استخدم القائمة الخشبية ليعبد بقاربه، غرزها في الطمي البشري، وانفصلت إحدى الجثث فطفت فوق سطح الماء وامتدت بكل طولها إلى جانب القارب كأنها إنسان يسبح معرضًا جسده لحمام شمس. ثم تحررنا ثانية، ووصلنا فجأة إلى الجانب الآخر، فتسلقناه دون أن نلقي نظرة إلى الوراء. لم نطلق طلقة واحدة وها نحن أحياء؛ انسحب الموت وربما أصبح على بعد القناة التالية. وسمعت ورائي مباشرة من يقول بجديّة كبيرة وبلغة ألمانية: «الحمد لله». فقد كان أكثرهم من الألمان باستثناء الملازم وحده.

بعيدًا كانت هناك مجموعة من البيوت الريفية، سار الملازم في المقدمة بمحاذاة الحائط، ونحن وراءه في طابور منفرد، يفصل بين كلّ منا مسافة ست أقدام. ثم انتشر الرجال وسط المزرعة، دون أن يصدر إليهم أمر بذلك. لقد هجرتها الحياة فلم يتخلف سوى دجاجة، وعلى جدران إحدى الحجرات، وربما كانت حجرة استقبال، علقت

صورتان زيتيتان بشعتان من الصور المقلدة الفنية للقلب المقدس
والعذراء والمسيح، منحتا لكل هذه المجموعة من المباني المتداعية
موا أوروبيًا. إن المرء يعرف بِمَ كان هؤلاء الناس يؤمنون، حتى دون
أن يشاركهم عقيدتهم، لقد كانوا بشرًا، وليست مجرد جثث رمادية
سفك دمها.

حرب ضخمة حولنا جالسة من دون أن تفعل شيئًا، في انتظار
شخص آخر. وإذا لم يكن هناك ضمان لفسحة من الوقت، فإن الأمر
أم يكن يحتمل الشروع في سلسلة من التفكير. انطلقت دوريات
الحراسة لتؤدي نفس العمل الذي سبق أن قامت به مرارًا. وأصبح
كل ما يتحرك أمامنا عدوًا. تأمل الضابط خريطته ثم أبلغ عن موقعنا
اللاسلكي. ساد صمت الظهيرة، حتى مدافع «الهاون» سكنت هي
الأخرى وخلا الجو من الطائرات. رجل عبث بغصن شجرة في
الغادورات المتخلفة في أرض المزرعة. أحسنا بعد قليل كأن
الحرب قد غفلت عنا تمامًا. أرجو أن تكون «فونج» قد أرسلت ستراتي
إلى محل تنظيف الملابس. عبثت ربح باردة بالهشيم الموجود في
فناء المزرعة، وانسل رجل بهدوء إلى ما وراء المخزن ليقضي حاجته.
حاولت أن أتذكر ما إذا كنت قد دفعت للقنصل البريطاني في هانوي
نمن زجاجة الويسكي التي قدمها لي.

وانطلقت قذيفتان ناحيتنا. وقلت في نفسي «ها هو يأتيني الآن»،
«قد كان هذا هو عين التحذير الذي أنشده. وانتظرت الشيء الأبدي
في نفسي إحساس بالغبطة.

ولكن شيئًا لم يحدث. هأنذا مرة أخرى «أنهياً لملاقاة الحدث قبل

أوانه». وبعد دقائق طويلة دخل علينا أحد الحراس، وأبلغ الضابط بأمر ما. واستطعت أن ألتقط الكلمة التالية بالفرنسية «مدنيان».

قال الملازم: «سندهب لنرى»، وسرنا وراء الحارس الذي اتخذ طريقاً عبر ممر يفصل حقلين وتغطيه كميات كبيرة من الوحل. على بعد عشرين ياردة وقع بصرنا على حفرة ضيقة، وألفينا بداخلها ما كنا نبحث عنه؛ امرأة وطفلاً صغيراً. كان واضحاً تماماً أنهما ميتان؛ ثمة جلطة دم صغيرة تغطي جبهة المرأة، وربما كان الطفل نائماً. في السادسة من عمره تقريباً، راقدًا كجنين في رحم أمه، وركبته النائمتان الصغيرتان مطويتان إلى صدره. قال الملازم: «يال سوء الحظ». انحنى وقلبَ الطفل. كان يعلق حول رقبته أيقونة مقدسة، وقلت لنفسي: «لم تفعل التعويذة فعلها». كانت هناك تحت جثته كسرة خبز وقد قضم منها لقمة. وفكرت: «إنني أكره الحرب».

قال الملازم بفضفاضة: «هل رأيت ما فيه الكفاية؟»، كأنني المسؤول عن هذه المنايا، ربما ينظر الجندي إلى المدني على أنه الشخص الذي يسخره للمقتل، يضع له الإحساس بذنب جريمة القتل في مظهره يحتوي على راتبه الشهري ثم يهرب من المسؤولية. عدنا إلى المزرعة وجلسنا ثانية فوق التبن يلفنا الصمت، بعيداً عن الرياح التي تبدو كأنها حيوان بري عرف أن الليل قارب على الهبوط. الرجل الذي كان يفتش بين القاذورات جلس ليقضي حاجته، والآخر الذي قضى حاجته كان يفتش بين القاذورات. وسرحت بأفكاري، ربما ظناً أنهما بمأمن فخرجا من حفرتهما في تلك اللحظات التي سادها الهدوء، بعد أن اتخذ الحراس مواقعهم. وحدثت نفسي ترى هل

«صبا في تلك الحفرة زمانًا طويلًا، فقد كان الخبز جافًا للغاية. ربما نابت هذه المزرعة دارهم.

بدأ اللاسلكي في العمل ثانية. قال الملازم وقد بدا عليه الإعياء: «سيقصفون القرية بالقنابل، ودوريات الحراسة مطلوب منها العودة هذه الليلة». نهضنا وبدأنا رحلتنا عائدين، نجدف بقاربنا حول حشود الجثث، وسرنا في طابور أمام الكنيسة. لم نقطع مسافة طويلة، مع ذلك خُيِّل إلينا أننا قمنا برحلة طويلة بما فيه الكفاية بالقياس إلى النتيجة الوحيدة التي حققناها وهي قتل هذين الاثنين. حلقت «طائرات، وبدأ القصف من ورائنا.

هبط الليل ساعة وصولي إلى ثكنات الضباط حيث اعتزمت أن أقضي ليلتي. ودرجة الحرارة لا تزيد عن الصفر إلا بدرجة واحدة. وليس ثمة مكان فيه دفء غير السوق الذي أضرمت فيه النيران. ومع أحد جدران الثكنة مهدومًا بفعل قذيفة مدفع «بازوكا»، والأبواب موصدة بالمزلاج، لم تمنع ستائر الخيش تيار الهواء. كان مولد الكهرباء معطلًا، وأضيئت الشموع واضطربنا إلى وضع متاريس من الصناديق والكتب ل تمنع الهواء حتى لا تنطفئ الشموع. ولعبت مع الكابتن «سوريل» لعبة ٨١ مقابل عملة شيوعية، فلم يكن مستطاعًا أن نلعب مقابل مشروبات لأنني ضيف على الميس. وأعيانا الحظ بين المكسب والخسارة. وأخرجت زجاجة الويسكي التي أحتفظ بها وفتحتها علنا ننعم بعض الدفء، وتجمع الباقون حولنا. قال الكولونيل: «هذه هي أول كأس ويسكي أشرب منها منذ تركت باريس».

دخل أحد الملازمين بعد جولة له على دوريات الحراسة وقال:
- ربما نعمنا بليلة هادئة.

قال الكولونيل:

- إنهم لن يهاجموا قبل الرابعة صباحًا.

وسألني:

- أمعك بندقية؟

- لا.

- سأتيك بواحدة. من الأفضل أن تحتفظ بها على وسادتك.

ثم استطرد قائلاً في بشاشة:

- أخشى أن تجد فراشك قاسيًا. ستبدأ مدافع «الهاون» في إطلاق

قذائفها في الساعة الثالثة والنصف فنحن نحاول أن نفص أي

تجمعات.

- إلى متى ستستمر، في تقديرك، هذه العملية؟

- من يدري؟ لم يعد من المستطاع سحب قوات جديدة من

نام دين. إن ما نفعله هنا هو مجرد مناورة. ولو قدر لنا الصمود

بغير حاجة إلى مزيد من الإمدادات أكثر مما وصلنا منذ يومين

فإن هذا يُعد، في رأيي، نصرًا.

هبّت الريح من جديد تتلمس لها طريقًا تدخل منه. وتمايلت

ستائر الخيش، واهتز معها لهيب الشموع (دُكِّرْتُ بـ«بولونيوس»

الذي طُعن وراء الستائر). وبدت الظلال مسرحية. وخُيِّلَ إليَّ أننا

صحبة من المغامرین.

- هل مواقع الحراسة على استعداد؟

- اعتقد ذلك على قدر علمي.

ثم قال وقد بدا عليه تعب شديد:

- كما تعلم فهذا لا يُعد شيئًا. إنها لمسألة غير ذات أهمية بالقياس إلى ما يحدث في هوا بين على بعد مائة كيلومتر. فتلك هي المعركة بحق.

- هل لك في كأس أخرى يا كولونيل؟

- شكرًا، لا. إنه رائع هذا الويسكي الإنجليزي الذي تصنعونه. ولكنني أفضل أن تُبقي بعضًا منه فقد تحتاج إليه أثناء العمل. أظن أنه قد حان الوقت، إذا أذنتم لي، لأغفو قليلًا. فالمرء يصعب عليه النوم بعد أن تبدأ مدافع «الهاون» إطلاق قذائفها. كابتن «سوريل»، سترعى أنت مسيو «فاولير»، لترى إذا ما كان قد توفر له كل ما يحتاج إليه، شمعة، وثقاب، ومسدس. ثم دلف إلى حجرته.

كانت هذه إشارة منه لنا جميعًا. وضعوا لي حشية على الأرض داخل مخزن صغير. وألفيت نفسي محاصرًا بعدد من الحقائق الخشبية. ظللت يقظًا برهة قصيرة، وألفيت قساوة الأرض والراحة هنا سواء. تساءلت ترى هل «فونج»، الآن، في الشقة، والغريب أن تساؤلي هذا لم يكن بدافع من الغيرة. بدا لي في هذه الليلة أن الجسد شيء تافه للغاية، ربما لأنني رأيت في ذلك اليوم كثيرًا من الجثث المجهولة التي لا تنتمي لأحد، بل لا تنتمي إلى نفسها. لقد كنا جميعًا معرضين للهلاك. بعد أن استغرقت في نومي رأيت «بابل» في الحلم، كان يرقص وحده بجمود على خشبة مسرح، وذراعه

ممدودتان لرفيقة غير مرئية، وجلست أرقبه من فوق مقعد يشبه مفعاً الموسيقى. ممسكاً بيدي بندقية. على أهبة الاستعداد في حالة ما إذا حاول أي شخص أن يتدخل في رقصته. وثمة برنامج أعدّه المسرح يشبه النُمر التي تقدمها إحدى قاعات الموسيقى في إنجلترا وقرأت في البرنامج «رقصة الحب. الحائزة على الجائزة الأولى». وتحرك شخص ما خلف المسرح وشدت يدي على البندقية. ثم صحوّت من نومي.

كانت يدي على البندقية التي أعيرت لي. وثمة شخص واقف عند المدخل ممسكاً بشمعة في يده. كان يرتدي خوذة من الصلب تلقي ظلّاً على عينيه، وعرفته فقط حين تكلم أنه «بايل». قال على استحياء:

- آسف أشد الأسف إذ أيقظتك. أخبروني أنه يمكنني أن أنام هنا.

لم أكن بعد في كامل صحوي. وسألته:

- من أين لك هذه الخوذة؟

فقال بغموض:

- أوه، أعارها لي شخص ما.

وجذب وراءه حقيبة من حقائب المهمات العسكرية. وبدأ يخرج

منها كيس نوم من الصوف.

وحاولت أن أسترجع في ذاكرتي الأسباب التي أتت بأيّ منا إلى

هنا وقلت:

- إنك مزود بكل ما تحتاج إليه.

فقال:

- إنها حقيقة السفر المميزة الخاصة بأعضاء فريق المعونة الطبية الأمريكية. أعاروني واحدة منها في هانوي.
وأخرج ترموس وموقد كحول وفرشاة شعر وعدة حلاقة وعلبة
أول محفوظ. نظرت إلى ساعتني. كانت حوالي الثالثة صباحًا.

(٢)

- «نعم» «بايل» في إفراغ مهماته. ثم صنع رفًا صغيرًا من الحقائق
مع عليه المرأة وعدة الحلاقة. قلت له:
- أشك في أنك ستستطيع الحصول على ماء.
- أوه، معي ما يكفي حتى الصباح في الترموس.
وجلس على كيس النوم، وشرع يخلع حذاءه. سألته:
- قل لي بالله عليك، كيف أتيت إلى هنا؟
- أوصلوني حتى نام دين لزيارة فرقتنا الطبية الخاصة بعلاج
«التراكوما». ثم استأجرت قاربًا.
- قاربًا؟
- أوه، نوعًا من القوارب يشبه «البنت»، لست أدري اسمه. وحقيقة
الأمر أنني اضطررت إلى شرائه. لم يكلفني كثيرًا.
- وأبحرت به في النهر وحدك؟
- لم تكن مهمة صعبة في الحقيقة، كما تعرف. كان التيار معي.
- أنت معتوه.

- أوه، لا. الخطر الوحيد أن يجنح القارب إلى الأرض.
- أو أن تطلق عليه دورية بحرية النار، أو طائرة فرنسية، أو أن يذبحك «الفيتمه».
- ضحك بخجل. قال:
- حسن. هأنذا قد وصلت إلى هنا على أي حال.
- لماذا؟
- أوه، ثمة سبيان. بيد أنني لا أريد أن أوقظك.
- لست نائمًا، والمدافع ستبدأ القصف تَوًّا.
- بدا عصبيًا. قال:
- هل يضايقك إن نقلت الشمعة؟ المكان منير هنا.
- ما السبب الأول؟
- حسن، لقد دفعتني في ذلك اليوم إلى الاعتقاد بأن هذا المكان مشير للاهتمام. لعلك تذكر وقتما كنا مع «جرانجر» و«فونج».
- ثم ماذا؟
- اعتقدت أنه ينبغي عليّ أن ألقى نظرة عليه. وإذا شئت أن أصدقك القول فقد أحسست بالعار إلى حدٍّ ما بسبب «جرانجر».
- أفهمك، ببساطة شديدة.
- حسن، لم تكن هناك صعوبة حقيقية، أليس كذلك؟
- وبدأ يداعب رباط حذائه، ثم خيم علينا صمت ممل. قال أخيرًا:
- يبدو أنني لم أكن أمينًا معك تمامًا.
- لا، كيف ذلك؟
- أتيت في الحقيقة كي أراك.

- أتيت إلى هنا كي تراني؟

- نعم.

- لماذا؟

رفع ناظريه عن رباط حذائه، بدت عليه حيرة معذبة:

- يجب أن أخبرك، لقد أحبيت «فونج».

ضحكت. لم أستطع منع نفسي. إنه غير متوقع للغاية، وجاد للغاية.

- ألم تستطع الانتظار حتى أعود؟ إنني سأكون في سايجون الأسبوع القادم.

- ربما تُقتل، ومن ثم لن يكون ذلك من دواعي الشرف. ولست أدري إذا ما كنت في هذه الحالة أستطيع أن أبتعد عن «فونج» طوال هذا الوقت.

- تعني أنك ظللت بعيدًا عنها بالفعل؟

- طبعًا، أنت لا تتصور أنني سأخبرها دون أن تعرف أنت ذلك؟

- الناس تفعل ذلك، ومتى كان ذلك؟

- أظن في تلك الليلة في «الشاليه» وأنا أراقصها.

- لا أذكر أنك اقتربت منها بما يكفي.

نظر إليّ نظرة تنم عن الحيرة. فلو بدا سلوكه جنونيًا بالنسبة لي،

فمن الواضح أن سلوكي غامض بالنسبة له. قال:

- كان السبب هو رؤيتي الفتيات في ذلك البيت. لقد كن رائعات

الحسن. ومن يدري، ربما كانت واحدة منهن. أردت أن أقيها

من هذا.

- أظنها بغير حاجة إلى وقاية، هل دعتك الآنسة «هي» للخروج؟

- نعم، ولكنني لم أذهب. هربت منها.
ويدا عليه الاكتئاب وهو يقول:
- إنني أبحث عن مثل هذه الفتاة. لكن هل لك أن تصدقني، لم
حدث أنك تزوجتها، حقاً إنني ما كنت أحاول قط أن أدخل
بين رجل وزوجته.
قلت له وقد استفزني لأول مرة:
- يبدو أنك على يقين تماماً من قدرتك على التدخل.
- «فاولر»... أنا لا أعرف اسمك الأول.
- «توماس». لماذا؟
- ألا أستطيع أن أدعوك «توم»؟ فأنا أشعر بشكل ما أن ما حدث
جمع بيننا، أعني حبنا لامرأة واحدة.
- ما خطوتك التالية؟
اعتدل في جلسته بحماس، واستند إلى الحقائق المتراسة.
قال:
- لقد أصبح كل شيء على غير ما عهدته. سأطلب منها الزواج
يا «توم».
- أفضل لو دعوتني «توماس».
- عليها أن تختار بيننا يا «توماس» فهذا عين الإنصاف.
لكن أهذا هو الإنصاف بحق؟ أحسست لأول مرة برودة الوحدة
كأنها نذير لي. لقد كان كل هذا محض أوهام. ومع ذلك، ربما كان
محبباً يائساً. بيد أنني كنت أنا الإنسان المسكين. لقد كان يملك بين
يديه ثروات لانهاية من أسباب الاحترام.

شرع يخلع عنه ملابسه. وفكرت: «فضلاً عن أنه يملك الشباب أيضاً». كم كان مؤسفاً حقاً أن أحسد «بابل».

قلت:

.. لا أستطيع أن أتزوجها. فلي زوجة هناك في بلدي، ولن تقبل أبداً الانفصال عني، فهي من أتباع الكنيسة العليا، إذا كنت تعرف معنى هذه العبارة.

- للتذكرة يا «توماس» اسمي «آلدين». إذا كان يعينك...
- أفضل استخدام «بابل». فأنا أفكر فيك دائماً باعتبارك «بابل».
واندس داخل كيس النوم. ومد يده خارجاً ليمسك الشمعة.
ال:

- يا سلام أنا سعيد بأن انتهى هذا الموضوع يا «توماس». كنت متألماً غاية الألم بسببه.
وبات واضحاً الآن فقط أنه لم يعد كذلك.
وبعد أن أطفأ الشمعة، استطعت أن أرى معالم سترته البحرية
والضوء ألسنة اللهب المشتعلة في الخارج.
- طبت مساء يا «توماس». أرجو لك نومًا هانئًا.
وكانت كلماته هذه أشبه بإشارة البدء في كوميديا مقبلة، إذ فور
...عني لها انطلقت قذائف «الهاون» تنز وتنفجر. قال «بابل»:

- يا إلهي، هل هو هجوم؟

- إنهم يحاولون صد هجوم.

- حسن، أظن أنه لا مجال للنوم الآن؟

- لا نوم لنا.

- «توماس»، أحب أن تعرف رأيي في الطريقة التي حدثتني بها
عن كل هذا، إنني أراك عظيمًا، عظيمًا. ولا أجد كلمة أخرى،
أعبر بها عن ذلك.

- شكرًا.

- أنت أكثر مني خبرة بهذا العالم. أنت تعرف أن بوسطن
على نحو ما - مكان معيق، حتى إن لم تكن من آل «لويل»^(١)،
آل «كابوت»^(١)، أسألك النصيحة يا «توماس».

- عن أي شيء؟

- «فونج».

- ما كنت لأثق في نصيحتي لو كنت مكانك. أنا منحاز، أريد أن
أستبقها لنفسي.

- أوه، ولكنني أعرف أنك عادل، عادل بصورة مطلقة. وكل ما
يهتم بمصلحتها.

فجأة أحسست أنني لم أعد أحتمل المزيد من صبيانيته، قلت له
- لا تعينني بمصلحتها في شيء. لك أن تأخذ بمصلحتها. أريد فقط
جسدها. أريدها معي في فراشي. أفضل عندي أن أغويها وأنام
معها من أن... من أن أهتم بمصلحتها.

وبصوت واه خرجت كلمته وسط الظلام:
- أوه.

وواصلت كلامي:

(١) «لويل» و«كابوت» عائلتان راقيتان في مدينة بوسطن.

- إذا كان لا يعنيك منها غير مصلحتها فإني أستحلفك بالله أن
تتركها وشأنها. إنها مثل أي امرأة أخرى تفضل أن تحصل
على...

أنفذ صوت انفجار قذيفة الأذنين البوسطنيتين من سماع الكلمة
الأجلو-ساكسونية.

بيد أن العناد كان من بين ما يتصف به «بايل»، وصمم على أنني
مرفت بشكل جيد، وعلى أنني يجب أن أتصرف بشكل جيد. قال:
- أنا أعرف ما تكابده يا «توماس».

- أنا لا أكابد شيئاً.

. أوه نعم، بل إنك كذلك. أنا أعرف ما سوف أكابده إذا ما
اضطرت إلى التخلي عن «فونج».

- ولكنني لم أتخل عنها.

- إنني أومن بالجسد أيضاً يا «توماس»، بيد أنني سأتخلي عن كل
أطماعي في ذلك، ويكفيني أن أرى «فونج» سعيدة.
- إنها سعيدة.

- لا يمكن أن تكون كذلك. ليس في وضعها هذا، إنها بحاجة
إلى الأطفال.

- هل تصدق حقاً كل هذا الهراء الذي قالته أختها؟

- الأخت تعرف أحياناً أفضل.

- إنها لم تحاول سوى أن تبيع لك الفكرة. وها هي يا إلهي قد
أحسنّت بيعها.

- أنا لا أملك إلا راتبي.

- حسن، ولكنك على أي حال تحصل في مقابلة على بديل مح من العملة المحلية.

- لا تكن لاذعًا يا «توماس». فإن هذه الأمور تحدث، ولكنني كنت أود أن تحدث لأي إنسان آخر إلا أنت. أهذه قذائفنا نحن؟
- نعم هي قذائفنا نحن. إنك تتحدث إليّ وكأنها عزمت على أن تتركني يا «بايل».

قال من غير اقتناع:

- بالطبع إنها قد تختار البقاء معك.

- ماذا ستفعل إذن؟

- سأطلب نقلي.

- ولماذا لا ترحل من فورك يا «بايل»، بدلًا من أن تسبب المتاعب؟
قال بجديّة متناهية:

- لن يكون ذلك عدلًا بالنسبة لها يا «توماس».

لم أعرف قطُّ رجلًا كانت لديه دوافع أفضل لكل المشاكل التي سببها. استطرد قائلاً:

- أحسب أنك لم تفهم «فونج» بعدُ على حقيقتها.

استيقظت ذات صباح بعد شهور من هذا الحديث وكانت «فونج» إلى جانبي. وفكرت: «ترى هل فهمتها أنت أيضًا؟ ترى هل كنت تتوقع مسبقًا هذا الموقف؟ «فونج» تنام سعيدة بجانبي، وأنت في عداد الموتى؟» إن الزمن له أسلوبه في الثأر، بيد أن ثأره مر في غالب الأحيان. أليس من الخير لنا أن نكف عن أي محاولة للفهم، ونسام بالحقيقة الواقعة. فإن أي إنسان لن يفهم أبدًا غيره ولا الزوج زوجته

« لا المحب معشوقته بل ولا الأب طفله. ربما لهذا السبب اخترع
«اس الإله؛ كائنًا قادرًا على الفهم. ربما لو أردت أن يفهمني الغير
أفهمهم أنا، فقد أغرر بنفسي لأصبح إنسانًا صاحب عقيدة. بيد
«سي لست سوى مراسل صحفي. أما الله فإنه موجود لدى المحررين
«المسؤولين فقط.

وسألت «بابل»:

« هل أنت متأكد من وجود شيء ما أصعب من أن يفهم؟ أوه بالله
عليك دعنا نشرب ويسكي، فالجو صاخب لا يسمح بالمناقشة.
قال «بابل»:

« لا زال الوقت مبكرًا إلى حدٍّ ما.
« بل متأخر جدًا.

صببت كأسين ورفع «بابل» كأسه وحملق بعينه من خلال
«الويسكي في ضوء الشمعة. كانت يده تهتز كلما انفجرت قذيفة،
«مع ذلك فقد قام برحلته هذه - التي لا معنى لها - من نام دين.
قال «بابل»:

« شيء غريب أن أيًا منا لا يستطيع أن يقول «حظًا سعيدًا».
« فشرينا دون أن نبس بينت شفة.

الفصل الخامس

(١)

«سبت أنني سأغيب عن سايجون أسبوعًا واحدًا فقط، ولكن هانذا
أهني ما يقرب من ثلاثة أسابيع قبل أن أعود إليها. وتبين لي أولاً
أن الخروج من منطقة فات ديم كان أشق من دخولها، فالطريق بين
أم دين وهانوي مقطوع. ولا يمكن تدبير السفر بالطائرة لمخبر
صحفي ما كان له أن يذهب إلى هناك بأي حال. ثم عند وصولي
إلى هانوي كان المراسلون قد طاروا لتسجيل آخر انتصار. ولم
يكن ثمة مكان لي في الطائرة التي عادت بهم. أما «بايل» فقد رحل
من فات ديم صباح ليلة وصوله، فقد أتم مهمته وهي الحديث معي
من «فونج»، ولم يكن ثمة ما يدعو لبقائه. تركته نائمًا عندما توقفت
... أن مدافع «الهاون» في الساعة الخامسة والنصف، وعندما عدت
من الميس بعد تناول قدح من القهوة وبعض البسكويت لم أجده،
وطنت أنه خرج ليتجول، وأنه اتخذ طريقه في النهر يجدف بقاربه عبر

المسافة التي تصل به إلى نام دين، وما كان ليحفل بعدد من القناء قد يسببون له إزعاجًا، كان عاجزًا عن تصور الألم أو الخطر بالنسبة لنفسه مثلما كان عاجزًا عن إدراك الألم الذي قد يسببه للآخرين وفي إحدى المناسبات - وكان ذلك بعد بضعة أشهر - فقدت سيطر على نفسي، ودفعته إليه، أعني إلى الألم، وأذكر كيف تحاشى ذلك ونظر بقلق إلى حذائه المتسخ. قال: «لا بد أن ألمع حذائي قبل أقابل الوزير»، وعرفت أنه صاغ عباراته على هدي الأسلوب الذي تعلمه من «يورك هاردنج». ومع ذلك فقد ظل وقيًا على طريقته، الصدفة وحدها هي التي تجعل الآخرين يتحملون كل التضحيات إلى أن جاءت تلك الليلة الأخيرة تحت قنطرة داکو.

علمت أن «بايل» ألح على ضابط فرنسي شاب ليصحبه على ظمركب نهري، وأنزله خفية في نام دين بعد جولة روتينية لدوريات الحراسة. ولم أعلم بذلك إلا بعد عودتي إلى سايجون. وأنا أشر القهوة. وكان الحظ حليفه إذ عاد إلى هانوي ومعه فرقة «التراكوا قبل أربع وعشرين ساعة من إعلان قطع الطريق رسميًا. وعنا وصلت إلى هانوي كان قد غادرها إلى الجنوب، وترك لي مذبحاً لدى البارمان في معسكر الصحافة يقول فيها:

عزيزي «توماس». لا أستطيع أن أبدا حديثي عن مدى عظمتك في تلك الليلة. وإنما أستطيع أن أقول إن قلبي كان في حلقي وأنا أخطو داخل تلك الحجرة حيث ذهبت لملاقاتك (أين كان كل هذا أثناء الرحلة الطويلة على امتداد النهر؟) لا يوجد غير قلة من الناس بوسعهم

أن يتقبلوا هذا الموضوع بمثل هذا الهدوء. لقد كنت عظيمًا، ولا أشعر إلا بنصف ما كنت عليه من ضعة وهانذا أقولها لك الآن (تساءلت بغضب أهو الوحيد المهم؟ ولو أنني عرفت أنه لم يكن يفكر على هذا النحو، كل ما في الأمر أنه سيكون أكثر سعادة بقدر ما يتفني إحساسه بالضعة. سأكون أكثر سعادة. و«فونج» ستكون أكثر سعادة. كل العالم سيكون أكثر سعادة، حتى الملحق الاقتصادي والوزير. وها قد حل الربيع على الهند الصينية لأن «بايل» لم يعد يحس بالضعة.) انتظرتك أربعًا وعشرين ساعة، بيد أنني لن أعود إلى سايجون لمدة أسبوع. هذا إذا لم أرحل اليوم فإن عملي الحقيقي في الجنوب. ولقد طلبت من الأولاد الذين يشتركون في فرقة «التراكوما» أن يبحثوا عنك، وسوف تُسرُّ بهم. إنهم أولاد عظام ويؤدون عملًا إنسانيًا. لا تنزعج على أي حال لعودتي إلى سايجون قبلك. لا أريد منك أن تشعر فيما بعد بأنني لم أكن واضحًا معك بأي حال من الأحوال. لك تحياتي القلبية. «آلدين»

مرة أخرى هذا الزعم الهادئ بأنني أنا الذي سوف أخسر «فونج» فيما بعد. ترى هل بنى ثقته هذه على أساس نسبة تحويل النقد؟ لقد اعتدنا الحديث عن صفات الاسترليني، فهل يا ترى بات علينا أن نتحدث من حب الدولار؟ الشيء المؤكد أن حب الدولار سيتضمن الزواج ، عيد الطفولة وعيد الأم، رغم أنه قد يتضمن فيما بعد جزر رينو وجزر العذراء. أو كل مكان يذهبان إليه ليشهرا طلاقهما. إن حب الدولار

له نوايا طيبة، وضمير نقي، وليذهب الجميع إلى جهنم. أما حيي فلم تكن له نوايا: كان يعرف المستقبل. لقد كان كل ما يستطيعه الإنسان أن يجعل المستقبل أقل قسوة، وأن يخفف من وقع المستقبل كلما واثاه. وحتى الأفيون كانت له قيمته هناك. بيد أنني لم أكن أتنبأ أبدًا بأن أول مستقبل، سيكون عليّ أن أخفف من وقعه على «فونج»، هو موت «بايل».

وذهبت إلى المؤتمر الصحفي، إذ لم يكن ثمة شيء أفضل أفعله. وكان «جرانجر» هناك بطبيعة الحال. ورأس المؤتمر ضابط فرنسي شاب وسيم للغاية برتبة كولونيل. كان يتحدث بالفرنسية وضابط آخر أقل منه رتبة يترجم ما يقول. وتجمع المراسلون الفرنسيون معًا كأنهم فريق منافس من فرق كرة القدم. وأحسست بمشقة في تركيز ذهني فيما يقوله الكولونيل. إذ كان عقلي طوال الوقت يشرد إلى حيث كانت «فونج». والفكرة الوحيدة التي استبدت بي هي: لو فرض أن «بايل» على صواب وخسرتها، فإلى أي مكان أذهب من هنا؟

قال المترجم:

- يقول لكم الكولونيل إن العدو قد مُني بهزيمة قاسية وخسائر فادحة تعادل كتيبة كاملة. وتحاول فلوله، الآن، أن تشق طريقها عائدة عبر النهر الأحمر فوق أطواف خشبية تسير على غير هدى. فقد تعرضوا لقصف مستمر طوال الوقت من السلاح الجوي.

ومسح الكولونيل براحته شعره الأصفر الأنيق. ثم لوح بمؤشره،

أخذ يحركه بطرب فوق الخرائط الطويلة المعلقة على الحائط.
سأله مراسل أمريكي:

ما خسائر الفرنسيين؟

وأدرك الكولونيل تمامًا مغزى السؤال الذي كان يوجه عادة في مثل هذه المرحلة من المؤتمر تقريبًا. بيد أنه صمت هنيهة، ورفع مؤشره، على شفثيه ابتسامة رقيقة كأنه مدرس متمرس، إلى أن تمت ترجمة السؤال ثم أجاب إجابة مبهمة سقيمة:

يقول الكولونيل إن خسائرنا ليست جسيمة، ولم يعرف عددها بالدقة بعد.

كانت هذه الإجابة دائمًا علامة قلق. ولا ريب في أنكم ستظنون أن الكولونيل سيقع إن آجلًا أو عاجلًا على صيغة يسكت بها تلامذته المشاكسين. أو أن ناظر المدرسة سيوكل مهمة حفظ النظام لواحد من هيئة التدريس يكون أكثر كفاءة. وسأله «جرانجر»:

هل الكولونيل يقول لنا حقًا إنه وجد وقتًا كافيًا ليحصي عدد قتلى العدو دون أن يحصي قتلاه؟

وفي صبر وأناة نسج الكولونيل قناع التملص، الذي كان يعرف جيدًا أنه سيتهاوى بعد سؤال آخر، وخيم صمت كثيب على المراسلين الفرنسيين. فلو استطاع المراسلون الأمريكيون أن يورطوا الكولونيل في تصريح ما فإنهم سرعان ما يتلقفونه. بيد أنهم ليسوا على استعداد للمشاركة في اصطيد واحد من أبناء جلدتهم.

يقول الكولونيل إن قوات العدو قد هُزمت واحتُلت مواقعها. ومن ثم فقد كان من الممكن إحصاء عدد الموتى فيما وراء

خط إطلاق النار. ولكن نظرًا لأن المعركة لا زالت دائرة، فإنك لا تستطيع أن تتوقع أرقامًا خاصة بالوحدات الفرنسية المتقدمة.

قال «جرانجر»:

- إننا لا نسأل عما نتوقعه نحن، بل ما إذا كان رئيس هيئة الأركان يعرف أم لا. هل تقول لنا حقًا إن فرقة الجيش لا تبلغ عن خسائرها كما يفعلون في الميدان بجهاز لاسلكي.

وبدأ مزاج الكولونيل يتغير ويغتاظ. وفكرت بأنه لو حاول في البداية أن يسد علينا الطريق في خداعه لنا، وقال بحسم إنه يعرف أرقام خسائره ولكنه لم يفصح عنها، لكان خيرًا له. إنها في النهاية حربهم وليست حربنا. إننا لا نملك حقًا إلهيًا نحصل بمقتضاه على المعلومات. إننا لسنا ملزمين بمحاربة نواب الجناح اليساري في باريس، وكذلك قوات هوشي منه فيما بين النهر الأحمر والنهر الأسود. إننا لم نكن معرضين للموت.

وفجأة أعلن الكولونيل من تلقاء نفسه أن نسبة قتلى الفرنسيين إلى قتلى العدو هي واحد إلى ثلاثة. ثم أدار لنا ظهره ليحملق بغضب في خريطته. لقد كان الذين لقوا حتفهم رجاله وزملاءه من الضباط، وليسوا أرقامًا كما كانوا بالنسبة لـ «جرانجر». قال «جرانجر»:

- ها نحن قد اقتربنا إلى حد ما.

ثم نظر حوالياً إلى رفاقه بزهو أخرق. وكان الفرنسيون برؤوسهم المنكسة يكتبون ملاحظاتهم الحزينة. وقلت بسوء فهم متعمد:

- هذا أكثر مما كان يمكن أن يقال في كوريا.

بيد أن الوحيد الذي استفاد من كلامي هو «جرانجر» إذ أعطاه
انجاءً جديدًا. فقال:

- اسأل الكولونيل ماذا سيفعل الفرنسيون بعد ذلك؟ إنه يقول إن
العدو يولي الأدبار هاربًا عبر النهر الأسود.
وصحح له المترجم كلامه بقوله:
- النهر الأحمر.

- لا يعني لون النهر. إن ما نريد أن نعرفه، هو ماذا سيفعل
الفرنسيون الآن؟
- إن العدو يلوذ بالفرار.

- ماذا يحدث بعد أن يتقلوا إلى الجانب الآخر؟ ماذا أنتم فاعلون
حينئذ؟ هل ستقنعون بالجلوس على الشاطئ الآخر، وتقولون
لقد انتهى كل شيء؟

كان الفرنسيون ينصتون بصبر حزين لصوت «جرانجر» الباغي.
كل شيء مطلوب اليوم من الجنود حتى الخنوع.

- هل تنوون أن تلقوا إليهم ببطاقات الكريسماس؟
وترجم الكابتن بحرص وعناية إلى أن قال بالفرنسية «بطاقات بابا
نويل». وابتسم الكولونيل ابتسامة باردة. قال:
- ليس ببطاقات الكريسماس.

أحسب أن شباب الكولونيل ووسامته بوجه خاص كانوا يستفزان
«جرانجر»، فلم يكن الكولونيل صورة كاملة للرجولة، على الأقل
دون استخدام مقاييس «جرانجر».
- إنكم لا تلقون إليهم بشيء آخر.

فجأة تحدث الكولونيل بالإنجليزية. وكانت إنجليزية صحيحة، فقال
- لو وصلتنا المعونات الأمريكية التي وعدنا بها فسيكون لدينا
الكثير مما نلقي به إليهم.
لقد كان حقًا رغم رشاقتة إنسانًا بسيطًا. كان يعتقد أن المراسل
الصحفي يعنيه شرف بلده أكثر من حرصه على الأخبار.
قال «جرانجر» - الذي كان إنسانًا كفؤًا يحفظ التواريخ جيدًا في
ذاكرته - بحدة:

- تعني أنه لم يصلكم أي شيء من المعونات التي وعدت الحكومة
أن تصلكم في مطلع شهر سبتمبر؟
- لا.

وحصل «جرانجر» على أخباره وبدأ يكتب.
قال الكولونيل:

- آسف، فهذا ليس للنشر. هذا، فقط، لتُحاط علمًا.
واحتج «جرانجر» قائلاً:

- ولكن هذه أخبار يا كولونيل. ونحن نستطيع أن نساعدك.
- لا، فهذه مسائل تخص الدبلوماسيين.
- وما الضرر إن نُشرت؟

كان المراسلون الفرنسيون ضائعين. فهم لا يعرفون غير النزر
اليسير من الإنجليزية. وحطم الكولونيل القواعد. وسرت بينهم
همهمة غاضبة وقال الكولونيل:

- ليس لي القول الفصل، إذ ربما تقول الصحافة الأمريكية: «نعم،
ها هم الفرنسيون، دائمًا يتسولون ودائمًا يشكون»، وفي باريس

سيتهما الشيوعيون بقولهم: «إن الفرنسيين يريقون دماءهم من أجل أمريكا، ولن ترسل لهم أمريكا شيئاً حتى ولو طائرة هليوكوبتر مستعملة»، وليس هذا من المصلحة في شيء. وفي نهاية الأمر سنظل بلا طائرات هليوكوبتر. وسيظل العدو هناك على بعد خمسين ميلاً من هانوي.

- على الأقل فأنا أستطيع أن أنشر أنكم بحاجة ماسة إلى طائرات هليوكوبتر، ألا أستطيع ذلك؟

قال الكولونيل:

- تستطيع أن تقول إننا منذ ستة أشهر خلت كنا نملك ثلاث طائرات هليوكوبتر، أما الآن فلدينا واحدة.

ثم كرر كلمة «واحدة» بنوع من المرارة تثير الدهشة.

- لك أن تقول إنه لو أصيب رجل في هذه الحرب بجرح غير خطير، مجرد جرح عادي، فإنه على يقين من أنه قد يلقي حتفه، إذ قد يقضي اثنتي عشرة ساعة بل وربما أربعاً وعشرين ساعة ما بين النقالة وعربة الإسعاف ثم الطريق الوعر، وقد يُغمى عليه، وربما يصادفه كمين، ويتحول الجرح إلى حالة غرغرينة. فمن الخير له أن يُقتل في الحال.

ومال المراسلون الفرنسيون إلى الأمام يحاولون جهدهم أن يفهموا ما يقال.

- لك أن تكتب هذا.

قال هذا وهو يبدو أكثر إثارة للضغينة لجمال جسده، ثم أصدر أمره بالفرنسية:

- ترجم.

وخرج من الحجرة تاركًا للكاتبين مهمة لم يعتد عليها في الترجمة،
من الإنجليزية إلى الفرنسية.

وقال «جرانجر» في رضا:

- لقد حصلت منه على ما أريد.

ثم انزوى في ركن عند البار ليكتب برقيته. أما برقيتي فلم تستغرق
مني وقتًا طويلًا. فليس ثمة ما أستطيع أن أكتبه عن فات ديم وسمح
به الرقباء. ولو كانت المسألة تستحق الاهتمام، فربما طرت إلى
هونج كونج وأرسلتها من هناك. ولكن هل ثمة أخبار تستحق
المخاطرة بالطرْد؟ أشك في هذا. إن الطرد كان يعني بالنسبة لي
نهاية الحياة كلها، كان يعني انتصار «بابل». وهناك، بعد أن عدت
إلى فندقتي منتظرًا داخل جحري الصغير، كان يكمن انتصاره، النهاية
تلغراف التهئة بالترقية. إن «دانتى» لم يفكر على الإطلاق في مثل
هذا التبدل لعشاقه المدانين، إن «باولو» لم يترقَّ إلى المطهر.

صعدت الدرج قاصدًا حجرتي ذات الأرضية العارية والصنبور
الذي تتقاطر منه مياه باردة (لم تكن في هانوي مياه ساخنة)، وجلست
على حافة سريري وثمة ناموسية معقودة كانت أشبه بسحابة متضخمة
تعلو رأسي. كنت دائمًا أول محرر أجنبي يصل عادة بعد الظهر في
الساعة الثالثة والنصف إلى هذا المبنى الكالح من الطراز الفيكتوري
الكائن قرب محطة «بلاك فرايزر» وبه - قرب المصعد - صحيفة
مكتوب عليها «لورد سالزبري». كانوا قد أرسلوا الأخبار الطيبة
من سايجون. وتساءلت ترى هل بلغت مسامع «فونج». لم يعد لي

١. أكون مجرد مخبر صحفي، أصبحت على وشك أن تكون لي
٢. أ.هـ. وأحسست إزاء هذا الامتياز الفارغ بأنني على وشك أن أحرّم
٣. أمني الأخير في الصراع مع «بايل». فقد كانت لي خبرتي التي
٤. هلني للصمود أمام عذريته. كانت السن ورقة رابحة في مجال
المغامرة الجنسية مثله مثل الشباب، بيد أنني الآن لم أعد أملك حتى
المستقبل المحدود لفترة اثني عشر شهرًا أخرى لكي أقدمه. ولقد
٥. فإن المستقبل هو الورقة الرابعة. وأحسست برغبة في البكاء، بيد
٦. أن دموعي جفت في مآقيها. مثلما جفت المياه الساخنة في أنابيبها.
٧. إنهم قد يستطيعون أن يكون لهم وطن، أما أنا فلم أكن أنشد غير
مجرتي في شارع كاتينات.

كان الجو باردًا في هانوي بعد أن هبط الليل، والأضواء أخفت
من أضواء سايجون، وأكثر تلاؤمًا مع ملابس النساء الفاتحة وواقع
الحرب. سرت على طول طريق جامبيتا قاصدًا بار «باكس»، إذ
لم أشأ أن أشرب في بار «متروبول» حيث كبار الضباط الفرنسيين
وزوجاتهم وبناتهم. وما إن وصلت إلى البار حتى تنبّهت إلى أصوات
مرع المدافع عن بعد ناحية هاويين. وكانت هذه الأصوات تغرق في
هوضاء المرور أثناء النهار. أما الآن فكل شيء هادئ، ما خلا صوت
رنين أجراس الدراجات حيث يقف سائقو عربات «التريشو» يكدون
لتأجيرها. رأيت «بيتري» جالسًا في مكانه المعهود. له جمجمة طويلة
على نحو غير مألوف تستقر على كتفيه كأنها حبة كمثرى فوق طبق.
كان يعمل ضابطًا بمكتب الأمن، ومتزوجًا من فتاة رائعة الحسن من
بنات تونكين، وهي التي تملك بار «باكس». كان إنسانًا آخر لا يؤرقه

حنين العودة إلى الوطن، فهو من أبناء كورسيكا، ولكنه أثر الحياة في
مرسيليا، وهو اليوم يفضل على مرسيليا أي يوم يقضيه جالسًا على
قارعة طريق جامبيتا. تساءلت ترى أيعرف مسبقًا مضمون برقيتي.
سألته:

- تلعب ٨١؟

- لم لا.

وبدأنا نلقي بالورق، وبدأ لي أنه قد بات مستحيلًا عليّ أن أنعم
بالحياة ثانية، بعيدًا عن طريق جامبيتا وشارع كاتينات وطعم شراب
«الفرموت» المائع وصوت دحرجة النرد الأليفة وقذائف المدافع
وهي تشق طريقها كأنها عقرب ساعة يدور حول الأفق.
وقلت:

- إنني عائد.

وألقى «بيتري» بأوراقه ٤ - ٢ - ١ وهو يسألني:

- إلى البيت؟

- لا. إلى إنجلترا.

الجزء الثاني

الفصل الأول

«عاني «بابل» نفسه إلى ما سماه «شراباً» بيد أنني كنت أعرف يقيناً أنه لا يشرب. وبعد مضي عدة أسابيع على هذا اللقاء الخيالي في «ات ديسم بدا لي شيء عسير التصديق كأنه لم يقع: فحتى تفاصيل المحادثة باتت أقل وضوحاً. كانت أشبه بالحروف الناقصة على قبر روماني وأنا عالم الآثار الذي يملأ الفجوات حسبما تمليه عليه دراسته. بل لقد خطر لي أنه كان يمكربي، وأن المحادثة لم تكن سوى مدعة متقنة ساقها على سبيل المزاح ليخفي وراءها هدفه الحقيقي. ذلك لأن الشائعات في سايجون تقول إنه يقوم ببعض الخدمات التي تُسمى تحايلاً «الخدمات السرية». ربما كان يتولى مهمة تدبير الأسلحة الأمريكية لقوة ثالثة، فرقة الأسقف للموسيقى النحاسية، وهي كل ما تبقى له من جنده المروعين الذين لم تدفع لهم رواتبهم. احتفظت في جيبتي بالبرقية التي كانت تنتظرني في هانوي. ولم تكن نمة حاجة لأخبر «فونج»، إذ إن هذا من شأنه أن يسم الأشهر القليلة الباقية بالدموع والمشاحنات، بل لم أفكر في الذهاب للحصول على

تأشيرة الخروج. وقررت الانتظار حتى آخر لحظة خوفاً من أن يكون لها قريب من العاملين بمكتب الهجرة.

قلت لها:

- سيحضر «بايل» في الساعة السادسة.

- سأذهب لأرى أختي.

- أعتقد أنه يسره أن يراك.

- هو لا يحبني ولا يحب عائلتي، إذ إنه أثناء سفرك لم يفكر مرة واحدة في زيارة أختي رغم أنها دعتة، وساءها ذلك كثيراً.

- إذن لست بحاجة إلى الخروج.

- لو شاء أن يراني لدعانا إلى «الماجستيك»، إنه يود أن يتحدث إليك حديثاً خاصاً عن العمل.

- وما عمله؟

- يقول الناس إنه يستورد أشياء كثيرة جداً.

- أي أشياء؟

- عقاقير وأدوية...

- تلك خاصة بفرقة «التراكوما» في الشمال.

- ربما. ويجب على الجمارك ألا تفتحها. إنها طرود دبلوماسية. ولكن حدثت غلطة ذات مرة. طُرد بسببها الرجل. هدد السكرتير

الأول بإيقاف كل عمليات الاستيراد.

- ماذا كان في الحقيقة؟

- بلاستيك.

وقلت بغير اهتمام:

- ولماذا هم بحاجة إلى بلاستيك؟

بعد أن خرجت «فونج» كتبت رسالة إلى بلدي. كان ثمة رجل يعمل في «رويتز» سيسافر إلى هونج كونج خلال أيام قليلة، وكان وسعه أن يرسل خطابي من هناك بالطائرة. كنت أعلم أنه لا أمل في التماسي، بيد أنني لم أشأ أن ألوم نفسي فيما بعد لأنني لم أتخذ كل الإجراءات الممكنة. كتبت لمدير التحرير أن هذه ليست هي اللحظة المناسبة لتغيير مراسله، وكان الجنرال «دو لاتر» يلفظ أنفاسه في باريس، وكان الفرنسيون على وشك الانسحاب كليةً من هوا بين، دام يعد الشمال مهددًا بأخطار جسيمة. وقلت له إنني لا أصلح لأكون محررًا للشؤون الخارجية، فأنا مخبر صحفي. وليست لي اداء حقيقية في أي شيء. وفي الصفحة الأخيرة بنيت التماسي على أسباب شخصية، على الرغم من أنه لم يكن من المحتمل أن يقوى لي تعاطف بشري على البقاء وسط الكابات الخضراء والقوالب المفظية: «مصلحة الصحيفة» و«متطلبات الموقف»...

كتبت:

إنني لأسباب شخصية أشعر بتعاسة شديدة لنقلي من فيتنام. ولا أحسب أنني قادر على أن أؤدي عملي على خير وجه في إنجلترا حيث لن تواجهني ضائقات مالية فحسب، بل عائلية أيضًا. والحقيقة أنه لو كان لدي ما يكفيني من الموارد المالية، فإني أؤثر الاستقالة على العودة إلى المملكة المتحدة. ولم أذكر هذا إلا لأبين مدى قوة معارضي. لا أظنكم وجدتم في مراسلًا سيئًا. وهذه هي أول خدمة أتقدم بطلبها منكم.

ثم ألقيت نظرة على مقالي عن معركة فات ديم حتى يتسنى لي أن أخرجها لأرسلها بالبريد موسومة بخاتم بريد هونج كونج. فليس من المتوقع أن يبدي الفرنسيون الآن اعتراضًا جادًا فقد رُفع الحصار، والهزيمة يمكن تصويرها على أنها نصر. ثم مزقت الصفحة الأخيرة من خطابي إلى رئيس التحرير، أحسست أن لا فائدة، فالأسباب الشخصية ستكون فقط مجالًا لنكت خبيثة. إذ يفترضون هناك أن كل مراسل له فتاته من بنات البلد الذي يحل به. وسوف يقص رئيس التحرير النكتة على محرر المساء. ويعود هذا بفكره الحاقد إلى مسكنه في الفيلاً المنعزلة في سترينام. ويقصها بدوره، وهو نائم فوق سريره، بجانب زوجته الوفية التي عاد بها منذ سنوات خلت من جلاسجو. إنني أكاد أرى بوضوح شديد نوع هذا البيت الذي لا يعرف الرحمة، في الصالة دراجة مهشمة ذات ثلاث عجلات، وشخص ما حطم غليونه المفضل، وفي حجرة الاستقبال قميص طفل ينتظر من يخطط زواره. «أسباب شخصية»، الشرب في «نادي الصحافة»، لأنني لا أريد ما يذكرني في دعاياتهم بـ«فونج».

سمعت طرقًا على الباب. وفتحت لـ«بايل» وكلبه الأسود يسير أمامه. وألقى «بايل» نظرة من فوق كتفي، وألقى الحجرة خاوية. قلت له:

— أنا وحدي، «فونج» عند أختها.

واحمر وجهه. ولاحظت أنه يرتدي قميصًا من قمصان هاواي، وإن كان محتشمًا من حيث تصميمه ولونه. ودهشت، ترى هل أنهم بأنه يقوم بنشاط غير أمريكي؟

قال:

- أرجو ألا أكون قد أفلقت راحتك.

- لا بالتأكيد، تريد أن تشرب؟

- شكرًا، هل لديك بيرة؟

- آسف، ليس عندي ثلاثة، فنحن نشترى الثلج. ما رأيك في

ويسكي اسكوتش؟

- كأس صغيرة. إذا كان هذا لا يضايقك، فأنا لست مولعًا بالخمور

القوية.

- ثلج؟

- مع كثير من الصودا إذا كانت متوفرة.

- لم أرك منذ كنا في فات ديم.

- هل وصلتك رسالتي يا «توماس»؟

عندما استخدم اسمي الأول أحسست أن كلامه بمثابة تصريح بأنه لم يكن مازحًا، وأنه أتى إلى هنا ليحصل على «فونج» ولاحظت أنه عني حديثًا بأناقة هندامه، ترى هل يفيد قميص هاواي في إضفاء مظهر الذكورة؟

قلت له:

- وصلتني رسالتك، أظن ينبغي عليّ أن أطرحك أرضًا.

- لك الحق بالتأكيد يا «توماس». بيد أنني تعلمت الملاكمة في

الكلية، فضلًا عن أنني أكثر شبابًا.

- إذن هذه الخطوة لن تكون لصالحني، أليس كذلك؟

- تعرف يا «توماس»، وإني على يقين من أن لك نفس الشعور،

أنني لا أحب مناقشة موضوع «فونج» من ورائها، أعتقد أن الأفضل أن تكون معنا.

– ماذا عسانا أن نناقش، البلاستيك؟

لم أقصد بذلك أن أباغته.

قال:

– أتعرف شيئاً عن هذا؟

– حدثتني عنه «فونج».

– كيف تسنى لها...؟

– لك أن تكون على يقين من أنه حديث المدينة كلها. ماذا يهم

في ذلك؟ هل تنوي الاشتغال في لعب الأطفال؟

– نحن لا نحب أن تكون تفاصيل مساعدتنا على لسان كل من

هب ودب، وأنت تعرف طبيعة الكونجرس، إننا نتوقع دائماً،

من ذلك الحين، زيارة بعض الشيوخ، لقد واجهنا متاعب كثيرة

بالنسبة لفرق «التراكوما» لاستعمالهم عقاراً بدلاً من الآخر.

– ما زلت لا أفهم شيئاً عن البلاستيك.

كان كلبه الأسود الرابض على الأرض يشغل حيزاً كبيراً وقد أخذ

يلهث، وبدا لسانه كأنه فطيرة مشتعلة. قال «بابل» كلمات غامضة:

– أوه، أنت تعرف أننا نريد لبعض الصناعات المحلية أن تقف

على قدميها، ويجب أن نكون على حذر من الفرنسيين، فهم

يريدون أن نبتاع كل شيء من فرنسا.

– أنا لا ألومهم. فالحرب تحتاج إلى أموال.

– هل تحب الكلاب؟

- لا.

- كنت أظن أن الإنجليز من أكبر عشاق الكلاب.
- ونحن نظن أن الأمريكان عشاق دولار، ولكن لا بد أن يكون
ثمة استثناء.
- لست أدري كيف لي أن أمضي من دون «ديوك». وأنت تعرف
أنني أشعر أحياناً أنني وحيد للغاية...
- إن لك رفاقاً كثيرين جداً في مجال عملك.
- كان أول كلب لي اسمه «برنس»، وسمّيته بعد ذلك «البرنس
الأسود». أنت تعرف الرجل الذي...
- الذي قتل كل النساء والأطفال في ليموجيس.
- لا أذكر ذلك.

- كتب التاريخ تلّمع ما حدث.
كنت كثيرًا ما ألاحظ ملامح ألم وخيبة رجاء يتخيلان في عينيه
وعلى شفّتيه كلما اصطدمت بالواقع أفكاره الرومانسية التي شغف
بها حبًا، أو إذا سقط أحد محبيه أو معجبيه دون المستوى المستحيل
الذي وضعه فيه. وأذكر أنني ذات مرة أمسكت لـ «يورك هاردنج» خطأ
جسيمًا لا يتفق مع الواقع وأردت أن أواسيه فقلت له:
- إن الخطأ من طبيعة البشر.

ضحك بعصية وقال:
- لا بد أنك تظنني بليدًا، ولكن... حسنًا. إنني غالبًا ما كنت أظنه
معصومًا، لقد أحبه أبي حبًا جمًّا منذ اللقاء الوحيد الذي تم
بينهما، وعسير على أبي أن يصادف إنسانًا لديه قبول.

وبعد أن لهث الكلب الأسود المسمى «ديوك» بما فيه الكفاية
ليثبت حقه في الهواء، بدأ يتشمم داخل الحجرة. قلت له:
- هل لك أن تطلب من كلبك أن يكف عن الحركة؟
- أوه، إني آسف. «ديوك»، «ديوك». اقعد يا «ديوك».
قعد «ديوك» وشرع يلحق أطرافه الحميمة محدثًا ضجيجًا. وملأت
كأسينا وتعمدت أثناء مروري أن أقلق تزيين «ديوك» لنفسه. ولبث
هادئًا لفترة قصيرة جدًا، وبدأ يهرش.

قال «بايل»:

- «ديوك» ذكي جدًا.

- ماذا حدث لـ «برنس».

- كنا في طريقنا من المزرعة في كونيتكت، ودهمته سيارة.

- هل انزعجت لذلك؟

- أوه، تضايقت كثيرًا. لقد كان بالنسبة لي شيئًا كبيرًا، ولكن يجب

على المرء أن يكون متمالكًا لشعوره فلا يجره شيء إلى الخلف.

- وإذا فقدت «فونج»، هل ستكون متمالكًا لشعورك؟

- أوه، نعم، آمل ذلك. وأنت؟

- أشك في ذلك، إذ ربما أفقد وعيي. هل فكرت في هذا يا «بايل»؟

- أود يا «توماس» أن تناديني «آلدن».

- لا أفضل ذلك، فإن اسم «بايل» أصبح له تداعيات، هل فكرت

في هذا؟

- بالتأكيد لم أفكر، وأنا لم أعرف إنسانًا أكثر منك استقامة، وكالم.

تذكرت كيف تصرفت معي عندما اقتحمت عليك مكانك...

- اذكر أنني كنت أفكر في ذلك اليوم أن من الملائم تمامًا لو حدث هجوم ولقيت فيه مصرعك، موت بطل، دفاعًا عن الديمقراطية.
- لا تسخر مني يا «توماس».

تململ في وقفته:

- لا بد أنك تراني شخصًا غيًّا إلى حدٍّ ما، بيد أنني أعرف متى تهزأ بي.
- لا أفعل.

- أعرف أنك لو توخيت الإنصاف فسترجو لها كل ما فيه خيرها.
وهنا سمعت وقع خطوة «فونج». كنت آمل لو أنه رحل قبل أن «ود مع علمي باستحالة ذلك. سمع خطوها هو أيضًا وتعرف عليه.
«ال: «ها هي ذي». هذا على الرغم من أنه لم تتح له معرفة وقع خطواتها وهي نازلة إلا لليلة واحدة. حتى كلبه شب على أقدامه ووقف إلى جانب الباب، الذي تركته مفتوحًا لتبريد الغرفة، واستقبلها ذانها واحدة من أفراد عائلة «بايل». كنت أنا الدخيل.

نظرت «فونج» إلى «بايل» نظرة تحفظ. قالت:

- لم تكن أختي في البيت.

وتساءلت في نفسي أتقول الصدق، أم أن أختها طلبت منها العودة

على عجل؟

وقلت لها:

- أتذكرين السيد «بايل»؟

قالت بالفرنسية:

- تشرفنا.

بدت على أحسن ما تكون في سلوكها.

قال «بابل» وقد احمر وجهه:

- إنني سعيد جداً لرؤياك ثانية.

وردت بالفرنسية:

- ماذا؟

فقلت له:

- إن لغتها الإنجليزية ليست كما ينبغي.

- أخشى أن تكون فرنسيتي شنيعة. ومع ذلك فلاني أتلقى فيها دروساً

وأستطيع أن أفهم، إذا تحدثت «فونج» على مهل.

قلت:

- سأقوم بدور المترجم، فالنبرة المحلية تحتاج إلى تعود كذلك.

والآن ماذا تريد أن تقول؟ اجلسي يا «فونج»، لقد أتى «بابل»

خصيصاً ليراك، أنت على يقين من...

ثم استطردت موجهًا حديثي إلى «بابل»:

- ... أنك لا تريد أن أترككما وحدكما؟

- أريد منك أن تسمع كل ما أود أن أقوله، وليس من الإنصاف أن

يحدث غير ذلك.

- حسن، أطلق نيرانك.

وتحدث بوقار وكأنه حفظ هذا الجزء عن ظهر قلب. قال إنه

يُكنى لـ «فونج» حباً وتقديراً عظيمين. وإن ذلك الشعور لازمه منذ

تلك الليلة التي راقصها فيها. وعاد لذاكرتي بعض حديث لرئيس

خدم، وهو يعرض على مجموعة من السائحين مزايا «بيت عظيم».

١٠ البيت العظيم هو قلبه، أما عن الحجرات الخاصة في هذا البيت،
- ث كان يعيش أفراد العائلة، فلم يقدم لنا عنها سوى لمحة خاطفة
- حفية. ترجمت له كلماته ترجمة حرفية وأمانة، ومن ثم بدت ترجمة
دته. كانت «فونج» آنذاك جالسة في صمت ويدها في حجرها،
- داتها تنصت لكلمات فيلم سينمائي.

سألني:

- هل فهمت ذلك؟

- بقدر ما استطعت أن أنقل إليها. أنت لا تريد مني أن أضيف
القليل من البهارات إلى كلامك، هل تريد مني ذلك؟
- أوه لا، ترجم فقط، أنا لا أريد أن أهزها عاطفياً.
- أعرف.

- قل لها إنني أريد أن أتزوجها.

- قلت لها ذلك.

- ماذا قالت لك؟

- سألتني ما إذا كنت جاداً في ذلك. وقلت لها إنك من الطراز
الجاد.

- أظن أن هذا الموقف شاذ، إنني أنا الذي أطلب منك أن تترجم
لي.

- إلى حدّ ما أنت كنت ترى ذلك.

- ومع ذلك فإنه يبدو أمراً طبيعياً، فأنت في النهاية أخلص أصدقائي.
- جميل منك أن تقول هذا.

- وأنت الوحيد الذي سادخل معه في مشاكل عن قريب.

- هل تظن أن حبك لفتاتي نوع من المشاكل؟
 - بالطبع، كنت أود أن يكون أي إنسان غيرك يا «توماس».
 - حسنًا، ماذا أقول لها بعد ذلك؟ إنك لن تستطيع الحياة من دونها؟
 - لا، فهذا حديث عاطفي جدًا. فضلًا عن أنه ليس صادقًا تمامًا.
 قد أضطر إلى الرحيل بالتأكيد، بيد أن على الإنسان أن يتحكم
 في كل أموره.
 - بينما تفكر فيما تريد قوله، أتمنع في أن أقول كلمة لحسابي؟
 - لا، بالقطع لا. فالمسألة يجب أن تكون مبرأة من كل شأن،
 يا «توماس».
 قلت لـ «فونج»:
 - حسنًا يا «فونج». هل أنت بصدد أن تتركيني من أجله؟ إنه
 سيتزوجك وأنا لا أستطيع ذلك، وأنت تعرفين السبب.
 سألتني:
 - هل سترحل؟
 وفكرت في خطابي إلى رئيس التحرير وهو في جيبي.
 - لا.
 - أبدًا؟
 - كيف لإنسان أن يعد بذلك؟ هو لا يستطيع ذلك، الزيجات
 تتحطم، وغالبًا ما تتحطم بأسرع من علاقة كعلاقتنا.
 - أنا لا أريد أن أذهب.
 لم تكن هذه الجملة تبعث على الراحة، إذ كانت تحتوي على
 كلمة «لكن» غير معلنة.

قال «بايل»:

بنبغي أن أكشف كل أوراقي. لست ثريًا، ولكن سيؤول إليّ بعد وفاة أبي حوالي خمسين ألف دولار. وأنا أتمتع بصحة طيبة. لقد استخرجت شهادة طيبة منذ شهرين فقط وأستطيع أن أهيئ لها فرصة معرفة فصيلة دمي.

- أنا لا أعرف كيف أترجم لها ذلك. لماذا كل هذا الكلام؟
- حسنًا، لكي أؤكد لها أننا نستطيع أن ننجب أطفالًا.
- وهكذا تمارسون الحب في أمريكا: أرقام عن الدخل وتحليل الدم؟

- لست أدري، فأنا لم أفعل ذلك من قبل، ربما في بلادي تتحدث أمي مع أمها.
- عن تحليل دمك؟

- لا تهز أبي يا «توماس»، أعتقد أنني من طراز قديم. أنت تعرف أنني ضائع إلى حدٍّ ما في هذا الموقف.
- وأنا كذلك، ألا ترى أننا نستطيع أن نغافلها ونحتكم إلى النرد بشأنها.

- ها أنت تتظاهر الآن يا «توماس» بالعناد، وأنا أعرف أنك تحبها على طريقتك مثلما أحبها أنا.
- حسن، استمر يا «بايل».

- قل لها إنني لا أتوقع منها أن تحبني تَوًّا، فهذا سيأتي مع الوقت. ولكن قل لها إنني أكفل لها الأمان والاحترام. لا يبدو ذلك شيئًا مثيرًا للغاية، ولكن ربما يكون أفضل من الشغف.

- إنها قادرة على أن توفر لنفسها الحب الجنسي عن طريق سائفك.
عندما تكون أنت في مكتبك.

احمر وجه «بايل» واستبد به الحرج، قال:
- هذه إهانة، أنا لا أريد أن أخرجها، وليس من حقك...
- إنها ليست زوجتك بعد.

سألني بغضب:

- ماذا تستطيع أن تمنحها؟ ماتي دولار وقتما ترحل إلى إنجلترا
أم أنك ستشحنها مع الأثاث؟

- ليس الأثاث ملكًا لي.

- ولا هي أيضًا. «فونج» هل تتزوجيني؟
سألته:

- ماذا عن تحليل الدم والشهادة الطبية، هل ستحتاج إليهما؟ يقا
أنك ستحتاج إلى شهادتها الطبية بل وربما احتجت إلى شهادتي
أنا أيضًا، وبرجها... لا، فذلك تقليد هندي.

- هل تتزوجيني؟

قلت له:

- قلها بالفرنسية، ولتحل بي اللعنة إن ترجمت لك بعد ذلك.

ونهضت واقفًا على قدمي ونبح الكلب. وأغضبني هذا.

- قل لكلبك الملعون «ديوك» أن يصمت، فهذا بيتي وليس بيته
وأعاد سؤاله:

- هل تتزوجيني؟

خطوت خطوة ناحية «فونج»، ونبح الكلب ثانية.

قلت لـ «فونج»:

- قل لي له أن ينصرف ويأخذ كلبه معه.

قال «بايل» لـ «فونج»:

- تعالي معي الآن.

ثم أتبعها قوله بالفرنسية:

- معي.

وأجابت «فونج»:

- لا، لا.

وفجأة اختفى الغضب الذي بداخل كلينا. أكانت المشكلة على

القدر من البساطة بحيث يمكن حلها بكلمة من حرفين؟ أحسست

، أمة هائلة، ووقف «بايل» جانباً، فاعترافاً قليلاً، وبدت على وجهه

، عالم الارتباك. قال:

- قالت لا.

- هي تعرف هذا القدر من الإنجليزية.

أحسست الآن برغبة في الضحك، أي سخافات أقدم عليها كلُّ

أنا. قلت:

- اجلس يا «بايل»، وتناول كأساً أخرى من الويسكي.

- أحسب أنه ينبغي عليّ أن أنصرف.

- كأس للطريق.

نتمم قائلًا:

- يجب ألا تأتي على ما لديك من الويسكي.

- إنني أحصل على كل ما أحتاج إليه من المفوضية.

خطوت ناحية المائدة وكشف الكلب عن أنيابه.
قال «بايل» بحنق:
- «ديوك» انزل، تأدب.
مسح العرق من على جبهته:
- «إني آسف أشد الأسف يا «توماس»، إن كان قد بدر مني
لا ينبغي، لست أدري ماذا حدث لي.
أمسك بالكأس وقال بقلق:
- خير الناس يفوز دائماً، فقط أرجو ألا تتركها يا «توماس».
- قطعاً لن أتركها.
قالت لي «فونج»:
- هل يروق له أن يدخن غليوناً؟
- هل يروق لك أن تدخن غليوناً؟
- لا، شكراً. أنا لا أمس الأفيون، وثمة تعاليم صارمة بذلك في
العمل. سأكتفي بشرب هذه الكأس ثم أنصرف. آسف لما به،
من «ديوك»، إنه هادئ جداً في العادة.
- انتظر حتى العشاء.
- إنني أفضل، إن لم يكن في هذا ما يضايقك، أن أكون وحدي
بدت على وجهه تكشيرة غير مفهومة، تابع:
- أظن أن الناس قد يقولون إن كلينا قد تصرف على نحو غريب
أمل أن تتمكن من الزواج بها يا «توماس».
- هل تأمل هذا حقيقة؟
- نعم، كلما وقع بصري على ذلك المكان... لعلك تعرفه. ذلك
البيت القائم بجوار «الشاليه»، تملكني الخوف.

وشرب على عجل كأس الويسكي الذي لم يعتده من دون أن
يهر إلى «فونج». عندما قال «وداعاً» لم يلمس يدها واكتفى بانحناءة
مبهمة متحرجة. لاحظتُ كيف تبعته عينها حتى الباب، وبينما كنت
أز بجانب المرأة رأيت نفسي، كان الزر العلوي لينطلقوني مفكوكاً،
أدع في كرش. عندما وصل إلى الخارج قال:

- أعد بالآإراها ثانية يا «توماس»، يحسن ألا نجعل لهذا أثرًا فيما
بيننا. هل ستفعل ذلك؟ سأطلب نقلي بعد أن أنهى جولتي.
- متى سيكون ذلك؟

- خلال عامين تقريبًا.

عدت إلى حجرتي، وفكرت: «ما الخير في هذا؟ كان حرًا بي
أخبرهما أنني راحل». حينها ما كان عليه إلا أن يحمل قلبه الدامي
أسابيع قليلة كأنه زينة... حتى إن كذبتني كانت لتريح ضميره.
سألتي «فونج»:

- هل أعد لك غليونًا؟

- نعم، بعد قليل، فأنا أريد أن أكتب رسالة فورًا.

كانت هذه هي رسالتي الثانية في ذلك اليوم. بيد أنني لم أمزق
مها شيئًا. ورغم أن أملي كان ضعيفًا في أن تلقى استجابة كتبت:

عزيزتي «هيلين»، سأعود إلى إنجلترا في أبريل القادم
لأتولى عمل محرر للسياسة الخارجية. ولك أن
تتصورني أنني غير سعيد تمامًا بهذا، فإنجلترا بالنسبة
لي هي مسرح فشلي. لقد سبق لي أن عزمت على
أن يظل زواجنا هادئًا بقدر مشاركتي لك في عقائدك
المسيحية، ولا زلت حتى يومنا هذا لا أعرف الخطأ

الذي حدث على وجه التحديد (فأنا أعرف أن كلاً منا حاول) بيد أنني أحسب أن الخطأ يرجع إلى مزاجي أنا. أنا أعرف مدى ما يتسم به مزاجي من قسوة وسوء. وأعتقد أنه الآن أفضل قليلاً - وهذا ما فعله بي الشرق - لم يصبح أكثر حلاوة بل أكثر هدوءاً. ربما يرجع هذا إلى أنني تقدمت في العمر خمس سنوات. في هذه المرحلة من العمر تصبح الخمس سنوات نسبة كبيرة بالقياس إلى ما خلا من أيام الحياة. لقد كنت كريمة غاية الكرم معي. ولم توجهي إليّ يوماً مرة واحدة منذ أن افترقنا. ترى هل لي أن أطمع في مزيد من كرمك؟ أعرف أنك حذرتني قبل زواجك بأنه لن يكون ثمة طلاق. وقبلت المخاطرة وليس ثمة ما أشكونه. وفي نفس الوقت إنني أسألك الآن أن تلبي لي طلباً...

ونادتنني «فونج» من فوق فراشها، قائلة إن الصينية جاهزة. قلت:
- لحظة واحدة.

كتبت:

أستطيع أن أزخرف لكِ قلبي ليبدو قولاً سديداً وأكثر وجاهة، بأن أظهار أن ما أطلبه إرضاء لخاطر شخص آخر، بيد أن الأمر ليس كذلك. ولقد تعودنا أن يصدق كل منا الآخر القول. إنه إرضاء لخاطري: أنا، وأنا وحدي. إنني أحب إنسانة ما حباً جماً، وقد عشنا معاً لأكثر من عامين، وكانت وفيه لي غاية الوفاء، وإن كنت أعرف أنني لا أمثل شيئاً جوهرياً بالنسبة لها، إذ أعتقد أنني لو تركتها فإنها ستبتسئس لذلك قليلاً، ولكن لن

تكون ثمة مأساة على الإطلاق، فهي مستزوج بشخص آخر وتكون أسرة. إنه لغباء مني أن أقول لك ذلك. هأنذا أضع أمامك ردًا جاهزًا، ولكن نظرًا لأنني كنت صادقًا معك إلى هذا الحد فربما تصديقتي إذا ما قلت لك إن فقدي لها سيكون بالنسبة لي بداية الموت. أنا لا أسألك أن تحكمي «العقل» (فالعقل إلى جانبك على طول الخط)، ولا أن تكوني رحيمة بي. إنها كلمة كبيرة جدًا على موقعي وأحسب أن ما أسألك إياه حقيقة هو أن تتصرفي معي بغير وعي وبلا عقل وعلى غير ما يقتضيه الطبع. أريد منك أن تستشعري (ترددت في كتابة هذه الكلمة ثم كتبتها على مضض) وجدان الحب. وأن تتصرفي دون تريث للتفكير. وأعرف أن من الأسر أن يتم ذلك تلفونيًا، بدلًا من أن يكون في رسالة تنتقل عبر ما يزيد على ثمانية آلاف ميل. ولو اكتفيت بأن تبرقي لي فلأنني أقبل ذلك راضيًا.

مد أن فرغت من الكتابة أحسست بأنني عدوت مسافة طويلة وقد برت عضلاتي لإرادتي. واستلقيت على سريرتي بينما كانت «فونج» ها، لي غليونني. قلت:

- إنه شاب.

- من؟

- «بابل».

- هذا أمر غير مهم.

- أود أن أتزوجك لو أستطيع يا «فونج».

- أعتقد ذلك، بيد أن أختي لا تصدقه.

- كتبت تَوًّا إلى زوجتي وطلبت منها الطلاق. لم أحاول ذلك ..

قبل على الإطلاق، فهناك فرصة دائماً.

- هل هي فرصة كبيرة؟

- لا، بل صغيرة.

- لا تعباً... دُخِّن.

جذبت أنفاس الدخان، وشرعت تعد غليوني الثاني.

وسألتها ثانية:

- أحقاً لم تكن أحتك بالمنزل يا «فونج»؟

- قلت لك إنها كانت بالخارج.

كان من السخف أن أعرضها إلى شغف الحقيقة، شغف غريب

كشغف الكحول. خف أثر الأفيون بسبب ما شربته من الويسكي ..

«بايل».

وقلت لها:

- كذبت عليك يا «فونج»، لقد صدر لي أمر بالعودة إلى بلادي

وضعت الغليون على الأرض. قالت:

- ولكنك لن تذهب؟

- إذا رفضت فعلى أي شيء نعيش؟

- أستطيع أن آتي معك، أود أن أرى لندن.

- إذا لم تنزوج فلن يكون في هذا راحتك.

- ولكن ربما تطلقك زوجتك.

- ربما.

- سأأتي معك على أي حال.

كانت تعني ما تقول، بيد أنني لمحت في عينيها بداية سلسلة من
«مكير، وبدأت ترفع الغليون ثانية وتسخر قطعة الأفيون. قالت:

- هل توجد ناطحات سحاب في لندن؟

أحببتها لبراءة سؤالها، إنها قد تكذب بدافع الأدب أو الخوف
أو ابتغاء الربح، ولكن لن يبلغ بها الدهاء إلى الحد الذي تخفي معه
«بها.

- لا، عليك أن تذهبي إلى أمريكا لترىها.

ورمقتني بنظرة خاطفة من فوق الإبرة، واعترفت بهفوتها، وبينما
«انت تعجن الأفيون شرعت تتحدث بطريقة عشوائية عن الملابس
«في سترديها في لندن، وأين ستعيش، وقطارات الأنفاق التي قرأت
«في إحدى الروايات، والأتوبيسات ذات الطابقين، أسناسف
«الجو أو البحر؟

قالت:

- وتمثال الحرية...

- لا يا «فونج»، هذا أمريكي أيضًا.

الفصل الثاني

(١)

«ماد» الكاوديون» أن يقيموا مهرجانًا على الأقل كل عام عند «المشهد المقدس» في تانين، التي تقع على بعد ثمانين كيلومترًا إلى الشمال الغربي من سايجون. كانوا يقيمون مهرجاناتهم احتفالًا بهذه المناسبة أو تلك؛ فهناك «عام التحرير» أو «عام الفتح»، بل ثمة مهرجان «بوذي» أو «كونفوشيوسي» أو حتى «مسيحي». ولقد كانت العقيدة الكاودية موضوعي المفضل في حديثي إلى الزوار. والعقيدة الكاودية بدعة ابتدعها موظف مدني من مقاطعة كوشين. وهي توليفة منتقاة من الأديان الثلاثة. فـ«المشهد المقدس» كان في تانين. وهناك بابا وكاردينالات إناث. ونبوءة من لوح التنبؤ. والقديس «فيكتور هوجو». والمسيح وبوذا يطلّان من سقف الكاتدرائية على تخيلات «والث دبزني» عن الشرق، الثنين والثعابين بالألوان الطبيعية. كان الوافدون الجدد يسرون لرؤيتهم هذه الأمور. لست أدري كيف يتسنى للمرء

أن يعلل الكآبة التي تخيم على التجارة كلها؟ أهو الجيش الخامس المكون من خمسة وعشرين ألفاً من الرجال المسلحين بمدافع «الهاون» التي صُنعت من مواسير العادم لسيارات قديمة، الذي دائماً يتحالف مع الفرنسيين ثم يعود إلى التزام موقف الحياد في وقت الخطر؟ ساعدت هذه الاحتفالات على تهدئة خواطر الفلاحين واعتاد البابا أن يدعو إليها أعضاء الحكومة (الذين قد يظهرون عام الممرح إذا ما استولى «الكاوديون» على مقاليد الأمور)، وأعضاء السلك الدبلوماسي (الذين قد يوفدون عنهم بعض صغار الموظفين تصحبهم عشيقاتهم أو زوجاتهم) والقائد العام الفرنسي الذي قد يؤيد نيابة عنه أحد الضباط الصغار.

على طول الطريق إلى تانين تدفق تيار سريع من سيارات رجال الحكومة والسلك الدبلوماسي. انتشر رجال من «الفرقة الأجنبية» عبر حقول الأرز عند المناطق المكشوفة من الطريق. كان هذا اليوم دائماً مثار قلق للقائد العام الفرنسي، وربما كان يبعث بعض الأمل في نفوس «الكاوديين»، إذ ماذا يؤكد ولاءهم الخاص بطريقة محمود العواقب أكثر من أن يلقى بعض الضيوف من ذوي الشأن مصرعهم وفي أرض غير أرضهم.

وعلى بعد كل كيلومتر يرتفع برج مراقبة صغير، مبني من الطين فوق الحقول المنبسطة كأنه علامة تعجب. وكل عشرة كيلومترات توجد قلعة أضخم من هذا حُشدت فيها شرذمة من جنود الفرق الأجنبية من المراكشين أو السنغاليين. تتابعت السيارات بسرعة واحدة وفق نظام المرور في نيويورك، ومثل مرور نيويورك تصيبك

«الفة من الملل، ترقب السيارة التي تسير أمامك، كما ترقب - من المرأة - السيارة التي من خلفك. كان الجميع يريدون الوصول إلى ابن ليفرغوا من مشاهدة العرض ثم يعودون بأسرع ما يمكن، حظر الجول في السابعة.

واجتزنا مناطق حقول الأرز التي يسيطر عليها الفرنسيون إلى مغل الأرز التي يسيطر عليها أتباع «هواهاو»، ثم اتجهنا إلى حقول الأرز التي يسيطر عليها «الكاوديون» الذين كانوا عادة في حالة حرب مع أتباع «هواهاو». ولم يكن يتغير سوى الأعلام المرفرفة فوق أبراج المراقبة، وأطفال صغار عراة الأجسام يجلسون فوق الجاموس الذي حوض وسط الحقول المروية وقد وصلت المياه فيها حتى أعضائه التناسلية. في الحقول التي تم فيها حصاد المحصول الذهبي ترى الفلاحين بقبعاتهم الشبيهة بالأصداف المخروطية يذرون الأرز مالة حوائط صغيرة منحنية مصنوعة من البامبو المضفور. واندفعت السيارات بجانبهم مسرعة لا تلوي على شيء، فهي تنتمي إلى عالم آخر غير عالمهم.

ها هي كنائس «الكاوديين» تشد انتباه الغرباء في كل قرية. الباب ذو طلاء أزرق شاحب وعين كبيرة وردية من الجص للرب. تزايدت الأعلام، وسارت فرق الفلاحين على طول الطريق، كنا نقرب من «المشهد المقدس». وعلى البعد يطل الجبل المقدس يعلو شامخاً بأنه قبعة خضراء هائلة تظلل مدينة تاننين، وها هنا كانت وقفة الجنرال «ني» الصامدة، قائد الأركان المارق الذي أعلن منذ عهد قريب عن عزمه على محاربة كل من الفرنسيين و«الفيتمنه». ولم يبذل

«الكاوديون» من جانبهم أي محاولة لأسره، رغم أنه اختطف أها الكاردينالات. بيد أنه أشيع أن البابا تواطأ معه في فعلته هذه.

كان الجو في تانين يبدو أكثر سخونة منه في أي مكان في الدلتا الجنوبية. وربما كان نقص المياه أو الإحساس بالضجر لطول هذه الاحتفالات اللانهائي هو السبب في أن المرء يتصبب عرقاً من أجل هذه الحشود التي تجمعت لتصغي إلى أحاديث مملة تُلقى عليهم بلغة لا يفهمونها، أو من أجل البابا الذي أثقلته أريدته الصينية الصنع والشيء الوحيد الذي كان يستشعر معه المرء بعض الرطوبة تحت هذا الوهج هو منظر الكاردينالات الإناث في سراويلهن الحريري البيضاء وهن يتجاذبن أطراف الحديث مع القساوسة، الذين غطوا رؤوسهم بخوذات تقيهم حرارة الشمس. يستبد بك الملل حتى تحسب أن الساعة السابعة لن تأتي أبداً، وقت الكوكبيل على سطح «الماجستيك» مع هبات النسيم من فوق نهر سايجون.

وبعد أن انتهى العرض أجريت حواراً صحفياً مع نائب البابا لم أتوقع أن أخرج بشيء من حديثي معه وكنت على صواب في ذلك، لقد كان اتفاقاً مضمراً بين الجانبين. وسألته عن الجنرال «تي» أوجز في حديثه فقال: «إنه رجل متهور». وبدأ حديثه معي، وقد نسي أنني استمعت إليه منذ عامين مضياً، ذكرني بجهاز الجرامفون الذي أديره في بيتي للوافدين الجدد: العقيدة الكاودية توليفة دينية... خير الأديان قاطبة... والمبشرون الذين أرسلوا إلى لوس أنجلوس... وأسرار الهرم الأكبر. كان يرتدي ثوباً كهنوياً أبيض طويلاً، ولا يتوقف عن التدخين. وكنت تشعر أن ثمة شيئاً من الدهاء والخبث يشوبه،

«لمعة الحب» ترد كثيرًا على لسانه. وكنت على يقين من أنه يعرف
١١١ وفدنا إلى هنا جميعًا لنستضحك من حركاته. وأن مظاهر التقدير
١١٢ هي نبذها فاسدة مثل تراثيته الزائفة، بيد أننا كنا أقل دهاء. لم يحقق
١١٣ «أفنا لنا مغنمًا، ولا حتى مجرد حليف يُعتد به، فإن نفاقهم ساعدهم
١١٤ في الحصول على أسلحة ومؤن، بل وحتى نقود.

- شكرًا يا صاحب النياقة.

نهضت لأنصرف. صحبني إلى الباب وهو يثر رماد السجارة.
١١٥ مال يباركني:

- لبارك الرب عملكم، تذكر دائمًا أن الرب يحب الحقيقة.
١١٦ سألته:

- أي حقيقة؟

- في العقيدة الكاودية تلتقي كل الحقائق، والحقيقة هي الحب.
١١٧ كان يضع خاتمًا ضخماً حول إصبعه، وعندما مد إليَّ يده اعتقدت
١١٨ بحق أنه يمدّها إليَّ لأقبلها، لكنني لست من رجال السلك الدبلوماسي.
١١٩ تحت أشعة الشمس الأفقية الكاوية رأيت «بايل»، كان يحاول عبثًا
١٢٠ أن يدير محرك سيارته «البويك». لقد كنت طوال الأسبوعين الأخيرين
١٢١ التقي دائمًا بـ «بايل» بشتى الطرق، في بار «الكونتنتال»، في المكتبة
١٢٢ الوحيدة الممتازة، وفي شارع كاتينات والصدّاقة التي فرضها عليَّ
١٢٣ منذ البداية يحاول الآن جاهدًا أن يدعمها أكثر وأكثر. وكانت عيناه
١٢٤ نستفسران بصمت عن «فونج»، بينما شفتاه تفصحان - يا للهول -
١٢٥ عن شدة حبه وإعجابه بي.

١٢٦ كان ثمة قائد من قادة «الكاوديين» يقف إلى جانب العربّة ويتحدث

على عجل. توقف عندما ظهرت. تعرفت عليه، كان أحد مساعدي.
«تي» قبل أن يلجأ إلى الجبال. قلت له:

- هالو سيادة الضابط، كيف حال الجنرال.

وسألني بتكشيرة خجولة:

- أي جنرال؟

- المؤكد أن كل الجنرالات على وفاق في نطاق العقيدة الكاودية.

قال «بايل»:

- إنني عاجز عن تحريك هذه السيارة يا «توماس».

- سأتي بميكانيكي.

قالها الضابط وانصرف.

- هل قاطعت حديثكم؟

- لا، ليس ثمة شيء. أراد أن يعرف ثمن السيارة «البويك». إن

هؤلاء الناس يُبدون لك كثيرًا من الود إذا ما تعاملت معهم بطريقة

سليمة. يبدو أن الفرنسيين لا يعرفون كيف يتصرفون معهم.

- الفرنسيون لا يثقون بهم.

قال «بايل» بوقار:

- إن الناس يصبحون جديرين بالثقة، إذا ما وثقت أنت فيهم.

وبدت لي عبارته كأنها حكمة كاودية. وبدأت أحس أن جو تانيين

مفعم بالأخلاقيات التي يشق عليَّ أن أتسمها.

قال «بايل» بوقار:

- هل تتناول كأسًا؟

- ليس ثمة ما هو أحب إلى نفسي من ذلك.

- أحضرت معي ترموس به عصير ليمون.
- وانحنى وشغل نفسه بسلة موضوعه في الخلف.
- ألا يوجد معك أي صنف من شراب الجن؟
- لا، آسف جدًا.
- ثم أضاف وكأنه يغريني:
- تعرف أن عصير الليمون يفيدك كثيرًا في هذا المناخ. فهو يحتوي على فيتامينات وإن كنت لا أعرف ما هي على وجه الدقة.
- ناولني كوبًا وشربته.
- إنه مرطب على أي حال.
- هل لك في شطيرة؟ إنها مفيدة جدًا، في الحقيقة، ثمة نوع جديد من الشطائر يُسمى «الصحة الجيدة» أرسلته إليّ أمي من الولايات المتحدة.
- لا، شكرًا. لست جوعان.
- إن مذاقها يشبه السلاطة الروسية، وإن كانت أجف منها.
- لا أظن أنني سأكل.
- أتمانع إن فعلت؟
- لا، لا، قطعًا.
- وقضم قضمه ملء فيه، وشرع يمضغ ويطلق. وعلى البعد كان بطالنا تمثال بوذا من حجر أبيض ووردي مخلفًا وراءه وطن أجداده، وتمثال آخر لتابعه وهو يقتني أثره عذوًا. كانت الكاردينالات الإناث بسرن على غير هدى في طريقهن عائداً إلى دارهن، وعين الرب ترقبنا من أعلى باب الكاتدرائية.

قلت:

- هل تعرف إن كانوا يقدمون غداء هنا؟
- حسبت أنني لن أخطر بمثل هذا، عليك أن تحذر اللحوم في مثل هذا القبط.
- لا تخش شيئاً، إنهم نباتيون.
- حسن، بيد أنني أحب أن أعرف ما الذي آكله.
- وأخذ قضمه أخرى من شطيرة الصحة الجيدة.
- أنتظن أن لديهم ميكانيكيين يُعتمد عليهم؟
- إن لديهم الخبرة الكافية في أن يحولوا ماسورة العادم عندك إلى مدفع «هاون»، أعتقد أن سيارات «البويك» يُصنع منها أفضل مدافع «الهاون».
- عاد الضابط وحيانا بخفة ورشاقة وقال إنه أرسل في طلب ميكانيكي من الثكنات. وعرض عليه «بايل» شطيرة من شطائر الصحة الجيدة، ولكنه رفضها بأدب. قال، كأنه رجل يستوعب خبرة العالم أجمع، وهو يتحدث بلغة إنجليزية ممتازة:
- لنا قواعد كثيرة هنا بالنسبة للطعام، وهي قواعد سخيفة غاية السخف، بيد أنك تعرف قدرها في عاصمة دينية.
- واستطرد قائلاً بانحناء خفيفة رقيقة ومهذبة:
- أحسب أن هذا هو نفس الوضع في روما أو كاتربري.
- ثم لزم الصمت. كان كلاهما صامتاً. وخالجني إحساس قوي أن صحبتي لهما غير مرغوب فيها. ولم أقوَ على مقاومة إغراء رغبتني في إغاطة «بايل»، وذلك في نهاية الأمر سلاح الضعفاء

« قد كنت ضعيفًا، لم أكن أملك الشباب ولا الجدية ولا الاستقامة
لا المستقبل. قلت:

- ربما يكون لي الحق في شطيرة في نهاية الأمر.

قال «بايل»:

- أوه، طبعًا طبعًا.

وصمت بنهية قبل أن يستدير إلى السلة الموضوعة خلفه.

قلت:

- لا، لا، كنت أمزح فقط. إنكما تريدان أن تختليا وحدكما.

قال «بايل»:

- لا شيء من هذا.

لقد كان من أكثر من عرفت من الكذابين قصورًا، ومن الواضح

أنه لم يمارس فن الكذب على الإطلاق.

وتحدث إلى الضابط قائلاً:

- «توماس» أعز صديق لي هنا.

قال الضابط:

- إنني أعرف مستر «فاولر».

وقلت لـ «بايل»:

- سأراك قبل أن أرحل يا «بايل».

وانصرفت بعيدًا عنهما قاصدًا الكاتدرائية، فهناك أستطيع أن أنعم

ببعض البرودة.

القديس «فيكتور هوجو» في زي الأكاديمية الفرنسية، وهالة من

النور حول قبعته المثلثة تشير إلى «سون يات-سين»^(١) حساس وهو ينقش على أحد الألواح، ثم كنت داخل صحن الكنيسة. لم أجد ما أجلس عليه عدا الكرسي البابوي الذي تحيط به أفعى من نوع الكوبرا صنعت من الجبس وقد التفت حول نفسها. كانت الأرضية المصنوعة من الرخام تتلألأ حتى لتحسبها ماء، والنوافذ بلا زجاج، وفكرت أننا نصنع قفصاً للهواء به فتحات، والإنسان يصنع على نفس النهج قفصاً لعقيدته الوثنية، يترك فيه أبواب الشك مفتوحة للطقس وشرائع مفتوحة لتأويلات لا حصر لها. لقد عثرت زوجتي على قفصها ذي الفتحات وكم من مرة حسدتها على ذلك. إن ثمة صراعاً بين الشمس والهواء، عشت أكثر حياتي تحت الشمس.

سرت داخل صحن الكنيسة الخالي الطويل، لم تكن هذه هي الهند الصينية التي أحببتها. التانين برؤوس كرؤوس الأسود تتسلق المحراب، وعلى السقف يعرض المسيح قلبه الدامي. جلس بوذا كما اعتاد أن يجلس دائماً بجحره الخاوي. تدلت لحية «كونفشيوس» في هزال كأنها شلال مياه في فصل الجفاف. إنها مشاهد مسرحية، الكرة الأرضية الكبيرة التي تعلقو المذبح مطمع، والسلة ذات الغطاء المتحرك التي يخرج منها البابا نبوءاته خداع. ترى لو أن هذه الكاتدرائية كانت موجودة منذ خمسة قرون بدلاً من عشرين عامًا، أكان من الممكن أن تجمع حولها أي ضرب من ضروب الاقتناع مع ما يلحق بها من خدوش من أثر وقع الأقدام وعوامل التعرية الجوية؟ أكان من

(١) قائد سياسي وفيلسوف وأول رئيس لجمهورية الصين الشعبية. (الناشر).

الممكن لأي إنسان يقبل الاقتناع مثل زوجتي أن تلتمس هنا الإيمان الذي تفتقده لدى البشر؟ ترى لو أنني كنت أنشد الإيمان حقيقة أكنت أحده في كنيسة النورماندية الطراز؟ بيد أنني لم أبتغ الإيمان أبدًا. إن وظيفة المخبر الصحفي هي أن يكشف ويسجل. أنا لم أكتشف طوال حياتي ما لا تفسير له. البابا يكتب نبوءاته بقلم رصاص ذي معطاء والناس يصدقونه. وتستطيع أن تعثر على لوح التنبؤ في أي رؤيا مرافية في هذا المكان أو ذاك. أما سجل ذكرياتي فإنه خاو تمامًا من كل رؤى خرافية أو معجزات.

واستعرضت ذكرياتي بطريقة عشوائية كأنما أستعرض صورًا في البوم، ثعلب كنت قد رأيته على ضوء وهج نيران العدو فوق قرية أوريجنون ينسل خفية بجانب حظيرة للدواجن، خارجًا من مكمنه الخمري في مكان يقع عند الحدود. جثة رجل من سكان الملايو مطعونًا بسونكي أتى بها حارس دورية من رجال الجورخا على ظهر لوري إلى معسكر لحفر المناجم في فانج، وقد وقف الفعلة الصينيون بفهقهون متوترين، بينما أخ له من أبناء الملايو يضع وسادة تحت رأس الميت. حمامة على طرف عشها توازن نفسها تأهبًا للطيران داخل حجرة نوم في فندق. وجه زوجتي بعد أن عدت إلى وطني لأحييها تحية الوداع الأخيرة. لقد بدأت أفكارها معها وانتهت بها. لا بد أنها تلقت رسالتي منذ أكثر من أسبوع مضى، ولم تصلني منها بعد البرقية التي لم أتوقعها. بيد أن المثل يقول إذا ما غاب المحلف لفترة طويلة فثمة أمل للسجين. ترى لو لم تصلني رسالة لأسبوع آخر الي أن أظلل على أملي؟ أسمع من حولي سيارات الجنود ورجال

السلك الدبلوماسي تدب فيها الحياة من جديد، ها قد انتهى الحفل
في انتظار عام آخر. لقد بدأ الناس يهرولون عائدين إلى سايجون،
وحظر التجول يقترب. خرجت لأبحث عن «بايل».

كان يقف في مكان ظليل مع الضابط، ولم يكن ثمة من يجري
إصلاحًا في سيارته. وبدأ لي أن المحادثة على وشك الانتهاء بغض
النظر عن موضوعها، وها هما يقفان هناك صامتين تشدهما مظلمة
أدب متبادلة. انضمت إليهما.

قلت:

- حسن. أظن أنني سأصرف. خير لك أن تنصرف أيضًا إذا شئت.

الوصول قبل حظر التجول.

- لم يأت الميكانيكي بعد.

قال الضابط:

- سيأتي حالًا، لقد كان في الاستعراض.

قلت له:

- لك أن تقضي ليلتك هنا، ثمة قداس خاص ستجد فيه تجربة

جيدة. إنه يستغرق ثلاث ساعات.

- ينبغي عليّ أن أعود.

- لن تعود ما لم تتحرك الآن.

وأردفت قائلاً عن غير قصد:

- أستطيع أن أصحبك معي إن كان هذا يروقك، ويرسل الضابط

غداً سيارتك إلى سايجون.

قال الضابط بخيلاء:

- ليس لك أن تنزعج من حظر التجول في أرض «الكاوديين»، أما بعدها... فمن المؤكد أنني سأبعث بسيارتك غدًا.
وقلت له:

- على أن تكون مواسير العادم سليمة.
وابتسم ابتسامة مضيئة نقية، صغيرة، ومقتضبة على الطريقة العسكرية.

(٢)

انت سيارات الموكب قد سبقتنا بمسافة طويلة وقت أن بدأنا نتحرك.
زدت من سرعتي محاولاً أن ألحق بها. بيد أننا خرجنا من منطقة «الكاوديين» إلى منطقة أنصار «هوا هاو» دون أن تصادفنا عن بُعد حتى سحابة تراب. كان العالم مع المساء أرضاً منبسطة قفراً.
لم تكن من نوع البلدان التي تذكرنا بالكماثن، بيد أن الناس يستطيعون أن يخفوا أنفسهم في الحقول الغارقة بالمياه إلى ما دون الرقاب على بعد بضعة ياردات من الطريق. تنحج «بايل» وكانت هذه علامة ود قريب. قال:

- أرجو أن تكون «فونج» على خير حال.
- لم أعرفها مريضة يوماً.
واختفى وراءنا أحد أبراج المراقبة وظهر آخر، كأنها أثقال في كفتي ميزان. قال:

- رأيت أختها بالأمس، وهي تشتري بعض البضائع.
- أظنها طلبت منك زيارتها.
- نعم.
- إنها لا تفقد الأمل بسهولة.
- أمل؟
- في أن تزوجك أختها.
- أخبرني أنك ستغادر البلاد.
- هذه إشاعات رائجة.
- هل ستكون جادًا معي يا «توماس»؟ ألن تكون كذلك؟
- جادًا؟
- لقد طلبت نقلي وأنا لا أريد أن أتركها من دون أحدنا.
- حسبتك سترحل بحثًا عن فرصتك في الخارج.
- فقال من دون أن يشفق على نفسه:
- تبينت أنني لا أحتمل هذا.
- متى سترحل؟
- لست أدري، في ظنهم أن الترتيبات قد تتم خلال ستة أشهر.
- هل تقوى على الاحتمال طوال الستة أشهر؟
- وماذا عساي أفعل غير ذلك؟
- ما الأسباب التي قدمتها؟
- لقد أخبرت الملحق الاقتصادي، الذي سبق لك أن رأيته، «جو»،
- بالحقيقة بشكل أو آخر.
- أظن أنه يلومني لأنني لم أسمح لك بأخذ فتاتي.

- أوه لا، بل الأصح أنه انحاز إليك.

كانت السيارة تفرع وتعلو وتهبط، ويبدو أنها بدأت هذه الفرقة منذ فترة قبل أن أتنبه إليها، ذلك لأنني كنت أنفحص سؤال «بايل» البريء: «هل ستكون جاداً؟»، إنه ينتمي إلى عالم نفسي يتسم بالبساطة الشديدة. حيث تتحدث عن الديمقراطية وعن كلمة «Honor» من دون حرف «يا» كما كتبت على شواهد القبور القديمة، بيد أنك عنيت ما كان يعنيه أبوك بهاتين الكلمتين نفسيهما. قلت:

- فرغ الخزان.

- الوقود؟

- كان بها الكثير. ملأت الخزان عن آخره قبل أن أتحرك ولكن أولاد الحرام في تانين سرقوه. كان عليّ أن أتنبه إلى ذلك، لم يتركوا إلا ما يكفيني للخروج من منطقتهم.

- ماذا سنفعل؟

- نستطيع أن نواصل السير حتى نصل إلى برج المراقبة التالي، علنا نجد لديهم ولو قدرًا ضئيلاً.

بيد أن الحظ لم يكن حليفاً لنا، فقد وصلت السيارة على بعد ثلاثين ياردة من البرج وتوقفت تماماً. سرنا على أقدامنا حتى أسفل البرج وناديت على الحراس بالفرنسية قائلاً لهم إننا أصدقاء عائدون، فلم تكن لي رغبة في أن يصرعني حارس فيتنامي. ولكن ما من مجيب وما من أحد يطل علينا. قلت لـ «بايل»:

- هل معك بندقية؟

- أنا لا أحملها أبداً.

- ولا أنا.

كانت ألوان أشعة الشمس الغاربة تشبه الأرز في لونه الأخضر،
والذهبي، وقد بدأت تختفي رويدًا رويدًا وراء حافة العالم المنبسط،
وبدا برج المراقبة كأنه بصمة سوداء على صفحة السماء الرمادية
الصافية، لا بد أننا اقتربنا من موعد حظر التجول. صحت ثانية دور
مجيب.

- هل تعرف عدد الأبراج التي مررنا عليها بعد آخر قلعة؟

- لم أنتبه إلى ذلك.

- ولا أنا.

ربما لا زالت أمامنا ستة كيلومترات على الأقل إلى القلعة الثانية،
أي ساعة سيرًا على الأقدام. ناديت للمرة الثالثة. وردد الصمت نفسه
كأنه الإجابة. قلت:

- يبدو أنه خاوٍ، الأفضل أن أتسلق وأرى.

ثمة راية صفراء بها خطوط حمراء بهت لونها واستحال إلى لون
برتقالي. وتشير هذه الراية إلى أننا أصبحنا خارج المنطقة التي يسيطر
عليها أنصار «هوا هاو»، وأننا أصبحنا داخل المنطقة التي يسيطر عليها
الجيش الفيتامي. قال «بايل»:

- ألا تظن أننا لو انتظرنا هنا فقد تمررنا بسيارة؟

- ربما، ولكنهم قد يأتون أولًا.

- هل أعود إلى السيارة وأضيء أنوارها كإشارة.

- يا إلهي، لا. دعها كما هي.

ساد الظلام الآن بحيث إنني كنت أتعثر أثناء بحثي عن مكان

السلم، وطقطق شيء تحت قدمي، وتخيلت أن الصوت ينتقل عبر
مفول الأرز. ولكن من ذا الذي عساه يسمعه؟ ضاعت ملامح «بابل»
أصبح أشبه ببقعة على جانب الطريق. إن الظلام حين يهبط يسقط
لحجر. وقلت: «انتظر هناك حتى أناديك». وتساءلت إن كان الحارس
قد جذب السلم معه. ولكن ها هو السلم، وعلى الرغم من أن العدو
قد يتسلقه فإنه وسيلتهم الوحيدة للهرب. بدأت الصعود.

سبق لي أن قرأت كثيرًا عن الأفكار التي تراود الناس لحظة
الخوف: أفكارهم عن الحرب أو الأسيرة أو المرأة، وإني لأعجب
لمقدرتهم. أما أنا فلم أفكر في شيء ولا حتى في ذلك الباب السحري
الذي يعلنوني. وتوقفت عن الحياة طيلة تلك الثواني، كنت فريسة
مهلة للخوف. واصطدم رأسي عند قمة السلم، فالخوف عاجز عن
أن يعد الدرج أو أن يسمع أو يرى. ثم ارتفع رأسي فوق أرضية البرج
ولم يطلق أحد النار عليّ وفارقني الخوف.

(٢)

وجدت فوق الأرضية مصباحًا زيتيًا مشتعلًا، ورجلين رابضين
بجوار الحائط يرقباني. أمسك أحدهما برشاش «ستين» والآخر
ببندقية، بيد أنهما كانا فزعين مثلما كنت، وكانا يدوان كتلميذين
بيد أن العمر عند الفيتناميين يغرب فجأة كالشمس. إنهما صبيان
وهما كذلك شيخان، وسررت لأن لون بشرتي وشكل عينيّ كانا

بمثابة جواز مرور، ومن ثم فإنهما لن يطلقا الرصاص عليّ إلا
ولا حتى بدافع الخوف.

صعدت الدرج لأصبح فوق الأرضية، متحدثًا إليهما لأطمئنهما،
قائلًا إن سيارتي بالخارج وقد نفذ ما فيها من وقود. ربما كان معهما
بعضه فأشتريه، ولم يبدُ ذلك بينما كنت أنظر حولي متفحصًا. لم يكن
ثمة شيء في هذه الحجرة الصغيرة المستديرة سوى صندوق ذخيرة
لـ«الستين» وسرير خشبي صغير ولفافتين معلقتين على مسمار
ووجدت إناءين بهما بقايا أرز وبعض الملاعق الخشبية. وعرف
أنهما كانا يأكلان بغير شهية كبيرة.
سألت:

- كمية تكفينا للوصول حتى القلعة التالية؟

هز أحد الرجلين القابعين بجوار الحائط رأسه، وهو الرجل الذي
يحمل البندقية.

- إذا لم يكن ميسورًا لكما فإننا سنضطر إلى أن نقضي ليلتنا هنا
فأجاب بالفرنسية:

- ممنوع.

- بأمر من؟

- إنك مدني.

- ليس هناك من يرغبني على الجلوس في الخارج على قارعة
الطريق حتى تقطع رقبتني.

- هل أنت فرنسي؟

كان المتكلم واحدًا فقط. أما الآخر فقد جلس برأسه متجهًا ناحية

امرى يرقب فتحة في الجدار، إنه لم يستطع أن يرى شيئاً سوى صفحة
السماء، وبدأ لي أنه ينصت لشيء وبدأت أنصت أيضاً. وبدأ صوت
ملا الصمت جلبة لا تعرف لها اسماً. صلصلة، صرير، حفيف، شيء
..نبه السعال، صوت هامس. وسمعت «بايل»، لا بد أنه اقترب من
أسفل السلم.

- هل أنت بهخير يا «توماس»؟

ناديته:

- اطلع.

بدأ يصعد السلم. وحرك الجندي الصامت رشاشه «الستين»،
لا اعتقد أنه سمع كلمة واحدة مما قلناه. لقد كانت حركة جبانة نزقة.
نحقت من أن الخوف قد أصابه بشلل فصرخت فيه كأنني رقيب أول:
- ضع سلاحك إلى جانبك.

واستخدمت الأسلوب الفرنسي البذيء الذي حسبت أنه سيعرفه،
مرضخ لي تلقائياً. صعد «بايل» إلى الغرفة. قلت له:

- لقد عرضوا علينا الأمان في البرج إلى أن يطلع الصباح.

قال «بايل»:

- جميل.

كان صوته ينم عن قليل من الحيرة. ثم قال:

- أما كان ينبغي لواحد من هذين الأحمقين أن يكون يقظاً في
حراسته؟

- إنهما يؤثران ألا يطلق أحد عليهما الرصاص، وددت لو أنك
أحضرت معك مشروباً أقوى من عصير الليمون.

- أظن أنني سأحضر مثل هذا المشروب في المرة القادمة.

- أمامنا ليلة طويلة.

الآن وبعد أن أصبح معي «بايل» لم أعد أسمع الضوضاء، بل إن الجنديين بدوا لي وكأنهما استرخيا قليلاً. سألني «بايل»:

- ماذا يحدث لو أن الفيتناميين هاجموهما؟

- سيطلقان رصاصة ثم يفران، وتقرأ عن هذا كل صباح في صحبه

«الشرق الأقصى»: «احتل «الفيتمنه» ليلة أمس، مؤقتاً، موقفاً

جنوب غرب سايجون».

- إنه لمنظر سيئ.

- ثمة أربعون برجاً مثل هذا بيننا وبين سايجون، والاحتمال دائماً

أن الآخر هو من سيُصاب.

- ليتنا أكلنا الشطائر، أظن أنه ينبغي على أحدهما أن يطل إلى

الخارج.

- إنه يخشى أن تطل قذيفة إلى الداخل.

بعد أن استقر بنا المقام على أرضية البرج استرخى الفيتناميان

قليلاً. أحسست ببعض التعاطف معهما. إنها ليست مهمة سهلة

لاثنين من الرجال لم يحسن تدريبهما أن يقضيا الليلة تلو الأخرى

هنا، يقظين وهما لا يعرفان أبداً متى ستتحف قوات «الفيتمنه» إلى

الطريق عبر حقول الأرز. وقلت لـ «بايل»:

- أنتظن أنهما يعرفان أنهما يحاربان من أجل الديمقراطية؟

ما أحوجنا إلى «يورك هاردنج» ليأتي ويشرح لهما ذلك.

- إنك دائم السخرية من «يورك».

- أنا أسخر دائمًا من أي إنسان يقضي معظم وقته في كتابة صور ذهنية محضه عن شيء لا وجود له.

- إنها موجودة بالنسبة له، ألم تكن لك مفاهيم ذهنية؟ «الله» على سبيل المثال.

- ليس عندي ما يبرر الإيمان بالله، هل لديك أنت ما يبرر ذلك؟ - نعم. إنني من الموحدين.

- كم من مئات الملايين من الآلهة يؤمن بها البشر؟ حتى الكاثوليكي الروماني نفسه يؤمن بإله جد مختلف حين يكون فرعًا أو سعيّدًا أو جانعًا.

- قد يكون هذا صحيحًا، فلو كان ثمة إله فإنه سيكون هائلًا بحيث يبدو على صور مختلفة بالنسبة لكل إنسان.

- مثل بوذا العظيم في بانكوك، إنك لا تستطيع أن تحيط به بنظرة واحدة. وعلى أي حال فإنه يظل ساكنًا.

- أحسب أنك تحاول فقط أن تكون عنيّدًا، فلا بد أن ثمة ما تؤمن به، فليس ثمة إنسان يستطيع أن يحيا بغير عقيدة يؤمن بها أيًا كانت.

- أوه، لست من أتباع «باركلي»، أنا أومن بأنني أسند ظهري إلى هذا الجدار. وأومن بأن هناك «ستين».

- ليس هذا ما أعنيه.

- بل إنني أومن بما أسجله في تقاريري وهو شيء لا يفعله أكثر مراسليكم.

- هل تريد سيجارة؟

- أنا لا أدخن، فيما عدا الأفيون. أعطِ واحدة للحارسين، ..
الأفضل أن نظل أصدقاء لهما.

نهض «بايل» وأشعل لهما سيجارتيهما ثم عاد. قلت له:
- أود لو أن للسجائر دلالة رمزية مثل الملح.
- ألا تثق فيهما؟

- إن أي ضابط فرنسي لن يحرص على أن يقضي ليلته وحده
مع حارسين فرعين في أحد هذه الأبراج. لماذا؟ لأن
المعروف أن حفنة من الجنود سلموا ضباطهم. لقد استطاع
قوات «الفيتمه» أن تحقق نجاحًا كبيرًا بمكبرات الصوت أن
مما سجلته من نجاح بمدافع «البازوكا». أنا لا ألومهم، فهم
لا يؤمنون بغير هذا. أما أنت وأمثالك فتحاولون إشعال الحرب
عن طريق شعوب لا مصلحة لها فيها.
- إنهم لا يريدون الشيوعية.

- إنهم يريدون كفايتهم من الأرز، ولا يريدون أن يطلق عليهم
الرصاص. إنهم يأملون في يوم يكونون فيه مثل غيرهم. إنهم
لا يريدون أن يجدوا أنفسهم محاطين ببشرتنا البيضاء لنقوا
لهم ما الذي يريدونه هم.
- لو ضاعت الهند الصينية...

- أعرف هذه الأسطوانة. ستضيع معها سيام. وستضيع الملايو
وستضيع إندونيسيا. ماذا تعني كلمة «تضيع» هذه؟ لو أنني أو...
بالهك وبالحياة الأخرى لراحتك بقيارتي في الحياة الأخرى،
مقابل تاجك الذهبي على أنه في خلال خمسمائة عام قد لا

نكون هناك نيويورك أو لندن، أما هم فيسظلون يزرعون الأرز في هذه الحقول ويحملون إنتاجهم إلى السوق على عوارض خشبية طويلة وفوق رؤوسهم قبعاتهم المخروطية. سيمتطي الصبية الصغار ظهور الجاموس. وأنا أحب الجاموس لأنها لا تحب رائحتنا، رائحة الأوروبيين. وتذكر أنك أوروبي أيضًا من وجهة نظر الجاموسة.

- سيكرهون على الإيمان بما يلقي عليهم، لن يتركوا وشأنهم يفكرون لأنفسهم.

- الفكر نوع من الترف، هل تظن أن الفلاح يجلس على الأرض ليفكر في الله والديمقراطية حين يدلف أثناء الليل إلى كوخه المبني من الطين؟

- إنك تتحدث كأن كل سكان البلد من الفلاحين. ماذا عن المثقفين؟ هل سيكونون سعداء بذلك؟

- أوه، لا، لقد نشأناهم على أفكارنا نحن. علمناهم ألا عيب خطيرة. وهذا هو سبب انتظارنا هنا آمليين ألا تقطع رقابنا. إننا نستحق قطعها. وأود أن يكون معنا هنا أيضًا صديقك «يورك هاردنج». ترى كيف سيتلذذ بهذا.

- «يورك هاردنج» رجل شجاع للغاية، ففي كوريا...

- إنه لم يكن مجندًا. أكان كذلك؟ لقد كان يحتفظ بتذكرة العودة. ومع تذكرة العودة تصبح الشجاعة تجربة فكرية، كجلد الراهب نفسه. أما هؤلاء الشياطين التعساء فإنهم لا يستطيعون أن يلحقوا بطائرة تعود بهم إلى وطنهم.

ناديت على الحارسين قائلاً:

ـ هاي، ما اسماكما؟

ظننت أن معرفتنا باسميهما قد تكون بشكل ما دعوة لينخرنا داخل دائرة حديثنا. إلا إنهما لم يجيبا. وانحنيا فقط ناحيتنا كما رماد سجائرهما. قلت:

ـ إنهما يظنان أننا فرنسيان.

ـ بالضبط، حري بك ألا تعادي «يورك»، وإنما تعادي الفرنسيين. تعادي اتجاههم الاستعماري.

ـ مذاهب وأنظمة. أعطني وقائع. صاحب مزارع المطاط يضرب عامله، وأنا فعلاً مُعَادٍ له. إنه لم يأمره وزير المستعمرات بـ ذلك. أتوقع أنه يضرب زوجته في فرنسا. حدث أن رأيت قديراً فقيراً افقرًا مدقعاً، حتى إنه لا يملك إلا بنطلوناً واحداً، كان يعد خمس عشرة ساعة في اليوم ينتقل من كوخ إلى كوخ أيام الكوليرا. لا يطعم شيئاً سوى الأرز والسمك والملح، يربو قداسه ومعه كوب قديم، وعاء خشبي. أنا لا أؤمن بالله لكثير مع هذا القسيس. لماذا لا تسمي هذا «استعماراً»؟

ـ إنه استعمار. يقول «يورك» إن الإداريين الطيبين هم غالباً من صعوبة تغيير النظام السيئ.

ـ على أي حال فإن الفرنسيين يموتون كل يوم، وليس هذا مذهباً ذهنيّاً. إنهم لا يقودون هذا الشعب بنصف أكذوبة مثلما يفعل ساستكم وساستنا. كنت في الهند يا «بايل»، وأعرف المساء التي يقدم عليها الليبراليون. لم يعد عندنا الآن حزب ليبرالي.

فقد سرت عدوى الليبرالية إلى كل الأحزاب الأخرى. وأصبحنا جميعًا إما محافظون ليبراليون أو اشتراكيون ليبراليون، ولنا جميعًا ضمير خيّر. أوثر أن أكون مستغلًا يحارب ويموت دفاعًا عما يستغله. ألقي نظرة على تاريخ بورما. لقد ذهبنا وغزونا البلد، وساندتنا القبائل، وانتصرنا. ولم نكن في تلك الأيام دعاة استعمار تمامًا كما أنتم أيها الأمريكيون، لا، بل لقد عقدنا سلامًا مع الملك وأعدنا إليه مقاطعته، وتركنا حلفاءنا ليصلبوا أو يقطعوا نصفين. لقد كانوا أبرياء فظنوا أننا سنبقى. بيد أننا كنا ليبراليين. ولم نشأ أن تكون لنا نوايا شريرة.

- كان هذا منذ زمن طويل.

- إننا سنفعل نفس الشيء هنا، نشجعهم ثم نتركهم بقليل من المعدات وصناعة هزيلة.

- صناعة هزيلة؟

- بضاعتك من البلاستيك.

- أوه نعم، فهمت.

- لست أدري لماذا أتحدث في السياسة فهي لا تعنيني، وأنا مجرد مخبر صحفي. ولست متورطًا.

- أنت كذلك؟

- هذا كان على سبيل المحاجة لتمر ليلتنا اللعينة، هذا كل ما في الأمر. أنا لا انحاز لأي جانب. سأظل دائمًا أخيرًا أيًا كان الجانب الفائز.

- وإذا فازوا فإنك ستخبر بأكاذيب.

- يوجد عادة طريق ملتوي، وأنا على العموم لم ألحظ اهتمامًا كبيرًا بالحقيقة في أي من صحفنا.

أعتقد أن جلوسنا هنا وحديثنا معًا كان مشجعًا للجنديين. ربما رآها جرس أصواتنا البيضاء - ذلك لأن الأصوات لها لون أيضًا، فثمة أصوات صفراء تغني، وأصوات سوداء تزمجر، أما أصواتنا فهي تتكلم فقط -، يعطي إحساسًا بوجود أعداد كبيرة، مما يبعد قوات «الفيتمنه». والاهتمام طبقيهما، وشرعًا يأكلان من جديد، ويحكان بملاعقهما الخشب، وعيونهما ترقب «بابل» كما ترقبني من فوق حافة الطبق.

- معنى هذا أنك ترى أننا خسرنا؟

- ليس هذا هو بيت القصيد، فأنا لا يعنيني أساسًا أن أراك متصيرًا، وإنما أريد أن أرى هذين التعيسين اللذين يعيشان حياة الحيوان. وقد ظللتهما السعادة. هذا كل ما في الأمر. لا أريد لهما أن يُكره، على الجلوس في ظلام الليل وقد استبد بهما الهلع.

- عليك أن تكافح من أجل الحرية.

- أنا لم أر أي أمريكي يكافح هنا، أما عن الحرية فلست أدرم لها معنى، سلهما.

ورفعت صوتي ليمتد عبر الأرضية، وسألتهما بالفرنسية: «الحرية؟ ما الحرية؟»، وازدردا الأرض، وبادلانا التحديق ولم ينسبا بينت شعره قال «بابل»:

- أتريد أن يكون البشر من نمط واحد؟ إنك تجادل من أجل الجدول. أنت مثقف. إنك تدافع عن أهمية الفرد وكيانه بقدر الجدول. أنا أو «يورك».

- لماذا لم نكتشف الحرية إلا حديثاً؟ منذ أربعين عاماً خلت لم تكن موضوع حديث لأي إنسان على هذا النحو.
- لم يكن ثمة ما يتهددها آنذاك.

- حريتنا نحن هي التي لم تكن مهددة، أوه لا، ولكن من ذا الذي كان يحرص على فردية الإنسان الذي كان يعيش في حقول الأرز ومن الذي يفعل ذلك الآن؟ المسؤول السياسي هو الرجل الوحيد الذي يعامله كإنسان. هو الذي يجلس معه في كوخه، ويسأله عن اسمه، وينصت إلى شكواه، ويقضي ساعة من نهاره كل يوم لتعليمه. لا يعني ما الذي يتعلمه، وإنما يكفي أنه يعامله كإنسان، كشخص له قيمته. لا تواصل عملك في الشرق بصيحة البغاء هذه عن تهديد الروح الفردية، فهنا ستجد نفسك واقفاً إلى جانب الخطأ. إنهم هم الذين يدافعون عن الفرد، أما نحن فإننا ندافع فقط عن الجندي رقم ٢٣٩٨٧، وحدة في الاستراتيجية العالمية.

قال «بايل» بضجر:

- أنت لا تعني نصف ما تقول.
- ربما ثلاثة أرباع ما أقول، فقد كنت هنا منذ زمن طويل. ومن حسن الحظ أنني كما تعرف غير ملتزم. وإلا لأغريت على القيام بعمل ما، لأن هنا في الشرق، حسن إنني لا أحب «أيزنهاور». إنني أحب هذين الاثنين. فهذه هي بلدهما. كم الساعة الآن؟
ساعتي توقفت.
- الثامنة والنصف.

- عشر ساعات ثم نستطيع التحرك.

قال «بايل» وهو يرتعد:

- سيصبح الجو قارس البرودة، لم أكن أتوقع ذلك.

- توجد مياه كثيرة حولنا، لقد أتيت معي ببطانية موجودة في
العربة، إنها تكفي.

- هل الطريق آمن؟

- ما زال الوقت مبكرًا بالنسبة لـ «الفيتمه».

- سأذهب.

- لقد اعتدت على الظلام أكثر منك.

عندما نهضت توقف الجنديان عن الأكل. قلت لهما بالفرنسية،
- إنني عائد حاليًا.

وأدليت بساقي خارج الباب السحري وتحسست السلم حذرًا
وجدته ثم نزلت. إنه لأمر غريب أن تعيد لنا المناقشة الثقة في أمرنا،
خصوصًا بالنسبة للموضوعات المجردة. إذ يبدو أننا نعيش أغرب
الملايسات بمقاييس ثابتة. كان الخوف قد زایلني تمامًا. وهيا لي أسير
تركت حجرة عادية سأعود إليها ثانية لأواصل النقاش من جديد، وأد
برج المراقبة هو شارع كاتينات و«الماجستيك» بل إنه حجرة منعزلة
في ميدان جوردون.

توقفت دقيقة أسفل البرج أسرح الطرف فيما ورائي. طالعني ضوء
النجوم وغاب ضوء القمر. إن ضوء القمر يذكرني بثلاجات الموت
والشعاع الواهن لمصباح كهربائي بغير غطاء يعلو لوحًا من الرخام
أما ضوء النجوم ففيه حيوية وحركة لا تهدأ أبدًا. إنه يبدو لي وكأنه

« شخصاً في الفضاء السحيق يحاول أن يبلغك رسالة خيرة. ذلك
أسماء النجوم ذاتها أسماء أليفة. «فينوس» [الزهرة] هي أي امرأة
منها. والديان الأصغر والأكبر هما الديان اللذان ألفناهما في ميعة
الطفولة. وأحسب أن كوكبة صليب الجنوب تمثل بالنسبة إلى هؤلاء
هم على شاكلة زوجتي ترنيمه محببة أو صلاة بجانب الفراش.
استني رعدة خاطفة مثل تلك التي أملت بـ «بابل»، بيد أن الليل كان
الولاً أن هذا الشريط الضحل من الماء الممتد على الجانبين كان
هذا الدفء قليلاً. نظرت نحو السيارة، وخطر لي للحظة سريعة
أواقف على قارعة الطريق أنها ليست في مكانها، واهتزت ثقتي
لك، حتى بعد أن تذكرت أننا توقفنا عن السير على مبعده ثلاثين
دقة. ولم أحتمل السير إلا وقد حنيت كتفي، إذ أحسست أنني أوهي
مربعة وأنا على هذه الصورة.

اضطرت إلى أن أفتح حقيبة العربة لأتي بالبطانية، لكن صوت
المفل والصرير وسط السكون أفرعاني. لم أستطع أن أكون مثار
الموضوع الوحيدة بينما كان يجب أن يكون ليلاً هادئاً تماماً يسكن
إليه الناس. ووضعت البطانية حول كتفي. وكنت أكثر حذراً وأنا
أففض غطاء الحقيبة مما كنت عليه وأنا أرفعه. ما إن أغلقته حتى
مر في وهج شديد في السماء ناحية سايجون. ودمدم صوت انفجار
أب على طول الطريق. وإذا برشاش «برن» تتابع زخاته المرة بعد
الأخرى، ثم صمت قبل أن يتوقف هدير الانفجار. فكرت: «لا بد
أن أحدهم تلقاها». وتناهدت إليّ عن بعد شديد صيحات قد تكون
صيحات ألم أو خوف بل وربما كانت صيحات انتصار. ولست أدري

لماذا تملكنتي فكرة واحدة، وهي أنه ثمة هجوم آتٍ من الخلف على طول الطريق الذي اجتزنناه. وانتابني للحظة إحساس غامض بأن قوات «الفيتمة» قد تكون في المقدمة وسط الطريق بيننا وبين سايجون. وبدا لي وكأننا سرنا لاشعوريًا ناحية الخطر بدلًا من أن نبعد عنه تمامًا مثلما كنت أسير آنذاك متخذًا وجهتي ناحيته عائدًا إلى البرج، كنت أسير لأن السير أقل وضوءًا من الجري بينما كان جسمي يريد أن يجري.

وقفت أسفل السلم وناديت على «بايل»: «إنه أنا، «فاولر»»، (لم أستطع حتى في هذه اللحظة أن أروض نفسي على استخدام اسمي الأول في حديثي معه)، كان المنظر داخل البرج قد تغير تمامًا. أوعية الأرز دفع بها إلى الخلف على أرضية البرج. وأمسك أحد الحارسين ببندقيته، واتخذ وضع الارتكاز، وأسند ظهره إلى الجدار وهو يحدج «بايل» بنظره. وكان «بايل» جاثيًا على ركبتيه، وقد ابتعد قليلًا عن الجدار المقابل، وعيناه مثبتتان على رشاش «الستين» الذي يرقد على الأرض بينه وبين الحارس الثاني. وبدا كأنه شرع في الزحف ناحيته ثم تردد. وكانت ذراع الحارس الآخر ممدودة ناحية الرشاش. لم يبد على أيٍّ منهما أنه قاتل أو هدد بالقتال. وبدا عليهما أنهما يلعبان لعبة الأطفال التي يتعين فيها على الطفل أن يخفي حركته، وإلا اضطر أن يبدأ لعبته من جديد. وقلت:

— ما هذا الذي يحدث؟

نظر إليَّ الحارسان، وانقض «بايل» على «الستين» وجذبه ناحية من الحجرة.

سألت:

- أهى لعبة تلعبونها؟

قال «بايل»:

- لا أثق في قدرته على استخدام السلاح لو أتوا إلينا.

- هل استخدمته من قبل؟

- لا.

- هذا جميل. ولا أنا. إنني سعيد بأنه محشو، وإن كنا لا نعرف

كيف نحشوه ثانية.

استسلم الحارسان في هدوء لفقد السلاح. وخفض أحدهما

البندقية ووضعها بين فخذه. وتكوم الثاني على نفسه وقبع إلى

جانب الجدار وأغمض عينيه كطفل يظن أنه بذلك يخفي نفسه عن

الأنظار وسط الظلام. ربما كان سعيداً لأن المسؤولية قد انزاحت عن

ذاهله. وانطلق البرق ثانية في مكان ما على بعد، ثلاثة انفجارات بعدها

سكون. وشد الحارس الثاني جفونه ليغمض عينيه بقوة.

قال «بايل»:

- إنهما لا يعرفان أننا لا نقدر على استخدام السلاح.

- المفروض أنهما يقفان إلى جانبنا.

- ظننت أنه لم يكن لك جانب معين.

- أنا على البر. وددت لو عرفت قوات «الفيتمه» ذلك.

- ما الذي يحدث هناك في الخارج؟

واستشهدت له ثانية بالعبرة المألوفة التي ستنشرها في الغد

صحيفة «الشرق الأقصى»: «وقع بالأمس هجوم على أحد مواقع

الحراسة على بعد خمسين كيلومترًا من سايجون. واحتله لبعض الوقت رجال عصابات «الفيتمه».

- أنتظن أن الحقول أكثر أمناً؟

- إنها مبتلة لدرجة رهيبة.

- لا يبدو عليك الانزعاج.

- خائف لدرجة التجمد، لكن الأمور تجري عادة على نحو أفضل

مما يتوقع لها. إنهم عادة لا يهاجمون أكثر من ثلاثة مواقع مر

الليلة الواحدة. لقد زادت فرص النجاة لنا.

- ما هذا؟

كان صوت سيارة ثقيلة آتية على الطريق في اتجاه سايجون و١٠

إن قصدت إلى الفتحة لألقي نظرة على الطريق حتى رأيت دبابة تم

بجوارنا.

قلت:

- دورية الحراسة.

كان مدفع الدبابة يتحرك في برجه حينًا إلى هذا الجانب وحينًا

إلى ذاك. وأردت أن أنادي عليهم، لكن ما الفائدة؟ فليس لديهم على

ظهر الدبابة مكان لاثنين من المدنيين لا جدوى منهما. واهتزت

الأرض قليلًا أثناء مرورهم ثم ابتعدوا ونظرت إلى ساعتى، كانت

تشير إلى الثامنة وإحدى وخمسين دقيقة. وانتظرت، وأنا أبذل جهدًا

مضنيًا لأقرأ أرقام الساعة مع ومضة الضوء. كنت كمن يُقدر المسافة

على أساس الفارق الزمني بين ضوء البرق وصوت الرعد. مضت

أربع دقائق على نحو التقريب قبل أن يفتح المدفع نيرانه، وخُيل

«أه على الفور أنني تبينت ردًا من مدفع «بازوكا» ثم ساد السكون
الام مرة أخرى.

قال «بايل»:

- عندما يعودون ثانية سنلوح لهم ليصبحونا معهم إلى المعسكر.
ودوى صوت انفجار اهتزت منه الأرضية.
قلت:

- إذا عادوا، يبدو أن هذا صوت لغم.
وحين نظرت إلى ساعتني ثانية كانت قد تجاوزت التاسعة والرابع.
لم تعد الدبابة. وتوقف إطلاق النار.
وجلست إلى جانب «بايل»، ومددت ساقني.
قلت:

- خير لنا أن نحاول النوم، فليس ثمة ما نستطيع أن نفعله خير
من ذلك.
قال «بايل»:

- لست راضيًا عن حال هذين الحارسين.
- إنهما بخير ما دام «الفيتنه» بعيدين عنهم. ضع رشاش «الستين»
تحت ساقيك للأمان.

وأغمضت عيني، وحاولت أن أتخيل نفسي في مكان غير هذا
المكان، تخيلت نفسي جالسًا داخل مقصورة من مقصورات الدرجة
الرابعة بقطار ألماني مسافر قبل أن يستولي «هتلر» على زمام السلطة.
أبام أن كنت حدثًا أسهر الليل خالي البال وأحلام اليقظة مفعمة بالأمل
ولا تعرف الخوف. كانت تلك الساعة التي تجلس فيها «فونج» معي

تعد لي غليون المساء. وتساءلت ترى أنتتظرنى رسالة الآن؟ أرجو أن يكون ذلك صحيحًا، فأنا أعرف ماذا يمكن أن تحتويه الرسالة. وماذا لم يصلني شيء بعد فإنني أستطيع أن أحلم بالمستحيل في أحلام يقظ. سألني «بابل»:

- هل أنت نائم؟

- لا.

- ألا ترى من الأفضل أن نرفع السلم؟

- بدأت أفهم لماذا لا يعلن ذلك، فهو المهرب الوحيد.

- أرجو أن تعود تلك الدبابة.

- لن تعود.

لم أحاول أن أنظر إلى ساعتى إلا على فترات متباعدة. بيد أنها لم تكن فترات طويلة كما يخيل إليّ: الساعة التاسعة وأربعون دقيقة، العاشرة وخمس دقائق. العاشرة واثنى عشرة دقيقة. العاشرة وإحدى وثلاثون دقيقة، العاشرة وإحدى وأربعون دقيقة.

سألت «بابل»:

- هل أنت يقظان؟

- نعم.

- فيم تفكر؟

وتردد ثم قال:

- «فونج».

- نعم؟

- كنت أتساءل تَوَّأ ترى ماذا تعمل؟

استطيع أن أثبتك بهذا. لا بد أنها قطعت بأنني سأقضي ليلتي في نانين، فليست هذه أول مرة. وهي الآن مستلقية على فراشها، وقد أمسكت عود بخور يحترق تطرد به الناموس، وتتصفح صورًا في عدد قديم من مجلة «باري ماتش». إنها مثل الفرنسيين شغوفة بحياة العائلة المالكة.
قال بلهفة:

- كم هو رائع أن يعرف المرء ماذا تفعل بالضبط.
وتخيلت عيني كلبه النديتين في الظلام. ما كان أحراهم أن يسموه «دو» بدلًا من «آلدن».

- في الحقيقة أنا لا أعرف، وربما كان هذا صحيحًا وليس من الخير أن تكون غيورًا، ما دمت لا تستطيع أن تفعل شيئًا في هذا الصدد.

- إنني أكره أحيانًا طريقة حديثك يا «توماس»، هل تعرف كيف تبدو لعيني؟ تبدو غضة كأنها زهرة.
- يا للزهرة التعسة. يحيط بها كثير من العشب.
- أين التقيت بها؟

- كانت ترقص في ملهى «الجران موند».
- ترقص؟

قالها مشدوها، كأنما أكمته هذه الفكرة.
- إنها حرفة محترمة تمامًا، لا تنزعج.

- أنت تتمتع بقدر كبير من الخبرة يا «توماس».
- بل بقدر كبير من السنين. عندما تكون في سني.

- لم تكن لي فتاة في حياتي، بمعنى الكلمة. ليس لي ما يمكن أن تسميه خبرة حقيقية.
- قدر كبير من طاقة شعبكم يُستنفد على هيئة صغير.
- أنا لم أفض بهذا لإنسان آخر.
- أنت شاب وليس في هذا ما يخجلك.
- هل كان في حياتك عدد كبير من النساء يا «فاولر»؟
- لست أدري ماذا يعني «عدد كبير». إن ما لا يزيد عن أربع من النساء كان لهن بعض الأهمية في حياتي، أو كان لي بعض الأهمية في حياتهن. أما الأخريات فإنهن يزدن قليلاً من الأربعين، وإني لأعجب لماذا يقدم المرء على هذا. فمفهوم الصحة والتزامات الفرد الاجتماعية كلاهما خاطئان.
- هل تعتقد أنهما خاطئان بالفعل؟
- أتمنى لو تعود هذه الليالي ثانية. لا زلت عاشقاً يا «بايل»، إنني قيمة معطلة. آه، وكانت هناك الكبرياء أيضاً. إننا نحتاج إلى وقت طويل قبل أن يزيلنا شعور الكبرياء. هذا على الرغم من أن الله يعرف لماذا ينبغي أن نحس بهذا الشعور. عندما نسرح الطرف من حولنا بحثاً عن هم مرغوب فيهم أيضاً.
- هل تظن أن ثمة خطأ من جانبي يا «توماس»؟
- لا يا «بايل».
- هذا لا يعني أنني لا أحتاج إلى ذلك يا «توماس». مثل أي إنسان آخر، فلست شاذاً.
- ليس منا من لا يحتاج ذلك بنفس القدر الذي نتحدث به. إن

قدراً كبيراً من التنويم الذاتي يحيط بنا. وأعلم يقيناً أنني لست بحاجة إلى أحد خلا «فونج». بيد أن هذا شيء يتعلمه المرء مع الزمن. كنت أستطيع أن أقضي عامًا بأكمله لا يغمض لي فيه جفن لو لم تكن إلى جانبي. ولكنّها إلى جانبك فعلاً.

قالها بصوت خفيض لا أكاد أسمعه. - إن المرء يبدأ مختلطاً، ثم ينتهي كجده مخلصاً لامرأة واحدة. - أحسبها سذاجة كبيرة أن تتكلم بهذه الطريقة... - لا.

- هذا ليس متضمناً في تقرير «كينزي»^(١). - ولهذا السبب لا يعد الأمر من السذاجة في شيء. - تعرف يا «توماس» إنه لجميل جداً أن أكون هنا أتحدث إليك على هذه الصورة... يُخيل إليّ بشكل ما أن ليس ثمة خطر جديد.

- اعتدنا أن نحس بذلك ساعة الهجوم أثناء المعركة. بيد أنهم كانوا يعودون دائماً.

- لو سألك سائل عن أوقع خبراتك الجنسية. فبماذا تجيب؟ كنت أعرف الإجابة عن ذلك: «أستلقي على سرير في ساعة مبكرة من الصباح متطلعاً إلى امرأة مرتدية قميص نومها الأحمر وهي تمشط شعرها».

(١) كتابان شهيران صدرتا في الخمسينيات عن السلوك الجنسي عند البشر، من تأليف «ألفريد كينزي» وآخرين. (الناشر).

- قال لي «جو» إن أوقع هذه الخبرات هي أن يجمعه فراش ..
 صينية وزنجية في وقت واحد.
 - كان هذا رأيي أيضًا عندما كنت في العشرين.
 - «جو» في الخمسين.
 - إنني لأتساءل كم قدروا سنه العقلية في هذه الحرب.
 - ترى هل كانت «فونج» هي الفتاة ذات الرداء الأحمر؟
 وددت لو أنه لم يسأل هذا السؤال.
 - لا، كانت امرأة قبلها. بعد أن تركت زوجتي.
 - ماذا حدث؟
 - تركتها هي أيضًا.
 - لماذا؟
 لماذا حقًا؟
 - إننا نكون حمقى حين نعشق. كنت أفزع من فقدي لها. حسب
 أنني رأيتها تستبدلني بغيري. لست أدري يقينًا أكان الأمر عام.
 هذا التحو بالفعل أم لا. بيد أنني لم أعد أحتمل مزيدًا من الشك.
 واستعجلت النهاية ركضًا. تمامًا مثل جيان يعدو صوب عدو.
 ويحوز ميدالية، أردت أن أقهر الموت.
 - الموت؟
 - لقد كانت نوعًا من الموت. ثم أتيتُ إلى الشرق.
 - وعثرتُ على «فونج»؟
 - نعم.
 - لكن ألا تجد نفس الشيء مع «فونج»؟

ليس تمامًا. الأخرى أحبتني، وكنت أخشى أن أفقد الحب. وأنا الآن أخشى فقط أن أفقد «فونج».

هل جيت من أمري. لماذا قلت ذلك؟ إنه لم يعد بحاجة إلى تشجيع

ولكنها تحبك، أليس كذلك؟

ليس بهذه الصورة فليس من طبيعتهن الحب. ستكتشف أنت ذلك. إن تسميتنا لهن بالأطفال ليست إلا عبارة محفوظة، ولكن ليس فيهن من الطفولة غير شيء واحد؛ إنهن يحبينك في مقابل ما تبديه لهن من عطف وأمان وهدايا، ويكرهنك للطمعة أو للظلم. إنهن لا يعرفن من الحب غير الخطو داخل حجرة وعشق الأجنبي. وبالنسبة للرجل المسن يا «بايل» فإنه شيء آمن للغاية، إذ إنها لن تهجر البيت ما دام البيت تحف به السعادة.

ولم أكن أقصد إيذاء شعوره. وأدركت فقط أنني آذيته عندما

قال:

- ربما تؤثر أمنا أعظم أو عطفًا أكثر.

- ربما.

- ألا تخشى ذلك؟

- ليس بقدر ما كنت أخشاه من الأخرى.

- هل تحبها حقًا؟

- أوه، نعم يا «بايل»، نعم. بيد أنني لم أحب على الطريقة الأخرى

غير مرة واحدة.

وانفجر فيّ قائلًا:

- رغم الأربعين امرأة أو يزيد؟

- إنني على يقين من أن هذا العدد أقل من متوسط «كينزي» تعرف يا «بايل» أن النساء لا يردن رجالًا عذارى. ولست على يقين من أننا معشر الرجال نفعل ذلك، ما لم نكن من نوع مريض.

- لم أقصد أنني لم أعرف المرأة من قبل.

بدالي أن كل محادثاتي مع «بايل» بدأت تأخذ اتجاهات متباينة مضحكة. ترى هل المحادثات عن المألوف بسبب ما يتميز به من إخلاص؟ لقد تجنبت محادثاته مواطن الحرج دائمًا.

- من الممكن يا «بايل» أن تكون لك مائة امرأة ومع ذلك تظل عذريًا. إن أكثر رجالكم المقاتلين الذين أعدموا شقًا لما أقدموا عليه من عمليات اغتصاب إبان الحرب كانوا عذارى. ليس لدينا منهم الكثيرون في أوروبا، وإنني لمسرور لذلك، فإنهم يسببون أضرارًا كثيرة.

- أنا لا أفهمك تمامًا يا «توماس».

- لا يستحق الأمر شرحًا. على أي حال فقد سئمت الموضوع. لقد بلغت من السن حدًا لم يعد فيه الجنس هو المشكلة الأولى مثل الشيخوخة والموت. إنني أستيقظ وهاتان المشكلتان هما اللتان تشغلان ذهني، وليس جسد امرأة. إن كل ما أبتغيه هو ألا أقضي سنيَّ عمري الأخيرة وحيدًا، هذا كل ما يعنيني. فلست أدري كيف تمضي سحابة نهاري. وفي أي شيء أفكر. سأجد نفسي

منتهماً إلى امرأة تملأ حجرتي . حتى وإن كنت لا أعشقها . ولكن ترى لو هجرتني «فونج» ، هل سأجد عندي العزيمة لأبحث عن أخرى ؟

- لو كان هذا كل ما تعنيه بالنسبة لك ...

- أُنقول «كل» يا «بايل» ؟ انتظر إلى أن يتملكك الخوف من أن تحيا عشرة أعوام وحيداً بغير رفيق أو امرأة ترعاك في أيامك الأخيرة . فهنا ستجد نفسك مدفوعاً إلى الهرولة في أي اتجاه ، حتى وإن كنت ستعدو بعيداً عن تلك الفتاة ذات الرداء الأحمر . ستهرول بحثاً عن امرأة ما ، أي امرأة تقضي الحياة معك وإلى جانبك حتى ختامها .

- إذن لماذا لا تعود إلى زوجتك ؟

- ليس يسيراً على المرء أن يحيا مع من جرح شعوره .

وانطلقت زخة طويلة من رشاش «ستين» لا يمكن أن تبعد عنا أكثر من ميل واحد . ربما كان حارس متوتر الأعصاب يطلق النار على ظلال ، وربما تكون بداية لهجوم جديد . تمنيت لو كان هجوماً فإن ذلك يزيد من فرص نجاتنا .

- هل أنت فزع يا «توماس» ؟

- بالطبع ، بكل غرائزي . وإن كنت أرى فعلاً أن من الأفضل لي أن أموت هكذا . فلهذا السبب جئت إلى الشرق ، إن الموت يلازمك .

نظرت إلى ساعتني ، لقد بلغت الحادية عشرة ، بقي لنا من الليل ثمان ساعات ، يمكن لنا بعدها أن نسترخي . قلت :

- لقد تطرقنا في حديثنا إلى كل شيء تقريبًا فيما خلا الله، خير!
أن نرجع هذا الحديث للساعات الأخيرة.

- أنت لا تؤمن به، أليس كذلك؟

- لا.

- إن الأمور تفقد معناها عندي من دونه.

- وهي عندي غير ذات معنى به.

- قرأت ذات مرة كتابًا...

لم أعرف أبدًا ما هو الكتاب الذي طالعه «بايل». (لا أظن أن أحد كتب «يورك هاردنج» أو «شكسبير» أو المختارات من الشع المعاصر أو «فسيولوجيا الزواج». وربما كان «انتصار الحياة») تناهى إلينا صوت داخل البرج مباشرة يتحدث معنا. وبدا لنا أنه صادر إلينا من الظلال المجاورة للباب، كان الصوت منبعثًا من مكبر للصوت يقول شيئًا ما بلغة فيتنامية. وقلت: «وقعنا». وأنصت الحارسان واستدار وجهاهما ناحية الفتحة الخاصة بالبندقية، وفد فغرافاهيهما. قال «بايل»:

- ما هذا؟

كان الانتقال صوب فتحة المراقبة أشبه بالانتقال عبر الصوت نفسه. وألقيت نظرة خاطفة إلى الخارج. لم يقع بصري على شيء بل إنني لم أستطع أن أميز الطريق، وعندما نظرت خلفي داخل البرج ألفت البندقية مشهورة. لم أعرف يقينًا إن كانت مصوبة ناحيتي أو ناحبه فتحتها في الجدار، بيد أنني حينما تحركت حول الجدار تأرجحت البندقية واهتزت في حيرة وظلت مصوبة نحوي. واستطرد الصوت

«نفس الشيء مرة ثانية وقعدت وانخفضت معي البندقية. سألتني
«بابل»:

ماذا يقول؟

لا أعرف. أظن أنهم عثروا على السيارة ويطلبون من هذين
الشابين أن يسلمانا إليهم. الأفضل أن تلتقط هذا «الستين» قبل
أن يتدبرا أمرهما.

- سيطلق النار.

- إنه ليس متأكدًا بعد، عندما يتأكد سيطلق النار على أي حالة.

حرك «بابل» ساقه وارتفعت معه البندقية. قلت:

- سأتحرك بمحاذاة الجدار. وغافلته عندما ترتعش عيناه.

ما إن نهضت حتى توقف الصوت، وقفزت حين أحسست

السكون، وسمعت «بابل» يقول بحسم:

- أخفض بندقيتك.

لم يسمح لي الوقت إلا بأن أتبين ما إذا كان رشاش «الستين» مفرغًا

من عبوته - فلم أعبأ بأن أنظر لأتأكد - عندما ألقى الرجل بندقيته.

حطوت إليها والتقطتها، ثم بدأ الصوت من جديد، وأحسست أنه

نفس الكلام لم يتغير منه أي مقطع. ربما كانوا يستخدمون أسطوانة

مسجلة. وتساءلت متى ينقضي الإنذار النهائي.

وتساءل «بابل»:

- ماذا سيحدث الآن؟

كان أشبه بتلميذ يرقب تجربة داخل معمل، وبدأ كأن الأمر لا يعنيه

شخصيًا.

- ربما «بازوكا»، وربما قوات من «الفيتمه».

وفحص «بايل» الرشاش. قال:

- يبدو أن ليس ثمة سرفيه. هل لي أن أطلق منه زخة؟

- لا، دعهم في ترددهم. ربما يفضلون الاستيلاء على البرج دور.

إطلاق النار وهذا يعطينا فسحة من الوقت. خير لنا أن نغادرها

المكان بأسرع ما يمكن.

- ربما كانوا في انتظارنا تحت.

- أجل.

كان الرجلان يتطلعان إلينا، أكتب «الرجلان»، لكنني أشك أن

مجموع سني عمرهما يصل إلى الأربعين. سألني «بايل»:

- وهذان؟

ثم أردف قائلاً في صرامة مفاجئة:

- هل أطلق عليهما النار؟

ربما كان يريد أن يجرب رشاشه.

- إنهما لم يفعلوا شيئاً.

- كانا سيسلماننا.

- ولم لا؟ فليس لنا عمل هنا، وهذه بلدتهم.

وأفرغت البندقية من طلقاتها ووضعتها على الأرضية. ثم قال:

- يقيناً إنك لن تتركها.

- إنني عجوز لا أقوى على العدو حاملاً البندقية. ثم إن هذه ليست

حربي. بالله عليك.

لم تكن حربي، لكنني كنت أتمنى أن يعرف هؤلاء الآخرون

الذين يطويهم الظلام رأيت هذا أيضًا. ونفخت في المصباح الزيتي
وأطفأته. مددت ساقى فوق الباب أتحنس السلم. وسمعت الحارسين
همسان لبعضهما كأنهما عازفان ينغمان بلغتهما التي تشبه الغناء.
قلت له «بايل»:

- اتخذ طريقًا مستقيمًا. واتجه ناحية حقول الأرز. تذكر أنها
مغمورة بالمياه وإن كنت لا أعرف عمقها، هل أنت مستعد؟
- نعم.

- شكرًا على الصحبة.

- من دواعي سروري دائمًا.

سمعت الحارسين يتحركان خلفنا. وتساءلت إن كانا يحملان
سكينًا. كان مكبر الصوت يتحدث بطريقة قاطعة كأنه يعطي فرصة
أخيرة. وتحرك شيء ما بهدوء تحتنا في الظلام. ولكن ربما كان فأرًا.
ونرددت. وهمست: «أتمنى بحق الله لو كان معي شراب».
- هيا بنا.

كان ثمة شيء يصعد درج السلم. لم أسمع شيئًا، ولكن السلم
اهتز تحت قدمي. وسألني «بايل»:
- ماذا أوقفك؟

لست أدري لماذا تصورت هذا الاقتراب الخفي الصامت كأنه
شيء ما. إن الإنسان هو وحده الذي يستطيع أن يتسلق سلمًا،
ورغم ذلك فلم أكن أتصوره إنسانًا على صورتي، فقد بدا لي حيوانًا
بنوغل في هدوء شديد، وبالقسوة المعهودة لدى الأنواع الأخرى
من المخلوقات. اهتز السلم مرة بعد أخرى. توهمت أنني أرى عينيه

بيكي. جاءني الصوت من ناحية البرج، أو ما كان برجًا. لم يكن يشبه صوت رجل بيكي، كان أشبه بطفل أفرعه الظلام، ولكنه يخشى أن يصرخ. خمنت أنه أحد الصبيين بالضرورة، ربما لقي زميله حنقه وتمنيت ألا يقطع «الفيتنه» رقبته. لا ينبغي لأحد أن يخوض حربي بالأطفال، وتذكرت صورة جثة طفل تكور حول نفسه داخل حفرة. أغمضت عيني، ساعدني هذا على طرد الألم أيضًا، انتظرت. سمعت صوتًا ينادي بما لم أفهمه. وشعرت أنني أستطيع النوم وسط الظلام والوحدة وغياب الألم.

ثم سمعت «بايل» يهمس:

- «توماس». «توماس».

لقد تعلم سريعًا اقتفاء الأثر. فأنا لم أسمعه وهو يعود إليّ، همست - ابتعد.

لقد عثر عليّ واستلقى على الأرض بجانبني.

- لماذا لم تأت؟ هل أصبت؟

- ساقى. أظنها كسرت.

- رصاصة؟

- لا، لا. كتلة من الخشب، أو الحجر، شيء ما من البرج. إنها لا تنزف.

- حاول أن تقاوم.

- ابتعد يا «بايل» فأنا لا أريد، إنها تؤلمني كثيرًا.

- أي ساقيك؟

- اليسرى.

وزحف إلى جانبي، ورفع ذراعي إلى كتفه. وأردت أن أنتحب
الصبى الذي بداخل البرج، ثم أحسست بالغضب. ولكنه كان
سيرًا على المرء أن يكشف عن غضبه في همسة.

- لعنك الله يا «بابل»، اتركني وحدي، أريد أن أبقى هنا.
- لا تستطيع.

وحاول أن يرفعني ليحمل نصفي على كتفه. كان الألم فوق ما
أطبق.

- لا تكن بطلًا لعينًا، إنني لا أريد أن أذهب.

- لا بد من معاونتك وإلا قبض علينا.

- أنت...

- اسكت وإلا سمعونا.

كنت أصرخ حنقًا، ولم أستطع أن أجد كلمة أعنف من هذه.
ونحاملت عليه لأقف. وتركت ساقي اليسرى مدلاة، كنا أشبه
بأحمقين يتباريان في سباق عذو بثلاثة أرجل. كنا على وشك أن
نعدل عن غرضنا لولا أنه في اللحظة التي بدأنا فيها المسير بدأ رشاش
«برن» يطلق قذائف سريعة في مكان ما من الطريق صوب البرج
الثاني. ربما كانت إحدى دوريات الحراسة تقوم بعملية اقتحام. أو
ربما كانوا ينجزون هدفهم بتدمير ثلاثة أبراج. وقد غطى هذا الدوي
العالي على الضوضاء التي انبعثت منا أثناء هروبنا البطيء الأرض.
لست موقنًا من أنني كنت متمالكًا وعمي طوال الوقت. وأحسب
أنني ألقيت بكل ثقلي - تقريبًا - على «بابل» مسافة العشرين ياردة
الآخيرة. قال «بابل»:

تحملقان إلى أعلى، وفجأة أحسست أنني لم أعد أحتمل الموقف. أكثر من ذلك وقفت. لم يكن ثمة شيء على الإطلاق سوى الأرض الرخوة التي أمسكت بكعبي ولوته كما تلويه أي يد. وسمعت «بابل» نازلًا درج السلم. وأيقنت أنني كنت أحمق هلوعًا عجز عن أن يتبين حقيقة ارتجافه، وقد كنت أو من بأنني إنسان قوي الشكيمة لا تسب علىه الأوهام وغير ذلك من صفات يتحلى بها المراسل والمراف الصادق. وقفت على قدمي ثم أوشكت على التهاوي ثانية من الألم بدأت المسير ناحية الحقل أجرُّ إحدى قدميِّ ورائي وأسمع خطم «بابل» يسير خلفي. ثم انطلقت قذيفة من مدفع «بازوكا» صوّج البرج وألقيت نفسي منكفئًا على وجهي ثانية.

(٤)

قال «بابل»:

- هل أصبت؟

- شيء ما خبط ساقي. ليس ثمة خطورة.

استحثني «بابل» قائلاً:

- هيا نواصل المسير.

كنت أتبينه بصعوبة، فقد كان يبدو وكأنما يغطيه غبار أبيض ناعم ثم اختفى وكأنه لم يكن سوى صورة على الشاشة وقد أطفئت فجاء مصابيح آلة العرض، لم يكن هناك سوى الصوت. اعتدلت في حذر.

١٨٥
 ١. بهد متوكتًا على ركبتى السليمة. وحاولت أن أنهض دون أن أتحمّل
 على كعبي المصاب، ثم تهاويت ثانية وقد تقطعت أنفاسي من الألم،
 لم يكن كعبي، فقد حدث شيء ما لساقى اليسرى. لم أنزعج فقد ذهب
 الألم بالقلق. ووقدت جامدًا على الأرض أملًا في ألا يعاودني الألم
 ثانية. وكتمت أنفاسي كما يفعل من يعاني من ألم بالأسنان. ولم أفكر
 في قوات «الفيتمة» التي ستأتي من فورها للتغيب في أنقاض البرج.
 انفجرت قذيفة ثانية على البرج. إنهم يريدون الاطمئنان الكامل قبل
 أن يتقدموا. وفكرت بينما يزايلني الألم: يا لها من مبالغ باهظة تلك
 التي تنكفها لقتل حفنة قليلة من الآدميين. بوسعك أن تقتل الخيول
 من أرخص من ذلك بكثير. لم أكن متمالكًا لكامل وعيي فقد شرد
 مكيري، وتخيلت أنني ضللت طريقي داخل مذبح للخيول الطاعنة.
 فإن هذا هو مصدر فزعي أثناء طفولتي في المدينة الصغيرة التي وُلدت
 بها. فقد كان يترأى لنا دائمًا أننا نسمع الخيول تصهل فزعًا والصوت
 الهائج لقاتلها الذي لا يعرف معنى الألم.

مضى بعض الوقت قبل أن يعاودني الألم، كنت راقدًا بلا حراك،
 وكظمت أنفاسي متوهمةً أن لذلك جدواه. وتساءلت وأنا متنبه لما
 أفكر فيه إذا كان من الأفضل أن أزحف ناحية الحقول، إذ قد لا تجد
 قوات «الفيتمة» متسعًا من الوقت للبحث في كل مكان بعيد. ومن
 المحتمل أن تخرج الآن دورية حراسة أخرى تحاول أن تلحق برجال
 الدبابة الأولى. بيد أنني كنت أخشى الألم أكثر من خشيتي دوريات
 الجنود، فرقدت جامدًا. ولم يكن ثمة صوت في أي مكان ينم عن
 وجود «بابل». لا بد أنه وصل إلى منطقة الحقول. ثم سمعت شخصًا

- كن حذرًا هنا، إننا ستوغل إلى الداخل.

سمعنا حفيف الأرز الجاف من حولنا والظمي يغوص ويعلو.
توقف «بابل» عن المسير عندما وصل ارتفاع الماء إلى خصرنا
كان يلهث وقد عاق شيء ما تنفسه حتى خرج منه صوت يشبه صوت
ذكر الضفدع. قلت:

- إنني آسف.

- ما كان لي أن أتركك.

كان أول ما أحسست به أن الألم قد زایلني، فقد أمسك الماء،
والظمي بساقي في رقة وثبات كأنهما ضمادة. ولكن سرعان ما بدأت
أسناننا تصطك من البرد. فكرت إن كنا قد تجاوزنا منتصف الليل
فقد نضطر إلى أن نقضي ست ساعات على هذا الوضع إذا لم يهتد.
إلينا جنود «الفيتمة». قال «بابل»:

- هل لك أن تخفف من حملك قليلاً، للحظة واحدة فقط؟

عاودني هياجي السخيف، ولم يكن ثمة مبرر لي غير الألم. إنني
لم أسأله نجدتني أو أن يرجئ موتي بهذه الطريقة المريعة. تذكرت
بنوع من الحنين المرضي فراشي على الأرض القاسية الجافة. وقفت
كما يقف طائر الكركي على ساق واحدة أحاول أن أعفي «بابل» من
ثقلتي. وعندما تحركت اهتزت أعواد الأرز وتكسرت وطفقت. قلت
- أنقذت حياتي هناك لكي أموت هنا، كنت أوتر أرضاً جافة.

وتنحى «بابل» ليجيب إجابته المعهودة. قال وكأنه يخاطب إنساناً
معتلاً:

- من الخير أن تكف عن الحديث فعلياً أن ندخر قوانا.

- من بحق الشيطان سألك أن تنقذ حياتي؟ لقد أتيت إلى الشرق
لألقى مصرعي. إن هذا يشبه سفاهتك الملعونة.
وترنحت وسط الطمي، ورفع «بابل» ذراعي حول كتفه. قال:
- حاول أن تريجها.
- لقد شاهدت أفلامًا عن الحرب، نحن لسنا اثنين من البحارة
المحاربين ولن نحصل على ميدالية حربية.
- هس.

تناهى إلى سمعنا وقع أقدام تخطو ناحية حافة الحقل. وتوقف
شاش «برن» عن إطلاق نيرانه عند الطريق. ولم يقطع السكون غير
رفع الأقدام وحفيف الأرز الواهن ونحن نتنفس. ثم توقفت الأقدام
من الخطو. كانت تبعد عنا بمسافة قصيرة جدًا. وأحسست بيد «بابل»
نضغط على جانبي السليم في بطن وتدفعني إلى أسفل. وغصنا معًا
وسط الطمي وتلاصقنا حتى نخفف من اضطراب عيدان الأرز إلى
أقل قدر ممكن. وارتكزت على ركبة واحدة أحاول جاهدًا أن أشد
رأسي إلى الخلف، ولم يبق غير فمي يطل خارج الماء. وعادو الألم
ساقى. وفكرت: «سأغرق لو أغمي عليّ هنا». كنت دائمًا أكره الفرق
وأخشى التفكير فيه. لماذا لا يستطيع المرء أن يختار لنفسه ميتة معينة؟
والآن سكنت كل الأصوات، ربما كانوا يقفون على بعد عشرين قدمًا
في انتظار سماع حفيف الأرز أو صوت سعال أو عطاس. فكرت:
«أه يا إلهي هأنذا على وشك أن أعطس». لو أنه تركني وحدي لكنت
مسؤولًا عن حياتي وحدي من دون حياته، وهو يريد الحياة. وضغطت
بأصابع يدي الطليقة على شفتي العليا حسب الحيلة التي تعلمناها

أيام الطفولة ونحن نلعب «الاستغماية» لأسكت العطاس، ولما
ظل يلح عليّ يريد أن ينفجر، وها هم الآخرون ينتظرون في صـ
وسط الظلام لسماع صوت عطاس. ها هو ذا يراودني وعلى وشك
الانطلاق، على وشك الانطلاق، انطلق...

ولكن في نفس الثانية التي انطلق فيها صوت العطاس فتح جـ،
«الفيتمة» رشاشاتهم «الستين» ورسموا بها خطأً من النيران و...
الأرز. ابتلعت الطلقات صوت العطاس بدويها الحاد وهي تنـ
المكان كأنها مثقاب يثقب لوحًا من الصلب. وأخذت نفسـ،
غصت في الماء، هكذا وبطريقة غريزية يتجنب المرء ما يعشهـ،
يتدلل على الموت كامرأة تريد من عشيقها أن ينالها اغتصابًا. مالـ
عيدان الأرز بقوة فوق رؤوسنا ومرت العاصفة. رفعنا قامتين في نفـ،
اللحظة تنسم الهواء وسمعنا وقع الأقدام تخطو بعيدًا ناحية البرم
قال «بابل»:

- لقد حققنا ما نريد.

بيد أنني رغم ما كنت أعانيه من ألم تساءلت ترى ما الذي حققنا؟
أما عن نفسي فليس لي غير الشيخوخة، ومنصب محرر، والوحـ،
أما عنه هو فلأنني أعرف الآن أن كلامه كان سابقًا لأوانه. ها نحنـ،
استقر بنا المقام وسط هذا البرد القارس ننتظر ما يجد. وعلى حـ،
الطريق المؤدي إلى تانين ألفيت نازًا عالية قد دبّت فيها الحياة دهـ،
واحدة، كانت تضطرم في بهجة كأنها تحتفي بشيء.

قلت:

- إنها سيارتي.

قال «بايل»:

- إنه عمل مخجل يا «توماس». أكره أن أرى شيئاً يضع هباء.
- لا بد أنه كان في الخزان قدر كافٍ من الوقود ليشعل مثل هذه النار. هل أنت مقرور مثلي يا «بايل»؟
- إلى أقصى درجة.

- ماذا لو خرجنا واستلقينا على قارعة الطريق؟
- دعنا ننتظر نصف ساعة أخرى.
- إن ثقلي كله عليك.

- أقدر على الاحتمال، فأنا شاب.
قال عبارته هذه على سبيل المزاح ولكنها لسعتني ببرودة كبرودة طمحي. كنت قد عزمت على أن أعتذر عن الطريقة التي أفصح بها «مي» عن نفسه، ولكن ها هو يفصح عن نفسه مرة أخرى.
- أنت شاب بكل معنى الكلمة، وتستطيع أن تحتل الانتظار.
أليس كذلك؟

- أنا لا أفهمك يا «توماس».
كنا قد أمضينا ما يقرب من سبع ليالٍ معاً، ولكنه لا يزال لا يفهم مني أكثر مما يفهمه عن اللغة الفرنسية. قلت:
- أحسنت صنعاً أن حافظت على حياتي.
- ما كنت لأستطيع أن أواجه «فونج».
طرح الاسم كأنه عطاء يقدمه صاحب بنك. وتلقفته.
- إذن فقد كان هذا من أجلها؟
بدت غيرتي أكثر مدعاة للسخرية والمهانة. وذلك لأنني أفصحت

عنها بهمسات خافتة للغاية فقدت قوتها التعبيرية. والغيرة أشبه بالأداء المسرحي.

- هل تعتقد أنك ستأسرها بأعمالك البطولية هذه؟ ما أعظم خطأك لو قدر لي أن ألقى مصرعي لكان بوسعك أن تفوز بها.
- لم أقصد ذلك. إن كل ما أعنيه أن العاشق يطمع دائماً أن يتصرف بشرف.

فكرت أن هذا صحيح، لكن ليس بهذه البراءة التي يعنيها. فالعاشق يريد أن يرى نفسه على نفس الصورة التي يراه بها شخص آخر، فيكون عاشقاً للصورة زائفة ومفخمة عن نفسه. إننا في الحب نقصر عن بلوغ المجد، والعمل المقدم لا يعدو أن يكون دوراً تؤديه أمام اثنين هما كل المتفرجين. ربما لم أعد محباً لكني لا زلت أتذكر.

قلت:

- لو كنت أنت الذي في مكاني لتركتك.

- لا ما كنت لتفعل هذا يا «توماس».

ثم أردف قائلاً باعتداد لا يُحتمل:

- أنا أعرفك خيراً من معرفتك بنفسك.

وحاولت في غضب أن أبتعد عنه وأحمل عنه ثقلي، بيد أن الألم عاودني وهو يهدر كقطار شق طريقه في نفق ما فتحاملت عليه بكل ثقلي أكثر من ذي قبل، قبل أن أغوص في الماء. وأحاطني بذراعيه وانتشلي. ثم بدأ يسير بي بوصة بعد بوصة ليصل إلى السد الترابي للحقل ثم إلى قارعة الطريق. ما إن حملني إلى هناك حتى أنزلني ممدداً في الطمي الضحل. وعندما انحسر عني الألم، وفتحت عيني،

اطلقت أنفاسي، لم تطالعني سوى الشيفرة الدقيقة لمجموعات
الحوم، شيفرة أجنبية استحال عليّ قراءتها، فلم تكن تلك النجوم
أبى ألفتها في وطني. وكان وجهه يحوم فوقى ويطمس معالمها.
- سأخرج إلى الطريق يا «توماس» لأبحث عن إحدى دوريات
الحراسة.

- لا تكن أبله، سيطلقون عليك النار قبل أن يعرفوا من أنت. هذا
إذا لم تقع في أيدي قوات «الفيتمه».
- هذه هي الفرصة الوحيدة، إنك لا تستطيع أن ترقد في الماء
ست ساعات.

- إذن ضعني على الطريق.

ثم سألني في ريبة:

- ألا يفيدك أن أترك لك رشاش «الستين»؟

- لا بكل تأكيد، إذا عزمت على أن تكون بطلاً فليس أمامك على
الأقل إلا أن تمشي الهوينى خلال الأرز.
- ستمر بي الدورية قبل أن أتمكن من التلويع لها.
- إنك لا تتكلم الفرنسية.

- سأصرخ قائلاً بالفرنسية: «أنا فرنسي». لا تنزعج يا «توماس».
سأكون حذرًا للغاية.

وقبل أن أتمكن من الرد كان قد تجاوز المدى الذي تصله
همساتي. كان يتحرك بهدوء حسبما تعلم وعلى فترات متقطعة.
استطعت أن أراه على ضوء العربة المشتعلة. ولكن لم تنطلق طلقة
واحدة. وسرعان ما تجاوز المنطقة التي تضئها ألسنة اللهب وعلى

الفور ابتلع السكون صوت وقع الأقدام. آه. فقد كان حريصًا مثله
كان وهو يجدف بقاربه إلى فات ديم، إنه حرص بطل من أبطال
قصص المغامرات التي يقرأها الصبية، وهو فخور بحرصه كأه
كشاف لا يعي ما في مغامرته من سخف وعدم جدوى.

أنصتُ وأنا مستلقٍ إلى الطلقات التي لا أدري إن كانت من قوا
«الفيتمة» أو لإحدى دوريات الحرس. ولم يأت أحد، وربما تنقصر
ساعة أو ما يزيد قبل أن يصل إلى أحد الأبراج إذا ما قدر له أن يصل.
وأدرت رأسي حتى أرى ما تبقى من برجنا؛ كوم من الطين والبلاء،
والعوارض، بدت لي وكأنها تهبط تدريجيًا مع هبوط السنة لله
المنبثقة من السيارة. عاودني الاطمئنان بعد أن زایلني الوجد، ذا
أشبه بنوع من الهدنة لأعصابي. أحسست برغبة في الغناء. وأحسست
بمدى الغرابة في أن رجالًا يعملون في مهنتي لا يخرجون من ذا
هذا الليل إلا بعمودين من الأنباء. إنها لا تعدو أن تكون ليلة
الليالي المألوفة وأنا الشيء الغريب فيها. ثم تناهى إلى سمع
بكاء واهن يثن من جديد من بين ما تبقى من البرج. لا بد أن أم
الحارسين ما زال على قيد الحياة. فكرت: «يا للشيطان البائس، أه
لم نتوقف عند موقف حراسته ربما كان قد سلّم نفسه أو ربما لا،
بالفرار مع أول نداء يصدر إليه من مكبر الصوت. ولكننا كنا هناك،
رجلان أبيضان ورشاش «الستين» في أيدينا فلم يجسرا على الحر،
وعندما تركناهما كان الوقت متأخرًا جدًا». كنت أنا المسؤول،
هذا الصوت الذي يثن في عتمة الليل. كنت أفخر بتمايزي عن
ما عداي، وبأن لا علاقة تربطني بهذه الحرب، إلا إن تلك الجرح

لما نكثت بسبيي كما لو أنني استخدمت رشاش «الستين» وهو ما
أد «بابل» أن يقدم عليه.

جاهدت لأرتقي السد الترابي عند حافة الطريق. وددت لو ألحق
فقد كان ذلك التصرف الوحيد الذي أستطيعه لأشاركه آلامه.
«إنا إن ألمي الذاتي شدني إلى الوراء. لم أعد أسمعه. رقدت جامدًا
حراك، ولم أسمع شيئًا سوى ألمي يدق كأنه قلب مروع، وكظمت
أعاسي، ودعوت الرب الذي لا أؤمن به: «دعني أمت أو يغمر عليَّ.
مي أمت أو يغمر عليَّ». وأحسب أنني ذهبت في غيبوبة ساعته.
أعد أعني شيئًا ما إلى أن رأيت فيما يرى النائم أن جفوني قد
ممدت والتصقت ببعضها، وأن شخصًا ما يحاول أن يولج بينهما
إميلًا يفصلهما عن بعضهما. وأردت أن أحذره من أن يصيب إنسان
«من تحتها بضرر. ولكنني عجزت عن الكلام، وأحسست بوخزة
الإزميل وهو يفصل بينهما، وإذا بشعلة تضيء أمام وجهي.
قال «بابل»:

لقد نجحنا يا «توماس».

هذا هو ما تعيه ذاكرتي. وإن كنت لا أذكر ما الذي حدث به «بابل»
الأخرين فيما بعد؛ لوحت بيدي في الاتجاه الخاطئ وقلت لهم إن
ثمة رجلًا في البرج عليهم أن يروه. على أي حال فقد عجزت عن أن
أبدي ما أبداه «بابل» من زعم انساق فيه وراء عاطفته. أنا أعرف نفسي
أعرف عمق أنانيتي. إنني لا يمكنني أن أستريح (ورغبتني الأساسية
هي أن أستريح) إذا ما كان ثمة شخص آخر يعاني ألمًا، سواء أكان
ألمًا مريئًا أم مسموعًا أم ملموسًا. هذا ما قد يخطئه الساذج أحيانًا

فيدعوه إيثارًا. بينما كل ما أفعله أنا هو أن أضحي بخير قليل،
في هذه الحالة أن أرجئ العناية بإصابتي، ابتغاء خير أسمى بك
أن أنعم بهدوء الخاطر إذا ما شئت أن أفكر في نفسي.
عادوا إليّ يخبرونني أن الصبي قد لقي حتفه، وكنت مغتبطًا
كنت لأعاني مزيدًا من الألم بعد حقنة المورفين التي عضت سا

الفصل الثالث

(١)

سعدت الدرج على مهل قاصداً شقتي في شارع كاتينات، متوقفاً
الاستريح عند كل منبسط أصادفه. كانت النسوة العجائز يثرثن كما
اعندن وقد جلسن القرفصاء على الأرض خارج دورة المياه الخاصة
البول، ارتسمت على وجوههن خطوط مصائرهن كما ترتسم مثيلاتها
في كفوف الآخرين. كان الصمت يلفني أثناء مروري بهن. وتساءلت لو
أنني أعرف لغتهن ماذا كن سيحكين لي عما دار من أحداث في غضون
مفامي في المستشفى العسكري، هناك عند الطريق المؤدي إلى تانين.
لقد فقدت مفاتيحي في مكان ما داخل البرج أو في الحقول. بيد
أنني بعثت رسالة إلى «فونج»، ولا بد أنها تلقتها لو كانت لا تزال
هناك. كلمة «لو» هي معيار عدم اليقين عندي. لم يصلني أي أخبار
عنها عندما كنت في المستشفى، لكنها تكتب الفرنسية بصعوبة وأنا
لا أستطيع أن أقرأ الفيتنامية.

طرقت الباب وفتحت لي على الفور. وبدالي كل شيء كما كان.
وتفحصتها عن كذب بينما كانت تسألني عن حالي. ولمست سافر
التي ضمدت بجبيرة. ودنت ناحيتي بكتفها لأتوكأ عليها كما لو
يمكن للمرء أن يتوكأ في سلام على مثل هذه البنية الغضة.
قلت:

- إنني سعيد بعودتي إلى البيت.

قالت إنها افتقدتني، وذلك ما كنت أود أن أسمعه منها. كان
دائمًا تقول لي ما يروق لي سماعه مثلما يجيب أحد «الفعلة» عام
أسئلة تُلقى عليه باستثناء حالات قليلة. والآن أنا أنتظر إحدى
الحالات. سألتها:

- كيف استمتعت بوقتك؟

- أوه، زرت أختي مرارًا. لقد حصلت على وظيفة مع الأمريكياء.

- حصلت بالفعل؟ هل ساعدها «بابل» في ذلك؟

- ليس «بابل» الذي ساعدها وإنما «جو».

- من هو «جو»؟

- إنك تعرفه، الملحق الاقتصادي.

- أوه «جو»، أعرفه بالتأكيد.

كان واحدًا من أولئك الذين ينسأهم المرء دائمًا، ولا زلت -
يومنا هذا أعجز عن وصفه، فيما عدا سمته ووجتيه اللتين
بحلاقتهما حلاقة أنيقة وضحكته العريضة. كان يغيب عني كل
يتعلق بشخصيته فيما خلا أن اسمه «جو». ثمة رجال تظل أسماءهم
دائمًا مختزلة.

عاونتي «فونج» كي أتمدّد على السرير. سألتها:

- هل شاهدتِ أي أفلام؟

- ثمة فيلم مضحك للغاية تعرضه سينما «كاتينات».

وشرعت على الفور تقص عليّ موضوع الفيلم بكل تفصيلاته بينما

١- أبحث بعيني داخل الحجرة عن مظروف أبيض قد يكون برقية.

٢- ادمت لم أسألها فإنني أميل إلى الاعتقاد بأنها نسيت أن تخبرني به،

٣- بما يكون موضوعًا هناك على المائدة بجانب الآلة الكاتبة أو فوق

٤- انة الملابس، وربما اتخذت له مكانًا آمنًا داخل درج الدولاب

٥- تحتفظ بمجموعة إشارات.

- إنه مأمور البريد - أظن أنه كان مأمور البريد - ولكن ربما كان

العمدة تبعهم حتى البيت، واستعار سلمًا من الخباز، وتسلق

داخل نافذة «كورين». ولكنها كما ترى كانت قد دخلت الغرفة

المجاورة مع «فرانسوا». إلا إنه لم يسمع مدام «بومبيير» أثناء

قدومها. ودخلت ورأته عند أعلى السلم. وظنت...

- من هي مدام «بومبيير»؟

سألتها وأنا أدير رأسي لألقي نظرة على حوض الغسيل، حيث

لانت تضع أحيانًا وريقات وسط السوائل المطهرة، لتذكرها بما تريد.

- لقد قلت لك، هي أم «كورتين»، وكانت تبحث عن زوج لأنها

أرملة...

جلست على السرير، ومدت يدها داخل قميصي.

وتابعت:

- كان فيلمًا مضحكًا للغاية.

- قبليني يا «فونج».

لم تكن لتتدلل أبدًا، ففعلت على الفور ما طلبته منها. ثم استسلمت في روايتها لقصة الفيلم. ولو سألتها أن تمارس الحب للبت لما ر مباشرة على هذا النحو، إذ سرعان ما تتجرد من سروالها من دون تردد. ثم تمسك بعد ذلك بخيط الحديث عن قصة مدام «بومبي» والمآزق التي وقع فيها مأمور البريد.

- هل وصلتي برقية؟

- أجل.

- ولماذا لم تعطيها لي؟

- لا زالت أمامك فسحة طويلة من الوقت حتى تعود للعمل، به

أن تستلقي وتستريح.

- قد لا تكون خاصة بالعمل.

أعطيتي البرقية ولا حظت أنها فُتحت، كُتب فيها: «مطلوب أربعة».

كلمة عن أثر رحيل «دولاتر» على الموقف السياسي والعسكري، وقلت:

- أجل. إنه عمل. كيف عرفت؟ لماذا فتحتها؟

- ظننت أنها من زوجتك، وتمنيت أن أجد بها أخبارًا سارة.

- من ترجم لك؟

- أخذتها إلى أختي.

- لو كانت أخبارًا سيئة هل كنت ستركيني يا «فونج»؟

ودلكت بيدها على صدري لتطمئنني من دون أن تتحقق من أن

ما أبتغيه الآن هو بضع كلمات حتى وإن كانت غير صادقة.

هل لك في غليون؟ ثمة خطاب لك. أحسب أنه منها.

هل فتحته؟

أنا لا أفتح خطاباتك. التلغرافات متاحة للجميع. يقرأها
الكتبة.

إن هذا المظروف موضوعاً مع إشاراتٍها. أخرجته برقعة ووضعت
على السرير. تعرفت على الخط. «لو كان ما به أخباراً سيئة ماذا
...؟» كنت على يقين من أنها لن تكون شيئاً آخر سوى أخبار
البرقية قد تعني نوبة سحاء مفاجئة. أما الرسالة فقد لا تعني
شيء. التوضيح والتبرير، وهكذا قطعت سؤالي، إذ ليس من الأمانة
أطلب وعداً ليس بمقدوري أن أفي به.

سألتني «فونج»:

- مم تخشى؟

كنت أفكر في أنني أخشى الوحدة ونادي الصحافة والحجرة التي
استخدمها للنوم والاستقبال، وأخشى «بايل».

قلت لها:

- أعدي لي براندي بالصودا.

وألقيت نظرة إلى استهلال الخطاب: «عزيزي «توماس»، وختامه:

«هيلين» المحبة لك». وانتظرت البراندي.

- هل هو من عندها؟

- أجل.

وقبل أن أطالعه بدأت أتساءل ما إذا كنت في النهاية سأكذب على

«فونج» أم أصدقها القول.

عزيزي «توماس»،

لم أدهش لخطابك، ولا لمعرفتي بأنك لست وحدك.
فلست بالرجل الذي يظل وحيداً فترة طويلة من الزمن،
ألسن كذلك؟ إنك تلتقط النساء مثلما يلتقط معطفك
الغبار. ربما كنت أستشعر تعاطفاً أكثر مع حالتك لو لم
أحس أنك ستجد العزاء لك ميسوراً للغاية بعد عودتك
إلى لندن. لا أحسبك ستصدقني، ولكن ما دعاني إلى
التريث، ومنعني من أن أبرق لك بكلمة رفض بسيطة،
ليس إلا تفكيري في الفتاة المسكينة. إننا معشر النساء
نعيل إلى التورط أكثر منكم.

شربت جرعة من البراندي. لم أكن مدركاً بوضوح إلى أي مدى تغلغل
الجروح الزوجية ناكثة على مدى السنين. هأنذا بنوع من الاستهانة،
وأنا لا أنتقي ألفاظي بمهارة، أنكأ جراحها لتزف من جديد. ومن ذا
الذي يلومها لأنها تحاول أن تبحث عن جراحها الملتئمة لتدمبها
أيضاً. إننا نؤلم إذا ما ابتأسنا.

سألتني «فونج»:

- أخبار سيئة؟

- قاسية نوعاً. ولكن لها الحق. وواصلت قراءتي:

كنت أومن دائماً أنك تحب «آن» أكثر من سواها من
النساء، إلى أن حزمت أمتعتك ورحلت. وها أنت الآن
على ما يبدو تدبر لتهجر امرأة أخرى لأنني أستشف من
خطابك أنك لا تتوقع حقيقة إجابة «مرضية»، لقد
بذلت كل ما في وسعي، أليس هذا ما تفكر فيه؟ ماذا
أنت فاعل لو أبرقت لك بكلمة «نعم»، هل ستزوجها

حقاً؟ (إنني مضطرة أن أكتب عنها بضمير الغائب، إذ لم تخبرني ما اسمها) ربما ستفعل ذلك. في تقديري، مثل ما هو في تقدير كل بنات جنسي، إنك تكبر في السن، ولا تود أن تحيا وحيداً. وأنا نفسي أحس في بعض الأحيان بأنني وحيدة تماماً. وأستطيع أن أستنتج أن «آن» عثرت على رفيق آخر. بيد أنك تركتها في الوقت المناسب.

ها هي ذي عرفت على نحو محدد، وتنكأ الجرح الذي التأم. شربت لانية. رسالة دامية، كانت هي العبارة التي طافت بخلدني.

قالت «فونج»:

- دعني أعد لك غليوئنا.

- أي شيء، أي شيء.

هذا أحد الأسباب التي تدعوني إلى أن أقول «لا». (دعنا من الحديث عن السبب الديني، ذلك لأنك لم تفهمه أبداً ولم تؤمن به). إن الزواج لا يمنعك من أن تهجر امرأة، أليس كذلك؟ إنه فقط يرجئ العملية. وقد يكون في هذه الحالة على أكثر تقدير عملاً غير نزيه بالنسبة للفتاة إذا ما كنت قد عشت معها فترة من الزمن تعادل الفترة التي عشتها معي. ستعود بها إلى إنجلترا حيث تجد نفسها ضائعة وغريبة. وعندما تهجرها فإلى أي حد ستشعر أنها منبوذة لدرجة رهبة؟ لا أحسبها تستعمل حتى السكين والشوكة، أليس كذلك؟ قد أكون فظة لأنني أفكر في مصلحتها أكثر مما أفكر في مصلحتك أنت. لكنني يا عزيزي «توماس» أهتم حقاً بمصلحتك أيضاً.

أحسست بالمرض قد ألمَّ بجسدي. لقد مضى وقت طويل منذ أن
رسالة تلقيتها من زوجتي. لقد أكرهتها على كتابة هذه الرسالة
وهأنذا أحس بألمها في كل سطر من سطورها، إن آلامها تصعد
بألامي، لقد عدنا إلى عادتنا القديمة، أن يوجع كل منا الآخر. أنا
كان ميسورًا للمرء أن يحب دون إيذاء، الوفاء وحده لا يكفي. أنا
كنت وقيًا لـ«آن»، ومع ذلك فقد آذيتها. وتكمن الإساءة في عدم
التملك. إننا من ضالة الشأن فكريًا وجسديًا بحيث لا نقوى على أن
نتملك إنسانًا آخر دون أن نحس بالكبرياء، أو أن يملكنا إنسان دون
أن نحس بالخنوع. ولقد أثلج صدري بشكل ما أن زوجتي تصعد
لي ثانية، إذ كنت قد نسيت آلامها لفترة طويلة من الزمان. وهذا
النوع الوحيد من التعويض الذي أستطيع أن أقدمه لها. والساذج دائمًا
يتورط، ولسوء الحظ، في أي صراع. إني دائمًا وحيدًا توجهت أنا
صوتًا ما يثن من داخل البرج.

أشعلت «فونج» مصباح الأفيون. قالت:

- هل ستسمح لك بأن تتزوج بي؟

- لم أعرف بعد.

- ألا تقول؟

- إذا كانت تقول فإنها تقول على مهل شديد.

فكرت: «إلى أي مدى ستشمخ بنفسك إذا ما كنت طليقًا وإذا ما
ظللت المخبر الصحفي ولست محررًا مسؤولًا. وما الأعمال الخفية
التي سترتكبها وراء الكواليس. إن النوع الآخر من الحروب أكثر برًا
من هذا، إن المرء يحدث أضرارًا أقل إذا استخدم أحد مدافع «الهاون»

لو أنني خالفت ما أقتنع به في أعماق نفسي وقلت لك: «نعم»، فهل سيكون ذلك في صالحك أنت؟ تقول إنك استدعيت إلى إنجلترا، وأستطيع أن أدرك بوضوح مدى كراهيتك لهذا أو ما ستفعله لتخفف من وقعه على نفسك. إنني أخالك تعقد زواجك بعد أن أفرطت في الشراب. لقد حاولنا في المرة الأولى وكنا صادقين في محاولتنا - من جانبك وكذلك من جانبي - والمرء لا يكون على نفس القدر من الصلابة في محاولته الثانية. تقول إنك لو فقدت هذه الفتاة فستكون نهاية حياتك. وقد سبق لك ذات مرة أن وجهت نفس العبارة لي، وبوسعي أن أعرض عليك الخطاب، فلا زلت أحفظ به. أحسب أنك كتبتها بنفس الأسلوب لـ «آن». تقول إننا حاولنا أن يصدق كل منا القول للآخر، بيد أن صدقك يا «توماس» صدق عابر دائمًا. ما جدوى النقاش معك أو أن أحاول أن أهديك إلى العقل؟ أيسر عليّ أن أتصرف طبقاً لما يمليه عليّ إيماني - كما تتصور أنت بطريقة غير معقولة - وأكتب لك ببساطة: أنا لا أومن بالطلاق، فديني بحرمة، وهكذا فإن إجابتي يا «توماس» هي: لا، لا.

كانت لا تزال هناك نصف صفحة لم أقرأها تسبق عبارة «هيلين» المحبة لك». أظنها كانت تتضمن أخباراً عن الطقس وخالة عجوز أحبها.

لم يكن لديّ سبب للشكوى، وكانت هذه هي الإجابة التي توقعتها، وهي تتضمن قدرًا كبيرًا من الحقيقة. كل ما تمنيت ألا تكون قد سردت

لنفسها كل ما دار من أحداث بترتيب وقوعها بمثل هذا الإطناب،
ما دامت الأفكار قد آلمتها مثلما آلمتني.

- هل تقول لا؟

قلت دون أي تردد رغم ما في ذلك من مشقة:

- إنها لم تندبر أمرها بعد. لا زال ثمة أمل.

ضحكت «فونج»:

- تقول «أمل» بمثل هذا الوجه الكظيم.

أفعت عند قدمي ككلب وفيّ أمام قبر أحد الصليبيين، تعد لي
الأفيون، وتساءلت ماذا عساي أقول لـ «بابل». بعد أن فرغت من
تدخين أربعة غلايين أحسست أنني أكثر استعداداً للعلاقة المستقبل
قلت لها إن الأمل شيء خير، فزوجتي تستشير محامياً، وإنني أنتظر
منذ اليوم برقية الخلاص.

- إنها لا تهتم كثيراً. فإنك تستطيع أن تتخذ قراراً.

قالت عبارتها هذه، وخُيل إليّ أنني أسمع صوت أختها يتكلم
على لسانها.

- ليست لديّ أي مدخرات. ولا أستطيع أن أزايد على «بابل».

- لا تبتس، قد يحدث شيء ما. فهناك دائماً طرق للخلاص. تقول

أختي إن بوسعك صرف بوليصة التأمين على الحياة.

وسرحت بفكري، كم هي واقعية إذ لا تقلل من قيمة النقود. ولا

تحاول أن تلجأ إلى الحديث المبهرج عن الحب وما يصنعه من
معجزات.

وفكرت كم من السنين ينبغي أن يقضيها «بابل» حتى يقهر

مدا القلب الصلد، إذ كان «بايل» رومانتيكياً. بيد أنه من المؤكد
في نفس الحالة أن الموقف سيتحسن لصالح «بايل»، فإن القسوة
«تلين مثلما تلين العضلة إذا كف المرء عن استخدامها بعد ألا
يكون له بها حاجة. أما الرجل الثري فيستطيع أن يفوز ببغيته بكلتا
الطريقتين.

وفي ذلك المساء وقبل أن تغلق المحال الموجودة في شارع
فاتينات أبوابها اشترت «فونج» ثلاثة إشارات أخرى حريرية.
وفعدت على السرير، وبسطتها أمامي، وهي تصبح لمرأى ألوانها
الزاهية، وتملاً فراغ الحجرة بصوتها الغنائي. ثم طوتها بركة وعناية
وضعتها مع عشرات أخرى في درجها.

بدت وكأنها تود أن تضع أساساً لبيت متواضع. أما أنا فوضعت
الأساس المجنون لبيتي بأن كتبت رسالة في تلك الليلة ذاتها إلى
«بايل»، مستلهماً ما يعطيه الأفيون للمرء من بصيرة ووضوح
لا سبيل إلى الركون إليهما، وهذا ما كتبت. (عشرت على الرسالة
في ذلك اليوم مطوية بين صفحات كتاب «دور الغرب» لـ«يورك
هاردنج». لا بد أنه كان يطالع هذا الكتاب وقت وصول رسالتي
إليه. أو ربما كان يستعملها كمؤشر للكتب ثم لم يقدر له أن
يواصل اطلاعه).

كتبت له: «عزيزي «بايل»»، وراودتني نفسي أن أكتب إليه هذه
المرة فقط «عزيزي «آلدين»». ذلك أن رسالتي هي في نهاية الأمر
رسالة مداينة لها بعض الأهمية، وتختلف قليلاً عن سواها من رسائل
المداينة من حيث إنها تتضمن أكذوبة.

عزيزي «بابل»،

كنت أنوي أن أكتب إليك من المستشفى لأشكرك على تلك الليلة. لقد أنقذتني من نهاية غير مريحة لحياتي. وهانذا بدأت أتحرك ثانية متوكلًا على عصا، وواضح أن الكسر أصاب مكانًا ملائمًا تمامًا، وأن السن لم تمتد بعد إلى عظامي لتصبح هشة. يلزمنا أن نقيم معًا في وقت ما احتفالًا بهذه المناسبة.

وجمد القلم عند تلك الكلمة، ثم ما كان مني إلا أن فعلت مثلًا. تفعل النملة إذا ما صادفها عائق في طريقها فدرت حول الموضوع، متخذًا طريقًا آخر.

لدي مناسبة أخرى للاحتفاء بها. وأعلم أنك ستر بها كذلك، إذ كنت تقول لي إن مصالح «فونج» هي ما يبتغيه كلانا. وجدت بعد عودتي رسالة تنتظرني من زوجتي ولقد قبلت بشكل أو بآخر أن تفصل عني ومن ثم، فليس لك أن تضيق بعد الآن بخصوص «فونج».

لقد كانت عبارة قاسية. بيد أنني لم أدرك ما فيها من قسوة إلا بعد أن أعدت قراءة الرسالة، ولكن الوقت كان متأخرًا تمامًا لتغييرها. ولم كان لي أن أمحوها فمن الأفضل أن أمزق الرسالة.

سألت «فونج»:

- أي إشاراب تفضليته على غيره؟

- أنا أحب الأصفر.

- أجل الأصفر. انزلي إلى الفندق وضعي هذه الرسالة في صندوق

البريد.

الفت نظرة إلى العنوان:

- بوسعي أن أخذها إلى المفوضية إذ إن هذا سيوفر عليك طابع البريد.

- أفضل أن تضعها في صندوق البريد.

ثم استلقيت على ظهري، ومع ما يمنحه الأفيون من استرخاء
١. اتأسرح بفكري. إنها على أقل تقدير لن تتركني الآن قبل أن
أرحل. وربما أفكر غداً، وبعد بضعة غلايين، في طريقة ما للبقاء.

(٢)

الحياة العادية تأخذ مجراها، وفي هذا راحة لكثير من عقول البشر.
ولما ثبت أن الإنسان أثناء الغارة الجوية يستحيل أن يملكه الخوف
طوال الوقت، فإنه كذلك تحت قصف المهام الروتينية والمناوشات
العرضية وهموم الغير ينسى خوفه الذاتي لساعات متصلة. أفكاري
عن أبريل المقبل ومغادرة الهند الصينية والمستقبل الغامض من دون
«فونج» أثرت عليها البرقيات اليومية ونشرات الصحافة الفيتنامية
ومرض مساعدي، وهو رجل هندي يُدعى «دومنجيز». (نزحت
عائلته من جوا عن طريق بومباي) كان يحضر نيابة عني المؤتمرات
الصحفية الأقل شأنًا، ويعبر أذناً مرهفة تلتقط الدلالات الخفية للثرثرة
والإشاعة، واعتاد أن يحمل رسائلي إلى مكتب التلغراف والرقابة.
كان يستعين بوجه خاص ببعض التجار الهنود الذين يقطنون في

مناطق الشمال وهايفونج ونام دين وهانوي لمزاولة عمله كجها.
مخابرات لصالحه. وأحسب أن معلوماته عن مراكز تجمع كتائب
«الفيتمه» داخل دلتا تونكين كانت أدق من معلومات القيادة العامة
للقوات الفرنسية.

ونظرًا لأننا لم نكن نستفيد من معلوماتنا إلا بعد أن تصبح أخبارًا،
ولم نعرض إطلاقًا أي تقارير على المخابرات الفرنسية، فقد حازناه
وصداقة العديد من عملاء «الفيتمه» الذين كانوا يختبئون في حرم
شولون بسايجون. وساعد على ذلك دون أدنى شك حقيقة وضعه
كأسير في رغم طبيعة اسمه.

كنت شغوفًا بـ«دومنجيز»، فبينما نجد الآخرين يحملون كبرياءهم،
على السطح كأنها مرض جلدي تؤذيه اللمسة الخفيفة كانت كبرياءهم
بعيدة الغور، وقد اختزلت فيما أظن إلى أقل قدر ممكن بالقيام
إلى أي إنسان آخر. كل ما تصادفه منه في اتصالاتك اليومية معه
الرقرة والتواضع والحب المطلق للحقيقة. ربما كان عليك أن تعاش
معايشة وثيقة لكي تكتشف الكبرياء. ولعل الحقيقة والتواضع يسيران
معًا جنبًا إلى جنب لأن أكثر الأكاذيب مصدرها كبرياءنا، ففي مهنتي
تلقي كبرياء المخبر الصحفي، حيث الرغبة في تلفيق رواية تفضل
رواية الآخرين. كان «دومنجيز» هو الذي علمني ألا أعبا بذلك،
وأرفض كل تلك البرقيات التي ترد إليّ من بلادي تستجوب عن
السبب في أنني لم أعط رواية كذا وكذا، أو لم أذكر ما ورد في تقرير
لشخص آخر أعلم أنه منافٍ للحقيقة.

وعرفت إلى أي حد أنا مدين له بعد أن ألمّ به المرض، كان يعني.

مى من مجرد معرفة أن سيارتي مليئة بالوقود. ومع ذلك فلم يحدث
، لو في مرة واحدة أن تطاول، سواء بالكلام أو النظر، على حياتي
الخاصة. أعتقد أنه كان كاثوليكيًا رومانيًا. بيد أنني لم أجد دليلًا على
، لك فيما عدا اسمه ومهبط رأسه. كل ما عرفته عنه من محادثاته أنه
، بما كان يعبد كريشنا أو يسافر لأداء شعائر الحج ونُحس بمنخاس
سلكى عند كهوف «باتو». وجاء مرضه رحمة لي إذ أنقذني من طاحونة
همي الذاتي. أصبح لزامًا عليّ الآن أن أتابع المؤتمرات الصحفية
المضنية، وأن أظل مقيدًا بمائدتي في «الكوتنتال» للثرثرة مع أقراني.
، أنني كنت أقل كفاءة من «دومنجيز» في تبيان الحقيقة من الزيف.
، لك فقد عودت نفسي أن أعود في المساء وأناقش معه كل ما سمعته.
، حدث ذات مرة أن كان معه أحد أصدقائه الهنود، وقد جلس بجوار
السرير المعدني في المسكن الذي يقطن «دومنجيز» جانبًا منه، الكائن
في أحد الشوارع المتواضعة بعيدًا عن بوليفار جاليني. كان يتخذ في
سريره جلسة معتدلة، وقد عقد ساقيه تحته. بحيث لا يدور بخلدك
أنك تعود مريضًا، وإنما تجلس في ضيافة مهراجا أو قسيس. ذات
مرة اشتدت عليه وطأة الحمى وغطى العرق وجهه بيد أنه لم يفقد
أبدًا ما يتسم به من وضوح في الفكر. كان وكأن مرضه ألمٌ بجسد
إنسان آخر غيره. وكانت صاحبة البيت تقف بجانبه ممسكة بعصير
ليمون طازج، ولكن لم أره مرة يشرب ولو جرعة واحدة. ربما كان
ذلك يعني أنه يسلم بأن العطش إنما هو عطشه الخاص، وأن الجسد
الذي يكابد الألم جسده هو.

ثمة يوم واحد هو اليوم الذي أذكره على وجه التخصيص من بين

كل الأيام التي عدته فيها. فقد أقلعت عن أن أسأله عن حاله، خرواً من أن يبدو سؤالي كأنه نوع من التقرير، وكان هو الذي يسألني دائماً وباهتمام بالغ عن صحتي ويعتذر عن السلم الذي اضطر إلى ارتقاؤه قال لي يوماً ذلك:

- أود منك أن تلتقي بصديق لي. إذ لديه قصة يحسن بك أن تسمعها منه.

- نعم؟

- كتبت لك اسمه لأنني أعرف ما تجده من مشقة في حفظ الأسماء الصينية. وطبعاً يجب ألا نستخدم اسمه. إنه يملك مستودعاً لخرقة الحديد في كاي ميثو.

- أهناك ما يهم في الموضوع؟

- ربما.

- هل لك أن تعطيني فكرة؟

- أفضل أن تسمع منه. فثمة شيء غريب بيد أنني لم أفهمه.

كان العرق يتصبب من وجهه، إلا إنه تركه يسيل، وكأن قطراته شيء حي ومقدس، فقد كان يغلب عليه طابع الهندوس، لم يرتض لنفسه أن يعرض حياة ذبابة للخطر. قال:

- هل تعرف الكثير عن صديقك «بايل»؟

- ليس بالقدر الكافي. إننا نصادف أحداً الآخر، هذا كل ما في الأمر. لم أره منذ كنا في تانين.

- ما عمله؟

- البعثة الاقتصادية، بيد أن هذه تخفي وراءها كثيراً من الخطاب.

أحسبه معنيًا بشؤون الصناعات المحلية هنا. وأعتقد أن هذا العمل وثيق الصلة بالشؤون والمصالح الأمريكية. وأنا لا أحب أسلوبهم في شغل الفرنسيين بالحرب، بينما يمضون في خفاء في أعمالهم الخاصة.

- سمعته ذات يوم يتحدث في حفل أقامته المفوضية لبعض الزوار من أعضاء الكونجرس. وقد طلبوا منه أن يقدم تلخيصًا للموقف.

- كان الله في عون الكونجرس. إنه لم يقض في البلاد ستة أشهر بعد.

- كان يحدثهم عن القوى الاستعمارية القديمة، إنجلترا وفرنسا، وكيف أنكما لم تأملا الفوز بثقة الآسيويين. وأن أمريكا قدمت إلى هنا بأيدي نظيفة.

- هونولولو، بورتوريكو، نيومكسيكو.

- وسأله أحدهم سؤالًا تقليديًا عن فرص الحكومة القائمة هنا للقبض على «الفيتمنه» في وقت ما، وقال إن قوة ثالثة هي القدرة على ذلك. لا بد أن نعمل دائمًا على إيجاد قوة ثالثة متحررة من الشيوعية ولا تشوبها شائبة الاتجاه الاستعماري، وهو ما سماه «الديمقراطية القومية». ليس عليكم إلا أن تهتدوا إلى زعيم وتؤمنوه من القوى الاستعمارية القديمة.

- كل هذا تتضمنه مؤلفات «يورك هاردنج»، لقد قرأها قبل أن يغادر بلاده إلى هنا وقد حدثني عنها في أسبوعه الأول ولم يتعلم شيئًا من وقتها.

- ربما اهتدى إلى زعيمه.

- وهل ثمة ما يهم في أمره؟

- لست أدري. أنا لا أعرف ما الذي يفعله. ولكن اذهب ونح

إلى صديقي في كاي ميثو.

عدت إلى البيت لأترك مذكرة لـ «فونج» في شارع كاتباء.

ثم أخذت طريقي بالسيارة إلى الميناء لأصل إلى هناك مع غروب

الشمس. كانت الموائد والمقاعد متراسة على الميناء بجانب البحر.

البحارية وأسطول القوارب الرمادية والمطابخ المتنقلة الصغيرة...

أوقدت نيرانها وتساعدت منها حلقات البخار.

وفي بوليفار دو لا سوم استظل الحلاقون بالأشجار وانهمكوا بم

عملهم. وجلس العرافون القرفصاء وظهورهم مسندة إلى الجدران.

وأمامهم حزم من أوراق اللعب المتسخة. في شولون أنت في مكان

مختلف تمامًا. الناس فيما يبدو يفضلون أن يبدأوا عملهم مع نها

النهار بدلًا من أن ينتهوا منه في ذلك الوقت. كالدخول في قلب تمثاء

صامتة، الإشارات الصينية الرأسية الطويلة، والأضواء الساطعة،

والحشود المتزايدة تدفعك إلى المسير في الطرق الفرعية، حيث

أصبح كل شيء فجأة أكثر وجومًا وهدوءًا. قادني أحد هذه الطر

الفرعية إلى الميناء ثانية. وحشود من مراكب «السامبان»، حيث كان

مخازن السلع تتشاب في الظل ولا أحد هناك.

اهتديت إلى المكان بعد لأي وعن طريق الصدفة في الغالب

الفيت بوابات المستودع مفتوحة. وعلى ضوء مصباح قديم استطعت

أن أتبين أكوام الخردة وقد اتخذت أشكالًا غريبة كأنها لوحات

«بكاسو». ففي الأماكن التي سقط عليها الضوء رأيت أسرة
أمواض استحمام وأوعية وأغطية سيارات ورقائق معدنية عليها
مئات قديمة. اتخذت طريقي نازلاً عبر ممر ضيق في مكان حجري
أ. ب. ناديت على السيد «شو» دون أن يرد عليّ أحد. وفي نهاية
الاستودع أقيمت سلماً قادني إلى ما خُصّنت أنه بيت السيد «شو»،
«وأنني توجهت إلى الباب الخلفي، وعرفت أن «دومنجيز» كانت
ممراته. وإذا بالسلم أيضاً قد صُفّت بجانبه بعض الخردة التي قد
صبح ذات فائدة يوماً ما في هذا البيت الذي يشبه عش الغراب.
مدت حجرة فسيحة عند نهاية السلم جمعت أسرة كاملة انكب كل
أدها في عمل ما، بجو معسكري يتوقع هجوماً في أي لحظة. تناثرت
أدحاش صغيرة هنا وهناك، وكميات كبيرة من علب الكرتون مُلئت
أشياء متنوعة غير معروفة، وحقائب من «الفبر» مربطة.

كانت هناك امرأة عجوز جالسة فوق سرير عريض، وولدان، وبتان،
وطفل يجبو على الأرض، وثلاث سيدات في متوسط العمر مرتديات
سترات وسراويل ريفية بنية اللون. في أحد الأركان رأيت شيخين
ارتديا معطفين حريريين لونهما أزرق من معاطف كبار الموظفين،
يلعبان لعبة «الماجونج». لم يعر أيّ منهما اهتماماً لمقدمي. لعبا
سرعة خاطفة، يحددان القطعة بمجرد اللمس، وضواؤهما تشبه
صوت دحرجة الحصباء على شاطئ بحر بعد انحسار الموج. مثلما
فعل الشيخان لم يعرني أحد من الباقيين أي اهتمام اللهم إلا قطة قفزت
فوق صندوق من الكرتون. وكلب ضامر أخذ يشمني ثم ولّى عني.
سألت: «السيد «شو»؟».

هزت سيدتان رأسيهما، وظل الجميع على حالهم سوى تلاء المرأة التي كانت تغسل كوبًا. ثم أفرغت بعض الشاي من إناء كاء. لا يزال ساخنًا داخل صندوقه المطرز بالحريير. جلست على طرف السرير بجوار السيدة العجوز وناولتني فتاة قدح الشاي. وخلت أني اندمجت وسط هذه الجماعة مع القطة والكلب اللذين ربما أتيا إلى هنا عن طريق الصدفة على نحو ما حدث لي. واجتاز الطفل أرضه الحجرة حبوا. وشرع يجذب رباط حذائي دون أن يزجره أحد، ففي بلاد الشرق لا يزجر أحد الأطفال. ألفت ثلاثة تقاويم تجاربه معلقة على الجدران، وقد رسم على كل منها صورة لفتاة مرتدبة سترة صينية، ولها وجنتان وضاءتان. وثمة امرأة كبيرة، ومن الغريب أنه كان منقوشًا عليها عبارة «قهوة السلام»، ربما أخذت طريقها إلى المستودع عرضًا، وهو ما كنت أشعر به بالنسبة لنفسي.

احتسيت على مهل الشاي الأخضر المُر. كنت أنقل الكوب من يد إلى أخرى كلما لسعت حرارته أصابعي. ترى إلى منى سيطول بي المكث هنا. حاولت التحدث إلى الأسرة بالفرنسية وسألت متى يتوقعون مقدم السيد «شو». إلا إن أحدهم لم يُجب عليّ، من المحتمل أنهم لم يفهموا حديثي. بعد أن فرغ كوبي مُلئ ثانية. وواصل كل عمل: امرأة تكوي بعض الثياب، وفتاة تحيك، والولدان منكبان على دروسهما، والمرأة العجوز تتطلع إلى قدميها، هاتين القدمين الضيلتين اللتين عُطِّل نموهما كما هو معروف في الصين القديمة، والكلب يرقب القطة التي لزمت مكانها فوق صناديق الكرتون.

وبدأت أدرك مدى المشاق التي يتكبدها «دومنجيز» من أجل أن يحيا حياة الكفاف.

ودخل الغرفة رجل صيني أضواء النحول حتى ليُخيل إليك أنه لا يشغل حيزًا على الإطلاق، كان نحيلًا كورقة تفصل بين أقراص البسكويت داخل العلبة. وربما كان الشيء الوحيد الذي له سُمْك هو بيجامته المخططة المصنوعة من القاتلة. وسألته:

- السيد «شو»؟

ونظر إليّ نظرة المدمن اللامبالية، وجنتان غائرتان، ومعصما للفم، وذراعا فتاة صغيرة. لا بد أن أعوامًا طويلة وغلايين كثيرة هي التي جعلته يتضاءل إلى هذه الدرجة. قلت له:

- قال لي صديقي «دومنجيز» إن لديك ما تريد أن تعرضه عليّ.

هل أنت السيد «شو»؟

قال:

- أوه، نعم.

كان هو السيد «شو». ولوّح لي في رقة لكي أعود وأجلس مكاني. وأكد أقول إن موضوع زيارتي قد تاه في أحد الدهاليز المعبأة بالدخان داخل جمجمته. هل لي في قدح من الشاي؟ زيارتي له أسبغت عليه شرفًا كبيرًا. غسل قدحًا آخر وأفرغ ماء الغسيل فوق أرضية الحجرة ووَضَعَ بين راحتي كأنه جمرة مشتعلة. الامتحان عن طريق الشاي. أبديت ملاحظة عن حجم أسرته.

نظر حواليه وقد ارتسمت عليه معالم دهشة خفيفة كأنه لم يسبق له أن رآها على هذا النحو من قبل. قال:

- أمي وزوجتي وأختي وعمي وأخي وأطفالي وأطفال خالتي.
تدحرج الولد بعيداً عن قدمي وقد استلقى على ظهره يرفس
ويصرخ. وتساءلت في نفسي تُرى من يتبع هذا الطفل فليس منهم
من هو شاب بالقدر الكافي، أو عجوز بالقدر الكافي، لينجبه.
قلت:

- أخبرني السيد «دومنجيز» بأنه موضوع هام.
- أوه، السيد «دومنجيز». أرجو أن يكون السيد «دومنجيز» بخير؟
- أَلَمْتُ به حُمى.
- هذا هو موسم الأمراض السنوي.
لم أكن مقتنعاً أنه تذكر من هو السيد «دومنجيز». بدأ يسعل. تحب
سترة بيجامته التي سقط منها زراران، بدا جلده المشدود يرن كأنه
طبلّة من تلك التي تعرفها بلادهم. قلت له:
- يحسن بك أن تعرض نفسك على طبيب.
انضم إلينا وافد جديد لم أسمعته وهو يدخل إلينا. كان شاباً أنيقاً
الهندام يرتدي ملابس أوروبية. قال بالإنجليزية:
- للسيد «شو» رئة واحدة.
- آسف جداً...
- يدخن مائة وخمسين غليوناً كل يوم.
- هذا عدد كبير.
- يقول الطبيب إن هذا ليس في صالحه، بيد أن السيد «شو» يشع.
بسعادة كبيرة وهو يدخن.
رُمت بصوتي علامة الفهم.

- إذا كان لي أن أقدم نفسي فأنا مدير أعمال السيد «شو».
- اسمي «فاولر»، أرسلني السيد «دومنجيز». قال لي إن السيد
«شو» لديه ما يريد أن يقضي به إليّ.
- إن ذاكرة السيد «شو» ضعيفة جدًا، هل لك في كوب من الشاي؟
- شكرًا، فقد شربت ثلاثة أكواب.

ورنت هذه الكلمات كأنها سؤال وجواب وردًا في كتاب يُعلم
م كيب الجمل.

أخذ مدير أعمال السيد «شو» الكوب من بين يدي، وناوله لإحدى
الامتيازات التي أُلقت ما فيه من بقايا على الأرضية، ثم عادت وملأته
من جديد.

قال:

- إنه ليس شايًا ثقيلًا بما فيه الكفاية.
أخذه وتذوقه بنفسه، ثم أفرغه وغسله بعناية، وملأه ثانية من إبريق
آخر للشاي. سألني:
- أهذا أفضل؟
- أفضل بكثير.

تنحى السيد «شو» ولكن لم يكن ذلك إلا لكي يصبق كمية كبيرة
من البلغم في مبصرة من الصفح زُينت برسوم لزهرات القرنفل. ظل
الطفل يتدحرج جيئةً وذهابًا بين بقايا الشاي. قفزت القطة من فوق
أحد الصناديق الكرتون إلى إحدى الحقائق.

قال الرجل الشاب:

- ربما يكون من الأفضل لو تحدثت معي، اسمي السيد «هنج».

- إذا كان لك أن تخبرني...

قال السيد «هنج»:

- سننزل إلى المستودع، فالمكان هناك أكثر هدوءًا.

مددت يدي للسيد «شو»، وتركها لترتاح بين راحتيه، ومرت عينيه نظرة تنم عن الحيرة. ثم حملق بنظره إلى ما حوله في الغرفة المزدحمة، وكأنه يود لو وجد لي مكانًا ملائمًا فيها.

وانحسرت عنا أصوات الحصباء المتدحرجة ونحن نهبط درج السلم. قال السيد «هنج»:

- كن حذرًا، فالدرجة الأخيرة من السلم ناقصة.

أضاء مصباحًا يدويًا لأهبط على هديه.

عدنا ثانية لنمشي بين هياكل الأسيرة وأحواض الاستحمام، وسال السيد «هنج» مرًا جانبيًا، وتوقف بعد عشرين خطوة تقريبًا وأسندنا مصباحه على أسطوانة حديدية. قال:

- هل ترى تلك؟

- ماذا عنها؟

قلبها وأراني علامتها التجارية: «ديولاكتون».

- ما زلت لا أفهم شيئًا عنها.

- عندي هنا أسطوانتان من ذلك النوع، عثرت عليهما بين بعض

المخلفات من جراج السيد «فان فان موي»، تعرفه؟

- لا، لا أظن ذلك.

- زوجته إحدى قريبات الجنرال «تي».

- لم أفهم بعد ما فيه الكفاية...

- هل تعرف ما هذه؟

سألني السيد «هنج» وهو ينحني ليرفع شيئًا مقعرًا طويلًا أشبه
مؤد كرفس أخذ يلمع على ضوء مصباحه كأنه من معدن الكروم.
- ربما كان أحد لوازم الحمام؟
- إنه قالب.

كان من الواضح أنه من النوع الذي يجد متعة تثير الملل في تقديم
معلوماته. وصمت هنيهة ليتبين جهلي ثانية.

- هل تفهم ماذا أعني بكلمة «قالب»؟

- أوه نعم بالتأكيد. ولكن لا زلت لا أفهم...

- هذا القالب مصنوع في الولايات المتحدة الأمريكية. وكلمة
«ديولاكتون» هي علامة تجارية أمريكية. هل بدأت تفهمني؟
- صراحة، لا.

- ثمة شرح في القالب. لهذا القوابه. ولكن ما كان ينبغي أن يلقوا به
ضمن المخلفات، وكذلك الأسطوانة. هذه غلطة. ولقد أتى إلى
هنا مدير أعمال السيد «موي» شخصيًا. ولم أتمكن من العثور
على القالب بيد أنني أعدت له الأسطوانة الأخرى وقلت له إن
هذا هو كل ما عندي. قال لي إنه بحاجة إليها لحفظ بعض المواد
الكيميائية. ولم يسأل بالطبع عن القالب، وإلا لكان هذا مدعاة
سخرية شديدة، بيد أنه قام بعملية بحث دقيقة. بعد ذلك اتصل
السيد «موي» بالمفوضية الأمريكية وسأل عن السيد «بايل».
- يبدو أنك تعمل بالمخابرات.

كنت لا أزال عاجزًا عن تصور ماذا وراء كل هذا.

- طلبت من السيد «شو» أن يتصل بالسيد «دومنجيز».

- تعني أنك تأكدت أن ثمة رابطة ما بين «بايل» والجنرال. مساءة،
 تافهة، فليس في هذا جديد على أي حال، كل إنسان هنا يذهب
 إلى المخابرات.

ضرب السيد «هنج» بكعبه الأسطوانة الحديدية السوداء. وأحدث
 صوتاً سرت ذبذباته في هيكل السرير. قال:

- أنت إنجليزي يا سيد «فاولر». فأنت محايد. لقد كنت منصفاً
 بالنسبة لنا جميعاً. تستطيع أن تتعاطف مع البعض منا لو أنه
 أحس بميل قوي تجاه أي جانب من الجوانب.

- إذا كنت تلمح بأنك شيوعي أو من قوات «الفيتمه» فلا تهتم.
 ليس في ذلك ما يصدمني. أنا لا أومن باتجاه سياسي معين.

- لو حدث أي شيء غير سار هنا في سايجون فإن اللوم سيقع علينا.
 نحن. إن لجنتي تود منك أن تكون لك نظرة مبرأة عن الغرض
 وهذا هو السبب الذي من أجله عرضت عليك هذه وتلك.

- ماذا تعني «ديولاكتون»؟ إنها تعطي معنى يقارب اللبن المكثف
 - إن لها علاقة باللبن.

أسقط السيد «هنج» ضوء مصباحه داخل الأسطوانة. كان ثمة قليل
 من المسحوق الأبيض منتشراً على القاع كأنه غبار. قال:

- إنها واحدة من البلاستيك الأمريكي.

- نمت إلى سمعي إشاعة تفيد أن «بايل» كان يستورد البلاستيك
 لصنع لعب الأطفال.

والنقطت القلب بين يدي وتفحصته. حاولت بفكري أن أستوحى

:كله. لم تكن هذه هي الصورة نفسها التي يكون عليها الشيء. إنها

صورة مقلوبة من مرآة. قال «هنج»:

- ليس من أجل لعب الأطفال.

- إنها تشبه أجزاء من قضيب.

- الشكل غير مألوف.

- لا أستطيع أن أثبت الغرض منه.

واستدار السيد «هنج» وقال وهو يمشي عائداً بين تلال أكوام

المخلفات:

- كل ما أرجوه منك أن تعي ما رأيته. إذ ربما تجد في يوم ما سبباً

يدعوك إلى الكتابة عنه. ولكن يجب عليك ألا تقول إنك رأيت

الأسطوانة هنا.

- ولا القالب؟

- ولا القالب على وجه التحديد.

(٣)

لبس عسيراً ذلك اللقاء الأول مع شخص - كما يُقال عادة - أنقذ

حياتك. لم أكن قد رأيت «بابل» منذ كنت بالمستشفى العسكري.

ثان غيابه وصمته وهما من الأمور التي يسهل تفسيرها، (إذ كان

أكثر من حساسية للمواقف المخرجة) يثيران ضيقي إلى درجة

غير معقولة. حتى إنني كنت أثناء الليل وقبل أن تؤثر فيَّ الحبوب

المنومة بمفعولها المهدئ أتخيله صاعدًا درج السلم يطرق نام
ويستلقي في سريري. وهكذا أضفت إحساسًا بالذنب إلى التزام
الآخر الأكثر شكلية. وأحسب أن ثمة ذنبًا آخر وهو ذنب رسالتي
(تُرى من هم أسلافي القدماء الذين أورثوني هذا الضمير الأبله؟).
المؤكد أنهم كانوا أبرياء منه وقتما كانوا يعيشون في عالمهم الغامض
على الاغتصاب والقتل).

كنت أتساءل أحيانًا، أيحسن أن أدعو منقذي إلى العشاء أم لا
أقترح عليه لقاء للشراب في بار «الكوتنتنتال»؟ لقد كانت مشاعر
اجتماعية غير مألوفة، وربما تتوقف على القيمة التي يعطيها الإنسان
لحياته. وجبة أم زجاجة؟ نبذ أم كأسان من الويسكي؟ لقد أمضيت
هذه المشكلة لعدة أيام. إلى أن حلها «بابل» بنفسه حين جاءني ونادى
عليّ من وراء بابي الموصد. كنت ساعتها - وهي فترة القيلولة بعد
الظهر - نائمًا، وقد أنهكتني الجهد الناتج عن استعمال ساقي صباحًا.
ولم أسمع طرفاته.

«توماس»، «توماس». تداخل النداء مع حلم رأيت فيه أنني
أسير في طريق طويل قفر أبحت عن منعطف ولا أجده. وامتد به
الطريق على استقامته كأنه شريط طويل متجانس. وخُيل إليّ أنه لو
كان ليتغير لو لم يقتحمه الصوت، بدا أول الأمر كأنه صوت يتردد
من الألم في أعلى أحد الأبراج ثم استحال إلى صوت يتحدث إليّ
شخصيًا: «توماس»، «توماس».

قلت بصوت مدغوم هامس: «إليك عني يا «بابل». لا تقترب مني
لا أريد من ينقذني».

«توماس»، كان يطرق الباب بيد أن النوم كان يغالبني وأحسست
 ١٠٠. ما الأيام عادت بي إلى حقل الأرز وتمثل كأنه عدو لي. أدركت
 ١٠١. أن الطرق قد توقفت، وأن ثمة شخصًا بالخارج يتكلم بصوت
 ١٠٢. بهس ويجيب عليه شخص ما. إن الهمسات لها دلالتها الخطيرة،
 ١٠٣. لا يسعني أن أقول من هم المتحدثون. ونهضت من سريري في
 ١٠٤. داء، وتوكلات على عصاي حتى بلغت باب الحجرة المجاورة.
 ١٠٥. ما كنت أتحرك بسرعة كبيرة. وسمعتني من الباب، فساد الصمت
 ١٠٦. «مارج»، صمت أشبه بنبات متسلق ينشر خيوطه، خلته ينمو ليمتد
 ١٠٧. ت عقب الباب وينشر أوراقه داخل الحجرة حيث أتخذ مكاني
 ١٠٨. «ما». كان صمًا لا يروقي وفرقة بأن فتحت الباب في عنف. وإذا
 ١٠٩. «بج» واقفة في الممر و«بايل» يضع يديه على كتفيها، وخلت من
 ١١٠. ففتنهما أنهما ربما افترقا عن قلة.

قلت:

- آه، ادخلا، ادخلا.

- عجزت عن أن أسمعك صوتي.

- كنت نائمًا في أول الأمر، ثم لم أكن أريد ما يقلقني، ولكن هأنذا

قد أفلقت، ومن ثم فادخلا.

قلت بالفرنسية موجهًا حديثي لـ «فونج»:

- من أين التقطته؟

قالت:

- هنا في الممر، سمعته يطرق الباب فصعدت الدرج عَدْوًا لأدخله.

قلت لـ «بايل»:

- اجلس، هل لك في بعض القهوة؟
- لا، كما أنني لا أريد الجلوس يا «توماس».
- أما أنا فلا بد لي من الجلوس، فهذه الساق متعبة. هل وصا؟
- رسالتني؟
- نعم، ليتك ما كتبتها.
- لماذا؟
- لأنها رزمة من الأكاذيب، كنت أثق فيك يا «توماس».
- لا يجدر بك أن تثق بأي إنسان ما دام بينك وبينه امرأة.
- إذن فأنت لست بحاجة إلى أن تثق بي بعد الآن، سأصعد إلى هنا خفية وقتما تكون بالخارج، وسأكتب رسائل بالآلة الكاتبة وأضعها في مظارييف. ربما سأشب عن الطوق يا «توماس» ولكن كانت الدموع تتخلل صوته، وبدا أصغر مما كان دائماً.
- أما كنت تستطيع أن تفوز بغير الكذب؟
- لا، هذه ازدواجية أوروبية يا «بابل». علينا أن نتحايل لندير .
- ينقصنا. وربما أكون أحمق رغم ذلك. كيف حددت الأكاذيب؟
- إنها أختها، فهي تعمل الآن عند «جو». رأيتها الآن تَوًّا. وهم تعرف أنك استدعيت إلى بلادك.
- قلت وقد أحسست براحة:
- أوه، وها هي «فونج» تعرف ذلك أيضًا.
- والخطاب الذي بعثت به زوجتك إليك؟ هل تعرف «فونج» شيئًا عن ذلك؟ لقد رأت أختها.
- كيف؟

- جاءت إلى هنا لمقابلة أختها وقتما كنت بالخارج أمس وعرضته
«فونج» عليها. إنك لا تستطيع خداعها، فهي تقرأ الإنجليزية.
.. فهمت.

لم يكن ثمة ما يدعوني لأغضب من أي إنسان، فمن الواضح تمامًا
أنا الأثيم. ومن المحتمل أن «فونج» لم تعرض الخطاب إلا من
باب التفاخر، لم يكن هذا منها بمثابة علامة تدل على عدم الثقة.
سألت «فونج»:

- هل عرفتِ كل هذا ليلة أمس؟

- أجل.

- لاحظت أنك كنتِ هادئة.

ثم لمست ذراعها وقلت:

- أي غضب استحوذ عليك، لكنك يا «فونج» لست روحًا غاضبة.
قالت:

- كان عليّ أن أفكر.

تذكرت كيف كانت مسهدة بالليل، وكيف عرفت أنها لم تكن
نائمة من تنفسها غير المنتظم فبسطت لها ذراعي وسألتها بالفرنسية:
«الكابوس»؟ فقد اعتادت أن تعاني من الكوابيس عندما جاءت لأول
مرة إلى شارع كاتينات. بيد أنها بالأمس هزت لي رأسها عندما
استفسرت منها. وأدارت لي ظهرها. وأسندت ساقي إليها، الحركة
الأولى في عملية المضاجعة. لم يسترِع انتباهي حتى في ذلك الوقت
أن ثمة خطأ قد حدث.

- ألا يمكنك يا «توماس» أن تفسر لي، لماذا...

- من المؤكد أن الأمور بات واضحة بما فيه الكفاية، أريد أن أحتفظ بها.

- مهما كانت التكاليف بالنسبة لها؟

- بالطبع.

- ليس هذا حبًا.

- ربما ليست هذه طريقتك في الحب يا «بايل».

- وأنا أريد أن أحميها.

- وأنا لا أريد. إنها بغير حاجة إلى حماية. أريدها إلى جانبي.

أريدها في فراشي.

- رغمًا عنها؟

- إنها لن تمكث عن غير إرادتها يا «بايل».

- إنها لا تستطيع أن تحبك بعد هذا.

كانت أفكاره بسيطة إلى هذا الحد. استدرت لأنظر إليها. كانت

قد دخلت حجرة النوم، وإذا بها تسوي ملاءة السرير حيث كتب

راقداً. ثم أخذت أحد كتبها المصورة من فوق رف، وجلست على

السرير وكأن حديثنا لا يعنيه أبداً. وأستطيع أن أقول أي كتاب هذا.

سجل مصور لحياة الملكة. استطعت أن أرى الصورة المقلوبة للعرس

الملكية في طريقها إلى وستمستر.

قلت له:

- «الحب» كلمة غريبة. نستخدمها لأسباب عاطفية، أو لنخدم

بها رغبة تستبد بنا في امرأة ما. إنك ستضر نفسك يا «بايل».

لم تكن حذراً.

- لولا هذه الساق لنازلتك.

- يحسن بك أن تكون ممتناً لي ولأخت «فونج» بالتأكيد. بوسعك الآن أن تمضي في طريقك دون أي تأنيب ضمير خاصة وأنت ذو ضمير حي للغاية بشكل ما، اللهم إلا إذا استثنينا ما يتعلق بالبلاستيك، أليس كذلك؟

- البلاستيك؟

- أسأل الله أن تكون عارفاً بما تفعله هناك. أوه، أعلم أن دوافعك طيبة، وإنها لكذلك دائماً.

نظر إليّ في حيرة وشك. قلت:

- أمل أحياناً لو كانت لك بعض الدوافع الشريرة، فإنك بذلك تستطيع أن تفهم الشيء القليل عن البشر، ويصدق هذا بالنسبة لبلدك أيضاً.

- أود أن أهبها حياة وادعة. هذا المكان تفوح منه رائحة كريهة.
- إننا نخفف الرائحة بأعواد البخور. أحسبك ستقدم إليها ثلاثة وسيارة لاستعمالها الخاص، وتلفزيوناً من أحدث طراز، و... وأطفالاً.

- مواطنون أمريكيون شبان أذكاء يستعدون للإدلاء بالشهادة.
- وماذا ستقدم لها أنت؟ إنك لم تكن تنوي أن تصحبها معك إلى وطنك.

- لا، فلست قاسياً إلى تلك الدرجة. ما لم أستطع أن أوفر لها تذكرة عودة.

- إذن عليك أن توفر لها حياة هائلة إلى أن ترحل إلى بلادك.

- إنها إنسانة يا «بابل». وهي قادرة على أن تحسم أمرها.
- على أساس شواهد زائفة، فضلًا عن أنها طفلة.
- إنها ليست طفلة، بل إنها أشد منك مراسًا ولن تدانيها في ذلك
هل تعرف ذلك النوع من الدهان الذي لا تؤثر فيه الخدوش؟
هذه هي «فونج». إنها قادرة على أن تعمّر في الحياة أكثر من
عشرة من أمثالنا. كل ما في الأمر أنها ستصبح امرأة مسنة. فإني
تعاني من آلام الولادة والجوع والبرد والروماتيزم، ولكنها لم
تعاني مثلما نعاني نحن من الأفكار والعجز عن التعبير، لم
تصيبها الخدوش، وإنما ستذوي فقط.

ولكن بينما كنت أقول كلامي هذا وأرقبها وهي تقلب الصفحة
(صورة عائلية مع الأميرة «آن») عرفت مع ذلك أنني كنت أختار
صورة لشخصية مماثلة تمامًا لشخصية «بابل». إنني لا أعرف إنسانًا
على خلاف هذه الصورة، ذلك لأن كل ما يسعني أن أقوله هو أنها
كانت فزعة مثلما كنا جميعًا كذلك، وكل ما في الأمر أنها لا تملك
موهبة التعبير. وتذكرت عامي الأول معها، وما عانيت فيه من ألوان
العذاب وقتما كنت أحاول جاهدًا وبإخلاص أن أفهمها، ووقتما كنت
أتوسل إليها أن تبوح لي بأفكارها، حتى أفزعته بغضبي الأخرق من
صمتها. بل إن رغبتني كانت سلاحًا أرجو به إذا ما أشهرت سيفي
صوب رحم الضحية أن تفقد السيطرة على نفسها وتتكلم.

قلت لـ «بابل»:

- لقد قلت ما فيه الكفاية، وتعرف كل ما يمكن معرفته. أرجو
أن تنصرف.

نادى قائلاً:

- «فونج».

فردت متسائلة:

- السيد «بايل»؟

رفعت عينيها اللتين كانتا تفحصان صورة لقلعة «وندسور». وفي هذه اللحظة بدت طريقتهما في مراعاة آداب السلوك مدعاة للضحك والاطمئنان.

- لقد خدعك.

- لا أفهم شيئاً.

قلت:

- أوه، إليك عني. اذهب إلى من تدعوهم «القوة الثالثة» و«يورك هاردنج» و«دور الديمقراطية». إليك عني والعب بالبلاستيك. لاحقاً كان عليّ أن أقول إنه نفذ كل تعليماتي بحذافيرها.

الجزء الثالث

الفصل الأول

(١)

مضى ما يقرب من أسبوعين على وفاة «بايل» لم أرَ خلالهما «فيجو» ثانية. كنت أسير على طول بوليفار شارنر عندما ناداني صوته من «لو كلوب». وهو المطعم الذي يفضلهُ على غيره في تلك الأيام كل أعضاء مكتب الأمن. واعتاد هؤلاء، كنوع من التحدي لمن يناصبونهم الكراهية، أن يتناولوا غداءهم وشرابهم في الطابق الأرضي، بينما يتناول الجمهور العادي طعامه في الأدوار العليا، حيث يكونون بعيدًا عن متناول أي ثائر يحمل قبلة يدوية. انضمت إليه وطلب لي كأسًا من «الفرموت».

- تلاعبي؟

- إذا كان هذا يروقك.

وأخرجت نردي لألعب اللعبة الطقسية «واحد وثمانون». ومن عجب فإن هذا الرقم ورؤيتي للنرد تعيد إلى ذاكرتي سني الحرب في

الهند الصينية، ففي أي مكان في العالم أرى رجلين يلعبان النرد أعود ثانية إلى شوارع هانوي أو سايجون أو بين أنقاض فات ديسم، وأرى جنود المظلات أشبه بيرقات الفراشات التي تتخذ من علاماتها الغريبة وقابها، يجوبون شواطئ القنوات في دوريات الحراسة، وأسمع صوت مدافع «الهاون» يدوي في كل مكان، وربما أرى طفلاً فارق الحياة.

قال «فيجو» بالفرنسية وهو يلقي ٤ - ٢ - ١: «من دون فازلين»، ودفع تجاهي بآخر عود ثقاب. ولقد كان استخدام المصطلحات الجنسية لهذه اللعبة أمراً شائعاً بين كل أعضاء مكتب الأمن. ربما كان «فيجو» هو الذي ابتدعها، وأخذها عنه ضباطه الصغار الذين لم يصلوا بعد إلى مستوى قراءة «بسكال». «ملازم ثانٍ». كل لعبة تخسرها ترفع رتبك درجة، وتداوم على اللعب حتى يصل هذا أو ذاك إلى رتبة نقيب أو عقيد. كسب اللعبة الثانية كذلك وبينما كان يحصي أعواد الثقاب قال:

- لقد عثرنا على كلب «بايل».

- حقاً؟

- أحسب أنه رفض أن يترك الجثة. على أي حال لقد قطعوا رقبته. كان غارقاً في الطين على بعد خمسين ياردة. ربما جرجر نفسه إلى هذه المسافة.

- أما زلت مهتماً بهذا الموضوع؟

- الوزير الأمريكي لا يفتأ يزعجنا به. نحمد الله أننا لا نواجه نفس المشكلة إذا ما لقي أحد الفرنسيين مصرعه. ومع ذلك فإن هذه الحالات ليست نادرة.

ولعبنا مقابل حصّة معينة من أعواد الثقاب ثم بدأت اللعبة الحقيقية.
« كانت مجازفة خطيرة حين ألقى «فيجو» بسرعة ٤ - ٢ - ١. نقصت
أعواد ثقابه إلى ثلاثة، وألقيت أنا بأقل عدد ممكن. قال «فيجو»:
« نيت»، ودفع إليّ بعودين آخرين من أعواد الثقاب. وبعد أن تخلص
من آخر عود كان معه قال: «نقيب»، وناديت الجرسون ليقدم لنا
المشروبات. سألته:

- ألم يغلبك أحد؟

- ليس كثيرًا، هل تريد أن تأخذ بشارك؟

- في وقت آخر. إنك لمقامر بارع يا «فيجو». هل تلعب أي لعبة
أخرى من لعب الاحتمالات؟

وابتسم في بؤس، ولسبب ما فكرت في تلك الزوجة الشقراء التي
نعيش معه، ويُقال إنها تخونه مع صغار ضباطه. قال:
- أوه، حسنًا. هناك دائمًا من هو الأكبر من الكل.

- الأكبر؟

واقبس العبارة التالية:

- «لنرَ الربح والخسارة عند رهاننا على وجود الله، ولنحاول
أن نقيّم كلا الاحتمالين. إذا ما ربحت، فقد ربحت كل شيء،
وإذا ما خسرت، لم تخسر شيئًا».

ورددت عليه بعبارة مقتبسة من «بسكال»، وهي الفقرة الوحيدة
التي أذكرها:

- «إن كلاً ممن يختار أي الاحتمالين سيان في الخطأ، والمنهج
الصحيح هو ألا تراهن أبداً».

- «نعم. ولكن لا بد من أن تراهن. لا خيار في ذلك. أنت مضطر»
 إنك لا تتحيز لمبادئك يا «فاولر»، فأنت متورط، مثلنا جميعًا
 - ليس بالنسبة للدين.
 - لم أكن أتحدث عن الدين. كنت في حقيقة الأمر أفكر في كلب.
 «بايل».
 - أوه.
 - أتذكر ما قلته لي، عن وجود آثار عالقة بمخالبه وتحليل ما بها
 من قاذورات وما إلى ذلك؟
 - وقلت لي إنك لست «ميجريه» أو «لو كوك».
 - إنني لم أقصر في شيء في نهاية الأمر، فقد اعتاد «بايل» أن
 يصحب كلبه كلما خرج. أليس كذلك؟
 - أظن ذلك.
 - أكان الكلب قيمًا إلى حد ألا يتركه وحده هائمًا؟
 - لن يكون آمنًا تمامًا، إذ إنهم في هذا البلد يأكلون الكلاب الصينية
 المعروفة باسم «شاو». أليس كذلك؟
 ثم ألقىته يضع النرد في جيبه.
 - نردي يا «فيجو».
 - أوه، آسف. حسبت...
 - لماذا قلت إنني «متورط»؟
 - متى يا «فاولر» رأيت كلب «بايل» آخر مرة؟
 - الله أعلم، فأنا لا أحتفظ بسجل عهدة عن الكلاب.
 - ما هو الموعد المحدد لعودتك إلى بلادك؟

- لا أعرف على وجه التحديد.
- إنني لا أحب أبدًا أن أعطي معلومات لرجال البوليس، فهذا يوفر عليهم التعب.
- أود أن أزورك الليلة وأتحدث إليك. في العاشرة؟ إذا كنت وحدك؟
- سأبعث بـ«فونج» إلى السينما.
- هل عادت المياه بينكما إلى مجاريها ثانية؟
- نعم.
- غريبة. كان عندي انطباع أنك - حسنًا - غير سعيد.
- ثق يا «فيجو» أن ثمة أسبابًا كثيرة وممكنة لذلك.
- ثم أردفت قائلاً بجفاء:
- وأنت أدري بذلك.
- أنا؟
- أنت نفسك لست بالرجل السعيد تمامًا.
- أوه، ليس عندي ما أشكو منه. «البيت الخرب ليس بيتًا شقيًا».
- ما هذا؟
- «بسكال» مرة أخرى، إنه جدال الفخر بالتعاسة، «إن الشجرة ليست تعيسة».
- ما الذي دعاك يا «فيجو» لكي تعمل كرجل بوليس؟
- ثمة عدد من العوامل. الحاجة إلى الرزق، والفضول لمعرفة أسرار الناس، وحتى حبي للروائي «جابوريو».
- ربما كان الأجدر بك أن تكون قسيسًا.

- لم أقرأ للمؤلفين الذين يعبرون عن هذا الاتجاه، في تلك الأيام
- أما زلت تشك في أن ثمة علاقة لي بالموضوع؟
نهض وشرب الثمالة الباقية في كأس «الفرموت».
- أود أن أتحدث إليك، هذا كل ما في الموضوع.
أعتقد أنه بعد أن استدار وانصرف نظر إليَّ نظرة حنان، وكأنه ينظر
إلى سجين قبض هو عليه وقد حكم عليه بالإعدام.

(٢)

لقد لقيت جزائي. وكان «بابل» إثر مغادرته لشقتي قد حكم عليّ
بأن أعيش أسابيع طويلة نهبًا للوساوس. كنت كلما عدت إلى البيت
لازمي إحساس بكارثة تنتظرنني، فكنت حينًا أتوقع أنني لن أجد
«فونج» هناك، وعندها يصبح من المستحيل عليّ أن أجلس إلى أي
عمل هادئ البال حتى تعود ثانية، كنت لا أفتأ أتساءل في نفسي:
أستعود أبدًا؟ وربما سألتها أين كانت؟ (محاوّلًا إزالة القلق والشك
من صوتي). وقد تجيب عليّ أحيانًا قائلة السوق أو الدكاكين، وتقدم
لي شاهدًا على صدق ما تقول. (بل إن استعدادها لتؤكد لي صدق
روايتها بدا لي آنذاك كأنه شيء غير طبيعي). وحينًا آخر تقول السينما
وأجد معها كعب التذكرة دليلًا على ما تقول، وحينًا أختها، وهنا أعتقد
أنها التقت بـ«بابل» عندها. وألغيت نفسي في تلك الأيام أمارس
معها الحب بطريقة بربرية وكأنني أكرهها، بيد أن ما كنت أكرهه هو

المستقبل، الوحدة، أن أرقد على فراشي وأحتضن الوحدة بين ذراعيّ إذا ما جن الليل. إنها لم تتغير. تطهو لي طعامي وتعد لي غلاييني، تسلمني جسدها في رقة وعذوبة لأنهل منه متعتي (بيد أنها لم تعد منعة). وكما كنت في أول أيامي معها أنشد قراءة أفكارها ولكنها كانت خافية عني بعيدًا في لغة أعجز عن التحدث بها، لم أشأ أن أسألها فأنا لا أريد منها أن تكذب عليّ (إذ ما دامت لم تنطق بكذبة صريحة فإنني أستطيع أن أنظاها بأننا ما زلنا كما كنا دائمًا تربطنا ببعضنا نفس العلاقة) وفجأة كنت أحس أن ما يعتمل في نفسي من هم يريد أن يفصح عن نفسه فأقول:

- متى رأيت «بايل» آخر مرة؟

ترددت، أم ترى كان هذا لأنها حقيقة تعود بفكرها إلى الورا؟
- وقتما جاء إلى هنا.

وشرعت - بطريقة لاشعورية في الغالب - أحط من قدر كل ما هو أمريكي وفاض حديثي بالكلام عن فقر الأدب الأمريكي وفضائح السياسة الأمريكية وبهيمية الأطفال الأمريكيين. حتى خُيل إليّ أن الذي أخذها مني ليس فردًا بل أمة بأسرها. فلا شيء مما يمكن أن تفعله أمريكا يعد صحيحًا. أصبحت ملولًا بخصوص ما يتعلق بموضوع «أمريكا»، حتى أصدقائي الفرنسيين ممن هم على استعداد تام لكي يشاركوني كراهيتي. وبدا وكأنني خُدعت، وإن كان المرء لا يُخدع من عدو.

وفي هذه الفترة بعينها وقعت حادثة الدراجات المتفجرة. بينما كنت عائدًا من بار «الأمبريال» إلى شقة خاوية (ترى هل كانت في

السينما أم مع أختها؟)، وجدت مذكرة قد دُفع بها تحت عقب الباب. كانت من «دومنجيز»، يعتذر فيها من مرضه الذي ما زال يلازمه. ويطلب مني أن أنتظر خارج المستودع الكبير عند ناصية بوليفار. شارنر في حوالي الساعة العاشرة والنصف من صباح الغد. قال إنه كتب هذا بناء على طلب السيد «شو». بيد أنني ارتبت في هذا طأ مني أن السيد «هنج» هو الذي قد يطلب حضوري على الأرجح. المسألة كلها، كما اتضح فيما بعد، لم تكن تستحق أكثر من فقرة واحدة، وفقرة تُقال على سبيل التفكه، إذ لم تكن لها أي علاقه بالحرب الكثيرة الوخيمة الناشئة في الشمال، وتلك القنوات المائه في فات ديسم التي غُصت بالجثث الرمادية وانقضى عليها بضعة أيام، وقصف مدافع «الهاون» والوميض الأبيض المنبعث من قنابل «النابالم». ووقفت منتظراً قرابة ربع ساعة إلى جانب كشك لبيع الزهور حيث جاءت عربة نقل لجنود البوليس من ناحية مركز قيادة مكتب الأمن في شارع كاتينات، وإذا بصوت الفرامل يثر والعجلات المطاط تعول، وترجل الجنود وركضوا ناحية المستودع وكأنهم يطاردون حشدًا من الغوغاء، ولم يكن ثمة غوغاء، كل ما هنالك حظيرة للدراجات. وهي في سايجون كسياج يحيط بكل مبنى فيها. لا تجد مدينة جامعية في الغرب تضم مثل هذا العدد الضخم من أصحاب الدراجات. وقبل أن يسعفني الوقت لأضبط آلة التصوير التي معي كان قد تم الحدث الهزلي الغامض. واقتحم رجال البوليس حظيرة الدراجات وخرجوا بثلاث دراجات محمولة فوق رؤوسهم وألقوا بها في نافورة الزينة. وقبل أن أتمكن من اعتراض سبيل أحد

حال البوليس كانوا جميعًا قد استقلوا سيارة النقل وانطلقت بهم
سرعة في بوليفار بونار.

وسمعت صوتًا يقول: «دراجة العمليات».

كان صوت السيد «هنج». سألته:

- ما هذا؟ تدريب عملي؟ على ماذا؟

قال السيد «هنج»:

- انتظر بعض الوقت.

بدأ بعض السابلة يدنون من النافورة حيث تطل منها إحدى
العجلات كأنها شمندورة تحذر من الإبحار قرب الحطام الغارق.
اجتاز أحد رجال الشرطة الطريق وهو يصيح ويلوح بيديه. قلت:
- هيا نلقي نظرة.

- ليس من المستحسن ذلك.

نظر إلى ساعته. كان عقربا الساعة يشيران إلى الحادية عشرة
والدقيقة الرابعة. قلت:

- أنت متعجل.

- كل تأخير وراءه فائدة دائمًا.

وفي هذه اللحظة انفجرت النافورة وغطت الرصيف. واصطدمت
قطعة من حجارة الزخارف بإحدى النوافذ، وتساقط الزجاج مثل الماء
في شكل رذاذ ساطع. ونفضنا عن ملابسنا قطرات الماء والزجاج.
وكانت إحدى العجلات تطن وهي تدور كخذروف على قارعة
الطريق، ثم أخذت تتأرجح إلى أن همدت. قال السيد «هنج»:
- كان يجب أن يقع هذا في الحادية عشرة تمامًا.

- ما هذا بالله عليك...؟

- حسبت أنك ستجد متعة في ذلك، أمل أن تكون قد استمنه بالفعل.

- هل لك أن تأتي معي وتشرب؟

- لا. آسف. يجب أن أعود إلى السيد «شو». ولكن اسمح لي أن

أطلعك على شيء قبل أن أنصرف.

وقادني إلى موقف الدراجات وفك دراجته.

- أمعن النظر.

- من نوع «رالي».

- لا. انظر إلى المنفاخ. هل يذكرك بشيء؟

ابتسم لي مشجعاً بسبب تحيري وانطلق. استدار ناحيتي ولزم لي بيده وهو يدرج بدراجته في طريقه إلى حي شولون ومستودع الخردة. في مكتب الأمن حيث ذهبت للاستعلام أدركت حقيقة ما يعنيه، القالب الذي رأيته في مستودعه يأخذ شكل قطاع نصفي لمنفاخ الدراجة، وثبت لي ذلك اليوم أن منفاخ كل دراجة في سايجون إنما هو، رغم مظهره البريء، قنبلة من البلاستيك تنفجر مع دقات الساعة حين تعلن الحادية عشرة. ويحدث هذا في كل مكان فيما عدا الأماكن التي يصل إليها البوليس قبل حدوث الانفجارات. ويتم ذلك بناء على استخبارات ترد إليه في ظني من السيد «هنج». كان الأمر في مجموعه غير ذي بال، عشرة انفجارات وإصابة ستة أشخاص إصابات طفيفة، أما عدد الدراجات فذلك شيء في علم الله. أدرك أقراني أن الأمر لا يستحق الكتابة عنه إلا على سبيل السخرية، فيما

«امراسل الشرق الأقصى» الذي سمي هذا الموضوع «عملاً من
 «مال العنف». وكانت عبارة «الدراجات المتفجرة» عنواناً ممتازاً.
 الامم الجميع باللوم على الشيوعيين. وكنت أنا الوحيد من بينهم
 «التي كتب أن المتفجرات استعراض لصالح الجنرال «تي»، ثم عدل
 «الامي في مكتب الرقابة، ذلك لأن الحديث عن الجنرال ليس أخباراً،
 لا يسعك أن تشغل مكاناً في الصحيفة للحديث عنه. بعثت رسالة
 «مذار إلى السيد «هنج» عن طريق «دومنجز»، لقد بذلت كل ما في
 «سعي. أرسل إلي السيد «هنج» ردّاً شفهياً مهذباً. وبدا لي آنذاك
 «أ. أو لجنته الفيتنامية - كان حساساً مفرطاً في حساسيته. فلم يأخذ
 «سان الأمر مأخذ الجد ضد الشيوعيين. بل إنها في الحقيقة أكسبتهم
 سمعة طيبة لما فيها من طابع فكه، وهو ما لا يتأتى بأي طريقة. وأصبح
 السؤال الذي يتردد على ألسنة الناس في المحافل هو: «ماذا سيتفقد
 عنه تفكيرهم فيما بعد؟». وكانت كل هذه القصة المضحكة ترمز
 لها عندي عجلة الدراجة التي كانت تدور حول نفسها في نشوة مثل
 الخدروف وسط الشارع، ولم أحاول قط أن أبوح بشيء لـ «بايل»
 عما سمعته عن علاقته بالجنرال. لندعه يلعب بالبلاستيك بسلامة
 طوية. فربما يشغله ذلك عن «فونج». وأياً كان الأمر فقد حدث ذات
 مساء أن وجدت نفسي بجوار جراج السيد «موي» فتوجهت لزيارته
 إذ لم يكن عندي ما هو أهم.

كان مكاناً صغيراً غير منسق لا يختلف عن مستودع الخردة نفسه
 الكائن في بوليفار دو لا سوم. وكانت ثمة سيارة مرفوعة على ونش
 في منتصف الأرضية وقد رفع عنها غطاؤها، وفجرت فاهاً كأنها

حلق حيوان من حيوانات ما قبل التاريخ في متحف من متاحه .
الأقاليم لا يزوره أحد. لا أعتقد أن ثمة من يذكر أنه موجود هناك
كانت الأرضية مفروشة بقصاصات الحديد والصناديق القديمة،
فالفيتناميون لا يميلون إلى تبديد أي شيء، وهم لا يفترقون في ها
عن الطباخ الصيني الذي يقسم البطة إلى سبعة أجزاء، ولا يفرط في
شيء منها حتى وإن كان ظفراً. وتساءلت في نفسي ترى لماذا حاول
أحدهم بطريقة مسرفة أن يبدد الأسطوانة الجوفاء والقلب التالف؟
ربما كان أحد المسروقات التي سرقها موظف ابتغاء الحصول على
قروش معدودات، وربما رشا السيد «هنج» العبقري شخصاً ما.
لم يقع نظري على أحد بجوار الجراج، ومن ثم دخلت. دار بخلدني
أنهم ربما يناون بأنفسهم بعيداً لفترة ما لثلا يستدعيهم البوليس. ومن
المحتمل أن تكون ثمة رابطة ما بين السيد «هنج» ومكتب الأمن
ولكن حتى في هذه الحالة ليس من المحتمل أن يتخذ معهم البوليس
تدابيره إذا كان يرى من الأفضل - حسب وجهة نظره - أن يعتقد الناس
أن المتفجرات ما هي إلا تدابير شيوعية.

لم يكن ثمة ما تقع عليه العين فيما خلا السيارات والمخلفات
المتناثرة فوق الأرضية الخرسانية. وكان عسيراً عليّ أن أتصور كيف
أمكن تصنيع المتفجرات عند السيد «موي». وكان خافياً عليّ تماماً
كيف يتسنى تحويل الغبار الأبيض الذي رأيته بداخل الأسطوانة إلى
بلاستيك. بيد أنه من المؤكد أنها عملية بالغة التعقيد بحيث لا يمكن
تنفيذها هنا، حيث بدت على مضختي البترول اللتين في الشارع آثار
الإهمال. وقفت عند المدخل وألقيت نظرة إلى الشارع، وقد استظل

«الحاقون تحت الأشجار في منتصفه وانهمكوا في عملهم، بينما
 :مُرت قطعة من مرآة على جذع شجرة وهي تعكس وميض الشمس.
 ، ت بي فتاة تسير ركضًا تحت قبعتها الرخوة حاملة سلتين معلقتين
 ملى قائمة خشبية. جلست العرافة القرفصاء مسندة ظهرها إلى جدار
 «سيمون فريز»، وقد اهدت إلى زبون، رجل عجوز ذي لحية صغيرة
 شبه لحية «هوشي منه» يرقب في استكانة تغنيط ومزج أوراق اللعب
 البالية. ترى ما المستقبل المنتظر الذي تكشف عنه وتقدر قيمته بقرش
 ، احدى؟ إنك في بوليفار دو لا سوم تحيا حياة مكشوفة على الملأ،
 «أي إنسان هنا يعرف كل شيء عن السيد «موي»، بيد أن البوليس
 لا يملك المفتاح الذي يفض به مكنون ثقتهم. كان هذا هو مستوى
 الحياة في مكان كل شيء فيه معروف، بيد أنك لا تملك القدرة على
 أن تخطو إلى أغوار هذا المستوى كخطوك في الطريق. وعادت بي
 الذكرى إلى النسوة العجائز اللاتي كن يجلسن ويثرثن عند منبسط
 الدرج حيث أقيم قرب دورة المياه المشتركة. كن يسمعن كل شيء
 أيضًا، ولكن لم أكن أعرف شيئًا مما يعرفنه.

واتخذت طريقي عائداً داخل الجراج، ودخلت حجرة مكتب
 صغيرة في المؤخرة. ألفيت هناك التقويم التجاري الصيني المؤلف،
 ومكتباً تناثرت فوّه أشياء عديدة: قوائم أسعار وزجاجة صمغ وماكينة
 حاسبة وإبريق شاي وبعض دبابيس الورق وثلاثة أقذاح ومجموعة
 من أقلام الرصاص الجديدة (غير المبرية)، ولسبب ما وضعت بين
 هذه الأشياء صورة كارت بوستال لبرج «إيفل» غير مهمورة بأي كتابة.
 قد يكون في وسع «يورك هاردنج» أن يصوغ حديثه عن القوة الثالثة

في قالب تجريدات بيانية، بيد أن هذا هو ما انحدرت إليه تجربته.
تلك كانت المسألة. وكان ثمة باب في الجدار الخلفي وكان موصلاً.
بيد أن المفتاح كان بين أقلام الرصاص فوق المكتب. فتحت الباب.
ودلفت إلى الداخل.

ألقيت نفسي داخل عنبر صغير في حجم الجراج. كان بداخله
ماكينة واحدة بدت لي لأول وهلة أشبه بقفص من قضبان وأسلاك أُنْزِلَ
بعدد لا حصر له من القضبان ليُحبس بداخله طائر كبير بلا جناحين.
أوحى بأنه شُدَّ بِخَرَقٍ بالية، ولكن من المحتمل أن هذه الخرق كار
تستخدم لأغراض التنظيف عندما كان السيد «موي» ومساعد
منصرفين عن عملهم. وجدت اسم الصانع، شخص ما في مد
ليون ورقم براءة الاختراع. ترى أي اختراع هذا؟ وأدرت مفتاح الباب.
الكهربائي فدبت الحياة في الماكينة القديمة. القضبان تؤدي غرضاً ما
كانت الآلة العجيبة أشبه برجل عجوز يستجمع آخر ما تبقى لديه من
قواه الحيوية ويهبط بقبضته ليسحق ثم يهبط بها ثانية، كان هذا الشيء
لا يزال يُوصف بأنه مكبس رغم أن طراز تشغيله يرجع بالضرورة إلى
نفس الحقبة التاريخية التي ترجع إليها حلبة ألعاب الخيالة. ولكن
أحسب أن هذا المكبس لا يزال يستعمل بالفعل في هذا البلد الذي
لا يضيع فيه شيء بدداً، بل ينتظر اليوم الذي يتم فيه كل شيء الغرض
الذي صنع من أجله. (وتذكرت فيلماً عتيقاً شهدت عرضه في أحد
الشوارع الخلفية في نام دين، وهو فيلم «السطو على القطار العظيم»
ذلك القطار الذي أحدث هزة عنيفة وهو يشق طريقه على الشاشه،
وقد وجده الناس مثيراً للتسلية).

فحصت المكبس عن كئيب مدققاً فيه النظر، كانت ثمة آثار
 مسحوق أبيض. ودار بخلدني أنه «ديولاكتون»، ذلك الشيء الشبيه
 اللبن، ولم تكن ثمة علامة تشير إلى وجود أسطوانة أو قالب. وقفلت
 راجعاً إلى حجرة المكتب ومنها إلى الجراج. وأحسست برغبة في
 أن أربت على مزبل الوحل بالسيارة القديمة، ربما كان أمامها وقت
 طويل للانتظار، ولكنها أيضًا ذات يوم... من المحتمل أن السيد
 «موي» ومساعديه ذهبوا إلى مكان ما في هذه الأثناء بين حقول الأرز
 في الطريق المؤدي إلى الجبل المقدس حيث توجد هيئة القيادة العليا
 «الجنرال «تي»». وأخيرًا عندما رفعت عقيرتي منادياً: «مسيو «موي»»،
 نخلت نفسي وكأني نأيت بعيداً عن الجراج والشارع والحلاقين
 وعدت إلى هناك بين الحقول، حيث اتخذت لنفسني ملاذاً على الطريق
 المؤدي إلى تانيين. «مسيو «موي»»، واستطعت أن أتبين رجلاً يدير
 رأسه بين عيدان الأرز.

قفلت راجعاً إلى البيت سيراً على الأقدام، وهناك فوق منبسط
 الدرج انطلقت النسوة العجائز في تغريدن الذي لا أفهم منه شيئاً
 أكثر مما أفهم من شقشقة الطيور. لم تكن «فونج» بالداخل. لم أجد
 غير مذكرة تقول إنها مع أختها. واستلقيت على السرير فما زال
 التعب يحل بي سريعاً، واستسلمت للنوم. عندما صحت من
 نومي رأيت عقيرتي المنبه يشيران إلى الواحدة وخمس وعشرين
 دقيقة. وأدرت رأسي متوقعاً أن أرى «فونج» نائمة بجواري، ولكن
 الوسادة كانت خالية من كل أثر. لا بد أنها غيرت ملء السرير
 في ذلك اليوم، ففيها أثر من برودة الغسيل. نهضت من فراشي

وفتحت الدرج الذي تحتفظ فيه بإشارياتها وكان خاوياً. قصا.
رف الكتب، لقد اختفى منه أيضاً كتاب «حياة الأسرة المالكة مر
صور». ها هي أخذت صداقها معها.

في لحظة الصدمة يخف وقع الألم. لقد بدأ ألمي حوالي الثاء،
صباحاً عندما بدأت أخطط لحياتي التي بقي عليّ أن أحيها بثاء.
ماء، وأستعيد بعض ذكرياتي لأحاول أن أمحوها بصورة ما. كاء،
ذكرياتي الهائلة هي أشقاها. وحاولت أن أستعيد ذكرياتي الشء،
كنت متمرساً على ذلك، فقد سبق لي أن عشت مثل هذه الحياة،
قبل، وأعرف أنني أملك القدرة على عمل ما تقتضيه الضرورة،
أنني أصبحت الآن رجلاً مسناً، وأحسست أنني لا أملك من العزء،
ما يعينني على أن أعيد البناء من جديد.

(٣)

قصدت المفوضية الأمريكية وسألت عن «بايل». كان لزاماً أن أملاً
بعض البيانات في ورقة هناك عند الباب وأعطيتها لأحد جنود الشرطة
العسكرية. قال لي:

- لم توضح الغرض من الزيارة.
- سيعرف هو.
- إذن فقد أتيت بناء على موعد.
- لك أن تفهم الأمر على هذا النحو إذا أحببت.

- أحسب أن أسئلتني تبدو لك غبية، ولكن يتعين علينا أن نكون حذرين غاية الحذر. فثمة أنماط غريبة تأتي إلى هنا.
- هذا ما سمعت عنه.

نقل العلكة التي يعضغها إلى الجانب الآخر من فمه ودخل «مصدق». انتظرت. لم تكن لديّ أي فكرة عما سأقوله لـ «بابل»، فقد كان هذا مشهداً جديداً عليّ تماماً. عاد الشرطي وقال متبرماً:
- اظن أن بوسعك أن تصعد إلى حجرة «12A» بالطابق الأول.
ما إن دخلت إلى الحجرة حتى تبينت أن «بابل» غير موجود.
ها. ألفت «جو» جالساً خلف مكتبه، الملحق الاقتصادي، لا زلت عاجزاً عن تذكر كنيته. ورمقتني أخت «فونج» من خلف منضدة عليها آلة كتابة. أهو الانتصار ما أقرؤه في عينيها العسليتين المتطلعتين؟

ناداني «جو» باهتياج:

- ادخل يا «توم». ادخل إنني سعيد لرؤياك. كيف حال ساقك؟
نادراً ما تتكرم علينا بزيارتك لقلة ما لدينا من معلومات. هات لك كرسيّاً. حدثني عن رأيك فيما يتعلق بالهجوم الجديد. رأيت «جرانجر» ليلة أمس في «الكوننتنتال». سيسافر إلى الشمال ثانية. إنه ولد متلهف. حيشما تكن الأخبار يكن «جرانجر». هل لك في سيجارة؟ خذ راحتك. أتعرف الآنسة «هي»؟ لا تستطيع أن تذكر كل هذه الأسماء، إنها مسألة شاقة للغاية على إنسان في مثل سني. أدعوها «هاي» ويروقها ذلك. لا شيء عن هذا الاتجاه الاستعماري العفن. ترى ما هو حديث الناس يا «توم»؟ يقيناً

- إنكم أيها الأصدقاء قادرون على استراق السمع جيدًا !
لما سمعته عن ساقك. حدثني «آلدين»...
- أين «بايل»؟
- أوه، «آلدين» لم يحضر إلى المكتب هذا الصباح. أحس...
بالبیت. إن كثيرًا من أعماله يؤديها في البيت.
- أنا أعرف ما الذي يؤديه في البيت.
- إنه ولد بارع. آه، ما الذي قلته؟
- على أي حال فأنا أعرف أحد الأعمال التي يؤديها في البيت.
- لا أستطيع أن أتابعك يا «توم»، «جو» بطيء الفهم، إنه...
كنت كذلك دائمًا وهكذا سأكون دومًا.
- إنه يضاجع فتاتي، أخت الأنسة التي تعمل على الآلة الخياطة،
عندك.
- لا أدرك ما تعنيه.
- سلها. لقد دبرت ذلك. أخذ «بايل» فتاتي.
- انظر إليّ يا «فاولر». حسبتك أتيت إلى هنا لعمل من الأعمال.
تعرف أننا لا نقبل مهارات هنا في المكتب.
- جئت إلى هنا لمقابلة «بايل» ولكنني أظنه مختبئًا.
- أنت آخر إنسان يصح له أن ييدي مثل هذه الملاحظة خاصة بما
كل ما أسداه إليك «بايل».
- أوه نعم، نعم، بالطبع. لقد أنقذ حياتي، أليس كذلك! بيد أنني
لم أسأله ذلك.
- لقد عرض نفسه لمخاطر جسيمة إذ أصيب هذا الولد في أمعائه.

لا تعينني أعاؤه في شيء، فثمة أجزاء أخرى في بدنه أكثر سلامة.

لا يحسن بنا الآن يا «فاولر» أن نبدي مثل هذه التعريضات في حضور سيدة معنا بالحجرة.

- أنا والسيدة نعرف بعضنا خبر معرفة، لقد فشلت في الحصول على ما تبتغيه مني من عمولة، ولكنها وفقت في ذلك مع «بايل». وهو كذلك. أعرف أنني أتصرف بطريقة غير لائقة، وسأمعن في هذا التصرف غير اللائق، فهذا موقف يتصرف فيه الناس مرغمين بطريقة غير لائقة.

- لدينا أعمال كثيرة. فثمة تقرير عن إنتاج المطاط...

- لا عليك. إني منصرف. ولكن يكفيني أن تبلغ «بايل» إذا ما اتصل بك تلفونياً أنني زرتة، فقد يرى من دواعي الأدب أن يرد لي الزيارة.

حدثت أخت «فونج» قائلاً:

- آمل أن أكون قد أشهدت على فعلتك كلاً من الموثق العام والقنصل الأمريكي وكنيسة المسيح العالم.

سرت داخل الدهليز. كان في مواجهتي باب كتب عليه «للرجال» دخلت وأغلقت الباب خلفي، وجلست مسنداً رأسي إلى الجدار البارد، وانخرطت في البكاء. لم أبلّك في حياتي حتى هذه اللحظة. حتى دورات مياههم مكيفة الهواء. وسرعان ما جفف الهواء المكيف المعتدل دموعي مثلما يجفف اللعاب في فمك، وماء الحياة في جسدك.

تركت شؤوني بين يدي «دومنجيز» وسافرت إلى الشمال. كان امر في هايفونج أصدقاء في وحدة «جاسكون» الفرنسية، وربما أقصر بضع ساعات في بار ملحق بالمطار، أو ألعب الكرة فوق الطرء الخارجى المرصوف بالحصباء. كان من المقرر رسمياً أن أكرء بالجبهة، أستطيع الآن أن أنافس «جرانجر» فيما يتصف به من براءء بيد أن هذا لا يزيد في قيمته بالنسبة لصحيفتى عما قدمته رحلتى إلى فات ديم. ولكن احترام المرء لنفسه يقتضى منه - إذا كان يكتبء الحرب - أن يشارك بين حين وآخر في المخاطر.

لم يكن يسيراً على أن أشاركهم حتى ولو لفترة زمنية محددة، حيث إن التعليمات الصادرة إليهم من هانوي تقضى بالآ يسمح لى إلا بالاشتراك في الإغارات الأفقية، فمثل هذه الإغارات فى الحرب آمنة تماماً كرحلة بالأتوبيس، ذلك لأننا كنا نظير على ارتفاع يبعد عن مرمى المدافع الثقيلة. كنا بمأمن من أى شىء، اللهم إلا أن يخطئ الطيار أو يحدث خلل فى محرك الطائرة. كنا ننطلق حسب جدول زمنى محدد، ونعود وفق جدول زمنى محدد. كانت قاذفات القنابل تنقض فى خط عمودى وتتصاعد أعمدة الدخان فى حركة لولبية عند ملتقى الطرق والكبارى. ثم نعود أدرأنا مع ساعة شرب فاتح الشهية، وندأرج كرأنا الحديدية فوق الحصباء.

ذات صباح وأنا فى ميس البلدة، وبينما كنت أشرب بعض كؤوس

الاندي الممزوج بالصودا مع ضابط شاب تؤرقه رغبة محمومة في
بارة «ساوئيند بير» تلقى هذا الضابط أمرًا بالقيام بمهمة.

- أيروقك أن تأتي معنا؟

أجبتة بالموافقة، فحتى الإغارة الأفقية ستكون وسيلة لقتل الوقت
قتل الفكر. وبينما كنا نتجه بالسيارة ناحية المطار أبدى الملاحظة
النالية:

- هذه إغارة رأسية.

- أحسب أنني ممنوع...

- ما دمت لن تكتب عنها شيئًا فستتيح لك فرصة لمشاهدة جزء
من البلاد المجاورة للحدود الصينية لم يسبق لك مشاهدته،
قرب لي شاو.

- ظننت أن كل شيء هادئ هناك، وأنها في قبضة الفرنسيين.

- كانت كذلك. لقد استولوا على هذا المكان منذ يومين. إن
جنودنا المظليين يبعدون عنها ببضع ساعات فقط. نريد أن
نبقي على قوات «الفيتمنه» برؤوسهم منكسة داخل جحورهم
إلى أن نستعيد الموقع مرة أخرى. وهذا يعني الانقضاض على
مستوى منخفض، واستخدام البنادق الآلية. إننا نستطيع أن
نوفر طائرتين فقط، إحداهما تؤدي مهمتها الآن. ألم يسبق لك
الاشتراك في عمليات الانقضاض وإسقاط القنابل؟

- لا.

- إنها متعبة إلى حد ما إذا لم تكن معتادًا عليها.

لم يكن لدى وحدة «جاسكون» سوى طائرتين من طراز «B-26»

كان الفرنسيون يطلقون على هذا النوع من الطائرات اسم «العاهرات» ذلك لأنها فضلاً عن قصر المسافة الفاصلة بين جناحيها فإن العسير ضمانها والتحكم فيها. حشرت نفسي فوق كرسي معدني صغير في حجم مقعد الدراجة وركبتي مسندتان إلى ظهر ملام الطائرة. حلقنا فوق النهر الأحمر وارتفعنا ببطء. كان النهر الأحمر في هذه الساعة أحمر حقيقة. خلت أني رجعت إلى الماضي البعيد لأراه بعين الجغرافيين القدامى أول من سمّوه بهذا الاسم، في نفس الساعة التي كانت الشمس الغاربة تغطي ضفتيه بأشعتها. ثم انحروا ونحن على ارتفاع تسعة آلاف قدم صوب النهر الأسود. كان اسمه حقيقة وتفقد فيه زاوية الضوء. ويطالعك مشهد مهيب ضخم لـ النهر وشاطئه الصخري وما يلتف حوله من أحراش ممتدة تحته على استقامتها. إنك قد تسقط كتيبة في تلك الحقول بلونيهما الأخضر والرمادي، ولكن لن يتخلف عنها أثر يزيد على ما تتركه بعض عمال سقطت وسط حقل على وشك الحصاد. وأماننا عن بعد طائرة صغيرة تتحرك كأنها بعوضة. كنا قد بدأنا نحلق على ارتفاع كبير.

درنا دورتين فوق البرج والقرية التي تحف بها الخضرة، ثم شقت الطائرة طريقها إلى أعلى في حركة حلزونية وسط الهواء بضوئه الباهر. واستدار الطيار، واسمه «تروين»، ناحيتي وغمر بعينه، وعلى عجلة القيادة أمامه الأزرار التي توجه المدفع وغرفة القنابل. وعندما اتخذنا الوضع الملائم استعداداً للانقضاض انتابني إحساس بالإسهال في أحشائي، وهو الإحساس الذي يصاحبه أي تجربة جديدة لأول مرة؛ الرقصة الأولى وحفل الغداء الأول.

«الحب الأول. وتذكرت «السباق العظيم» في «معرض ويمبلي»
 عندما بلغت أعلى قمة في الارتفاع، ولم يعد ثمة مخرج بعد ذلك،
 ثم وقعت في شرك التجربة^(١). وعندما انقضت الطائرة لم يسعفني
 الوقت إلا لأقرأ المؤشر وهو يشير إلى ثلاثة آلاف متر. كل شيء
 أدركه الآن بشعورك فقط بينما لا ترى شيئاً. وأحسست أنني مشدود
 إلى ظهر ملاح الطائرة. وبدأ لي أن ثمة شيئاً ثقيلاً لدرجة رهبة
 «حشم على صدري». ولم أتبين اللحظة التي أطلقت فيها القنابل من
 فعالها، وتتابع طلقات المدفع وعبقت مقصورة الطيار برائحة
 «مادة الكوردايت»، انزاح الثقل عن صدري ونحن نرتفع إلى أعلى،
 «أحسست بمعدتي تسقط مني وتهبط في حركة حلزونية وكأنها
 متحر يلقي بنفسه إلى الأرض التي خلفناها تحتنا. انقضت أربعون
 ثانية لم يكن «بايل» موجوداً فيها، بل لم تكن الوحدة موجودة
 أيضاً. وبينما كنا نرتفع في مسار على هيئة قوس عظيم تمكنت من
 رؤية الدخان من خلال النافذة الجانبية وهو يشير إليّ. وانتابني
 إحساس بالخوف قبل الانقضاء الثاني، الخوف من الإذلال،
 والخوف من أن أتقيأ على ظهر الملاح، والخوف من ألا تحتمل
 رتائي المستنان الضغط، وبعد الانقضاء العاشر لم أعد أشعر
 إلا بالاستفزاز، لقد استغرقت العملية وقتاً طويلاً وآن لنا أن نعود.
 وانطلقت الطائرة بسرعة في خط عمودي خارج مرمى المدافع
 ومرقت بنا بعيداً والدخان يشير إلينا. وكانت القرية تكتنفها الجبال

(١) يشير المؤلف إلى سباق بين قطارين أفغانين عقد في عام ١٩٢٥، ضمن فعاليات
 «معرض ويمبلي».

من جميع الجهات. وكان لزامًا علينا في كل مرة أن نتخذ نفس السبيل عبر هذه الفجوة بعينها، فلم يكن ثمة طريق آخر تُغير منه. وبينما كنا ننقض للمرة الرابعة عشرة دار بخلدي وقد زایلني الخوف من الإذلال: «ليس عليهم إلا أن يثبتوا مدفعًا واحدًا من المدافع الآلة نحو هدفه»، ورفعنا أنوف الطائرة مرة أخرى في الهواء الآمن، ربما كانوا لا يملكون حتى بندقية واحدة. وخُيل إليّ أن الأربعين دقيقه المخصصة للدورية لن تنتهي، بيد أنها كانت خالية تمامًا من كل ما يمكن أن ينغصها من الهموم الشخصية. كانت الشمس تغوص وراء الأفق أثناء عودتنا. لقد ولت لحظة عالم الجغرافيا. فلم يعد النهر الأسود أسود، وأصبح النهر الأحمر ذهبيًا، ولا شيء غير ذلك انخفضنا مرة أخرى بعيدًا عن الغابة ذات التواءات والشقوق واتجهنا صوب النهر، وحلقنا على ارتفاع منخفض فوق حقول الأرز المهملة، وانقضضنا كقذيفة نحو قارب صغير من قوارب «السامبان» على سطح المجرى الأصفر. وأطلق المدفع مقذوفًا، وتناثر القارب كأنه مطر من الشظايا. ولم نكلف أنفسنا عناء الانتظار حتى نرى ضحايانا يصارعون الموت، بل ارتفعت بنا الطائرة واتخذنا طريقًا عائدين. وعادتني نفس الأفكار التي دارت بخلدي وقما وقع بصري على الطفل الذي لقي مصرعه في فات ديم: «إنني أمقت الحرب» كان ثمة شيء تطير له نفسي شعاعًا في اختيارنا العرضي المفاجئ للفريسة، كان مرورًا عابرًا ولم يتطلب الأمر منا أكثر من طلقة واحدة. ولم يكن ثمة من يرد على نيراننا، ثم انطلقنا ثانية بعد أن أضفنا حصصًا الهزيلة إلى موتى العالم.

ووضعت سماعتي على أذني ليتحدث إليَّ الكابتن «تروين».
مال لي:

- سنقوم بجولة قصيرة.

ثم أردف قائلاً في رقة:

- إن منظر الغروب عند منطقة كالكير رائع للغاية. يجب ألا
تفوتك رؤيته.

كان يتحدث كمضيف يعرض جمال ضيعته. وتبعنا الغروب
لمسافة مائة ميل فوق باي دالونج. نظر الوجه المارسي بخودته
إلى الحزن إلى الخارج، إلى الأدغال الذهبية التي تكتنفها نتوءات
الحناءات من الحنجر المسامي، وتوقف نزيف الجرح الذي خلفته
الجريمة.

(٥)

أصر الكابتن «تروين» في تلك الليلة على أن يستضيفني في بيت
الافيون، وإن كان هو نفسه لن يدخن. إنه يحب الرائحة كما يقول،
ويحب الإحساس بالهدوء في نهاية اليوم. بيد أن مهنته تقضي بالآ
تطول فترة استرخائه إلى أبعد من ذلك. كان ثمة ضباط يدخنون،
ولكنهم من ضباط القوات البرية، أما هو فكان لا بد له من أن ينال
قسطه من النوم. ورددنا في مضجع صغير ضمن صف من المضاجع
أشبه بمكان النوم في مدرسة داخلية. وأعد لي صاحب البيت، وهو

صيني، الغلايين. لم أدخن منذ هجرتني «فونج». وفي الناحية المقابا، كانت ترقد امرأة خلاسية، لها ساقان ممشوقتان جميلتان، وقد انفذ حول نفسها بعد أن فرغت من التدخين، وهي تقرأ مجلة نسائية ذات ورق مصقول. وفي المضجع المجاور لها ألفت صينيين في متوسط العمر، وقد فرغا من مهمتهما، يرتشفان الشاي، وقد نحا الغلايين جانبًا. قلت:

- قارب «السامبان» - هذا المساء - أكان منه ضرر؟

قال «تروين»:

- من يدري؟ لدينا أوامر أن نطلق النار على أي شيء يقع عليه بصرنا في هذا الجزء من النهر.

ودخنت غليونني الأول. وحاولت أن أتخاشى التفكير في كل الغلايين التي دخنتها في البيت. قال «تروين»:

- عملية اليوم ليست أسوأ ما صادفه إنسان مثلي، فقد كان بوسعهم أن يسقطونا أثناء تحليقنا فوق القرية. كانت مخاطرنا جسيمة مثل مخاطرهم. إن ما أمقته هو القصف بقنابل «النابالم». تضمن الأمان وأنت على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم.

وندت عنه حركة تنبئ عن يأس.

- أرايت الغابة وهي تشتعل بالنيران، يعلم الله ماذا يمكن أن تراه وأنت على الأرض. لقد احترق التعساء وهم أحياء، غمرتهم ألسنة اللهب كما تغمرهم المياه، لقد غرقوا وسط بحر من النيران.

واستطرد ساخطًا على عالم بأكمله يرفض الفهم:

- أنا لا أخوض حربًا استعمارية. أظن أنني أرتضي لنفسي أن أفعل كل هذا من أجل أصحاب المزارع في دلتا النهر الأحمر؟ خير لي أن أحاكم عسكريًا. إننا نخوض نيابة عنكم كل حروبكم، بيد أنكم تخلفون لنا إثمها.

قلت له:

- أحدثك عن قارب «السامبان».

- نعم، وهذا «السامبان» أيضًا.

ورمقني وأنا أمد يدي لأتناول غليونني الثاني:

- إنني أغبطك على ما تملك من وسائل للهرب.

- إنك لا تعرف ما الذي أهرب منه. ليس من الحرب، فهي ليست من شأني، وأنا غير متورط فيها.

- ستورطون فيها جميعًا... يومًا ما.

- ليس أنا.

- ألا زلت تعرج؟

- كان لهم الحق في أن يطلقوا عليّ النار، بيد أنهم لم يحاولوا مجرد الإقدام على هذا. لقد كانوا يهدمون برجًا. يحسن بالمرء أن يتجنب دائمًا إبادة مجموعات الجنود، حتى وإن كان هذا في ميدان «بيكاديللي».

- سيحدث شيء ما ذات يوم، وستحيز إلى أحد الجوانب.

- لا. إنني عائد إلى إنجلترا.

- تلك الصورة التي عرضتها عليّ ذات مرة...

- أوه، لقد مزقتها إربًا، إذ إنها هجرتني.

- آسف.

- هكذا تجري الأمور. يهجر المرء الناس ثم تدور عليه الدائرة، وغالبًا ما يجعلني هذا أومن بالعدالة.

- أوافقك على هذا. أذكر أن أول مرة أسقطت فيها قنابل «النابالم» كانت فوق القرية التي وُلدت فيها، القرية التي يعيش فيها مـ... «ديوا» صديق أبي القديم. وشرع الخباز - وما كان أشد شغفٍ به في الطفولة - يعدو وسط الحمم التي أسقطتها. إن أداء «فيشي» لم يقصفوا بلدهم بالقنابل. لقد انتابني شعور بأنهم أسوأ منهم جميعًا.

- ولكنك لا زلت ماضيًا في طريقك.

- تلك كانت حالات مزاجية تلم بي مع «النابالم» فقط. أما فيما عدا ذلك فإنني أرى أنني أدافع عن أوروبا. ولعلك تعرف ما يفعله الفريق الآخر. إنهم أيضًا يرتكبون أفعالاً مروعة، إذ إنهم عندما أخرجوا من هانوي عام ١٩٤٦ خلفوا بين أهلها ذكريات مفرعة، لمن ظنوا أنهم مدوا لنا يد المساعدة. فقد عُثر على فتاة في الجبانة، وتبين أنهم لم يكتفوا بترئديها، بل شوهاوا حبيبها وحشوا...

- وهذا هو السبب في أنني لا أريد التورط.

- ليست المسألة مسألة عدالة أو عقل. لقد تورطنا جميعًا في لحظة انفعال ثم تعذر علينا الفكاك. الحب والحرب، دائمًا يقارن أحدهما بالآخر.

وتطلع بحزن عبر عنبر النوم حيث استلقت الخلاسية مستمتعة بلحظة سلام عابرة عظيمة. قال:

- لم يكن لي خيار. ثمة فتاة ورطها أبواها، ترى ما هو مصيرها بعد أن يسقط هذا الميناء؟ إن فرنسا ليست سوى نصف وطنها...
- هل سيسقط؟

- إنك صحفي، وتعرف أكثر منا أننا عاجزون عن إحراز النصر، وتعرف أن الطريق إلى هانوي يقطع كله كل ليلة وتُزرع فيه الألغام. تعرف أننا نخسر كل عام دفعة من خريجي الكلية الحربية. لقد خسرنا تقريبًا في عام ٥٠، وحدد لنا «دو لاتر» عامين لتحقيق النصر، هذا كل ما في الأمر. بيد أننا محاربون محترفون، يتعين علينا أن نواصل الحرب حتى يطلب منا السياسيون أن نتوقف. ربما يلتقون معًا ويتفقون على السلام على أساس الشروط التي كان يمكن لنا أن نحققها منذ البداية، ومن ثم تضيع كل هذه الأعوام هباء.

وإذا بوجهه القبيح الذي غمز لي به قبل أن يبدأ عملية الانقضا ض نرسم عليه معالم الوحشية التي تتميز بها مهنته. بدا لي هذا الوجه وكأنه قناع لوجه من النوع الذي تطل منه عينا الطفل من خلال الثقوب التي نقشت على الورق.

- إنك لن تفهم معنى «الهباء» الذي أقصده يا «فاولر»، فلست واحدًا منا.

- ثمة أمور أخرى في حياة المرء تضيع معها السنين هباء. وأسند يده إلى ركبتيه بحركة غريبة مطمئنة، وكأنه الرجل الأكبر سنًا. قال:

- خذها معك إلى البيت، فهي خير لك من غليون.

- وكيف تسنى لك أن تعرف أنها يمكن أن تأتي معي.
- لقد ضاجعتها شخصيًا، وكذلك الملازم «بيران». خمسائه
قرش.

- ثمن باهظ.

- أحسبها قد ترضى بثلاثمائة. ولكن المرء في مثل هذه الظروف
لا يعبأ بالمساومة.

لم تبد لي نصيحته شيئًا مقبولًا. إن جسم الإنسان محدد بالتصرفات
التي يسعه أن يؤديها، وكان جسدي قد جمدته الذاكرة. إن ما لمسناه
يداي في تلك الليلة ربما كان أجمل مما اعتدت عليه. لكننا لم
أسرى الجمال وحده. لقد كانت تستخدم نفس العطر، وفجأة، وفي
اللحظة التي بدأت فيها عملية المفاضلة، أكد لي طيف من فقدتها أنه
أقوى من هذا الجسد الذي استلقى مستسلمًا بين يدي. ابتعدت عنها
واستلقيت على ظهري وزايلتني شهوتي. وقلت لها كاذبًا:

- آسف، لست أدري ما بي.

قالت في عذوبة ساحرة، وقد أخطأت فهمي:

- لا تبش فكثيرًا ما يحدث ذلك. إنه الأفيون.

- نعم، الأفيون.

وتوسلت إلى السماء أن يكون الأفيون.

الفصل الثاني

(١)

كان شيئًا جديدًا عليّ، فهذه أول مرة أعود فيها إلى سايجون ولا أجد فيها من يستقبلني مُرحبًا. وعندما كنت في الميناء تمنيت لو أن ثمة مكانًا آخر غير شارع كاتينات أوجه إليه التاكسي. وسألت نفسي: «تري هل خف ألمي قليلًا عما كان عليه ساعة رحيلي؟»، وحاولت جاهدًا أن أقنع نفسي بأن الأمر كذلك. ما إن بلغت منبسط الدرج حتى ألفت الباب مفتوحًا، ودب في نفسي أمل غير متوقع تقطعت معه أنفاسي. قصدت الباب في تأنٍ بالغ، وظل الأمل يداعبني إلى أن بلغت الباب. وسمعت صريرًا الكرسي. وما إن دنوت من الباب حتى وقع بصري على حذاء لكنه ليس حذاء امرأة. أسرعت بالدخول، وإذا بي أرى «بايل» وهو يرفع ثقله من على الكرسي الذي اعتادت «فونج» أن تجلس عليه. قال: - أهلاً «توماس».

- أهلاً «بايل»، كيف دخلت؟
- قابلت «دومنجيز»، كان آتياً بريدك، فسألته أن أبقى هنا.
- هل نسيت «فونج» شيئاً ما؟
- أوه، لا. ولكن أنبأني «جو» أنك ذهبت إلى المفوضية. ورأيت من الأيسر لنا أن نتحدث هنا.
- عن ماذا؟
- وندت عنه حركة تتم عن الارتباك وكأنه صبي طُلب منه الحديث في حفل مدرسي وتعذرت عليه الكلمات الناضجة.
- أكنت مسافراً؟
- نعم، وأنت؟
- أوه، كنت في جولة.
- ألا زلت تلعب بالبلستيك؟
- كشف عن أسنانه في امتعاض. قال:
- خطاباتك هناك.
- بلمحة سريعة أدركت أن ليس فيها ما يعنيني الآن. فقد كان بينها خطاب من مكتبي في لندن وعدة خطابات يبدو أنها حوالات مالية، وخطاب من البنك الذي أتعامل معه. قلت له:
- كيف حال «فونج»؟
- ولمع وجهه تلقائياً، وكأنه لعبة من لعب الأطفال الكهربائية التي تستجيب لصوت معين. قال:
- أوه، إنها بخير.
- ثم زم شفتيه وكأنه أفرط في الحديث.

- اجلس يا «بابل». معذرة حتى ألقى نظرة على هذا. إنه من مكثبي.
فضضت الخطاب. كيف تتحقق الآمال في غير حينها. كتب إليَّ
رئيس التحرير قائلاً إنه نظر بعين الاعتبار لرسالتي الأخيرة، وإنه نظرًا
للموقف المضطرب في الهند الصينية الذي ترتب على وفاة الجنرال
«دولاتر» والانسحاب من هوا بين فقد قبل اقتراحي. وقد عين مؤقتًا
محررًا للسياسة الخارجية ويود أن أبقى في الهند الصينية لعام آخر على
الأقل. طمأنني عن غير فهم كامل لموقفي قائلاً: «سنحتفظ بكرسيك
جاهزًا لك». لقد اعتقد أنني كنت قلقًا على الصحيفة والوظيفة.
وجلست قبالة «بابل»، وأعدت قراءة الخطاب الذي أتى متأخرًا
للغاية. وللحظة سريعة أحسست بنشوة كتلك النشوة الخاطفة التي
بحسبها المرء ساعة الصحو قبل أن يستعيد قدرته على التنبه الكامل
والتذكر. سألني «بابل»:

- أخبار سيئة؟

- لا.

حدثت نفسي قائلاً إن الأمر لن يختلف على أي حال فإن إمهالي
عامًا آخر لن يعطل اتفاق الزواج. سألته:

- هل تزوجت؟

- لا.

واحمر وجهه خجلًا، وما أيسر ذلك عليه. وأردف قائلاً:
- الحقيقة أنني أمل الحصول على إذن خاص بالسفر، حيث يتسنى
لنا الزواج في بلادي زواجًا سليمًا.
- أيكون أكثر سلامة إذا ما تم في بلادك؟

- حسنًا، هذا ما ارتأيت، عسير عليّ أن أبوح لك بهذه الأمور.
يا «توماس» فأنت إنسان ساخر. ولكن تلك سمة من سمات
الوقار والرسميات، سيكون أبي وأمي هناك، إذ إنها ستكون بشكل
ما واحدة من العائلة. وهذه مسألة لها أهميتها بالنسبة للماضي
- الماضي؟

- أنت تعرف ما أعنيه. فأنا لا أريد أن أخلفها ورائي وثمة وصمة..
- هل ستخلفها ورائك؟

- أظن ذلك. إن أمي امرأة مذهشة. إنها ستصحبها معها في جولانها
وتقدمها للناس، وهي كما تعرف طريقة تفيدها في الاندماج
كما ستساعدنا من أجل تجهيز بيت لي.

لم أكن أدري أشعر بالأسى من أجل «فونج» أم لا، كانت تتطلع
من بعيد إلى ناطحات السحاب وتمثال الحرية، ولكن لم يكن لديها
سوى فكرة هزيلة للغاية عما قد تحتويه. الأستاذ «بايل» وزوجته
والنوادي التي تتناول فيها النساء طعام الغداء. ترى هل تتعلم منهن
لعبة «الكاناساتا». وطافت بخاطري صورتها في أول ليلة التقيت
بها في «الجران موند»، وهي في ثوبها الأبيض تخطر في دلال فتان
بقدميها اللتين بلغتا الثامنة عشرة من العمر. وتذكرتها منذ شهر مضى
تساوم في سعر اللحم عند محل جزارة في بوليفار دو لا سوم. ترى
هل سترونها محال البقالة الصغيرة النظيفة ذات البريق في نيويانجلند
حيث يُباع كل شيء حتى الكرفس ملفوفًا في ورق السلوفان؟ ربما
يرونها ذلك. ولكنني لا أستطيع أن أؤكد ذلك. ومن عجب أنني
ألفيت نفسي أردد ما قاله «بايل» منذ شهر مضى:

- كن دمثًا معها يا «بابل». لا تكرهها على شيء، إنها تتألم مثلي ومثلك.

طبعًا. طبعًا يا «توماس».

- إنها تبدو ضئيلة هشة، وهي خلاف نساتنا، ولكن لا تنظر إليها على أنها... حلية.

- إنه لأمر مضحك يا «توماس»، إذ كيف تأتي الأحداث على غير ما نتوقع. لقد كنت فرعًا من هذا الحديث، فقد حسبت أنك ستكون قاسيًا معي.

- كانت لديّ فسحة من الوقت للتفكير وأنا في الشمال إذ كانت هناك امرأة، ربما رأيت ما رأيته أنت في مستودع الخردة. من الخير أنها ذهبت معك. ربما كنت خلفتها ورائي ذات يوم مع شخص مثل «جرانجر»، مجرد حلية.

- وهل يمكن أن نظل أصدقاء يا «توماس»؟

- أجل بكل تأكيد، فقط أفضل ألا أرى «فونج». لقد خلفت لي هنا ما يكفي، وهو يحيط بي من كل جانب. لا بد لي أن أبحث عن شقة أخرى عندما يسمح لي وقتي بذلك. وأرخص ساقيه ونهض.

- إنني مسرور غاية السرور يا «توماس». لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى سروري. أعرف أنني قلت هذا من قبل، ولكنني كنت أتمنى حقيقة لو كان هذا مع إنسان آخر سواك. وأنا مسرور أنه أنت يا «بابل».

لم تكن المقابلة الشخصية هي الطريقة التي تنبأت بها. ولكن

تحت مخططات الغضب السطحية، وعلى مستوى أبعد غورًا إلى حدّ ما تتشكل بالضرورة خطة العمل الأصيلة، إذ طوال الوقت الذي كنت أغضب فيه من براءته كان ثمة قاضي في داخلي انتهى إلى حكم لصالحه، وقارن بين منهجي الذي يستخف بكل شيء وبين مثاليته وأفكاره التي لم يكتمل نضجها بعد، والتي بناها على هدي مؤلفات «يورك هاردنج». آه، لقد كنت على حق بالنظر إلى الحقائق الواقعة، ولكن ألم يكن هو الآخر على حق من حيث إنه شاب ويخطئ. وأليس من المحتمل أن يكون الإنسان الأفضل لفتاة لتقضي حياتها معه؟

وتصافحنا بطريقة رسمية، ولكن كان ثمة خوف لم تكتمل معالمه بعد، دفعني إلى أن أمشي في أثره حتى أول السلم ثم ناديته. ربما كان هناك نبي أيضًا مثلما يوجد قاضي في ساحات القضاء الباطنية، حيث تتخذ قراراتنا الصادقة.

- «بايل»، لا تثق كثيرًا في «يورك هاردنج».

- «يورك»!

وحدجني بنظرة وهو واقف عند أول منبسط.

- نحن أقدم الشعوب المستعمرة يا «بايل»، ولكننا تعلمنا بعض الحقيقة. تعلمنا ألا نلعب بعيدان الثقاب. إن هذه القوة الثالثة لا توجد إلا بين دفتي الكتب، هذا كل ما في الأمر. الجنرال «ني» ليس إلا زعيم عصابة قوامها بضعة آلاف من الرجال، إنه يفتقر إلى الديمقراطية الوطنية.

خلته يحملق فيّ من خلال صندوق للخطابات ليتبين من الذي

هناك الآن. وهو الآن بعد أن أسدل الغطاء، قد احتجز هذا المتطفل غير المرغوب فيه. احتجبت عني عيناه. قال:

- لست أدري ما الذي تعنيه يا «توماس».

- الدراجات المتفجرة. لقد كانت دعابة طريفة حتى وإن فقد فيها رجل

إحدى قدميه. أولى بك يا «بابل» ألا تثق بأناس مثل «تي». إنهم

لم يخلصوا الشرق من الشيوعية. نحن نعرف هذا النوع من الناس.

- نحن؟

- الاستعماريون القدامى.

- حسبك لا تتحاز لأي جانب.

- أنا لا أنحاز يا «بابل». ولكن إذا شاء أحد أن يسيء استخدام ما

في حوزتك من معدات فاترك ذلك لـ «جو». عد إلى بيتك مع

«فونج» وانس القوة الثالثة.

قال بطريقة رسمية:

- إنني دائماً وبكل تأكيد أنظر إلى نصيحتك بعين الاهتمام. حسناً،

سأزورك قريباً.

- أتوقع هذا.

(٢)

مرت الأسابيع تبعاً دون أن أجد لنفسى شقة جديدة. لم يكن السبب

أنني لم أجد فسحة من الوقت، فقد عادت الأزمة السنوية للحرب

من جديد: إذ حل موسم الحرارة والأمطار في الشمال، وخرج الفرنسيون من هوا بين، وانتهت معركة الأرز في تونكين، وكذلك معركة الافيون في لاوس. وأصبح في استطاعة «دومنجيز» أن يغطي كل ما هو مطلوب في الجنوب. وأخيرًا أكرهت نفسي على رؤية شقة في مبنى مما يُقال عنه إنه مبنى حديث (معرض باريس ١٩٣٤) يقع في الطرف الآخر من شارع كاتينات وراء «الكوننتنتال». وكانت هذه الشقة سكنًا مؤقتًا في سايجون لأحد أصحاب مزارع المطاط قبل أن يزعم العودة إلى بلاده. أراد أن يبيع كل محتوياتها من دون استثناءات. لطالما تساءلت عن محتويات الشقة، وعرفت أن فيها عددًا كبيرًا من أعمال الحفر التي كان يضمها «صالون باريس» فيما بين عامي ١٨٨٠ و ١٩٠٠. وكان أهم ما فيها امرأة ممثلة النهدين، لها تصفيفة شعر فريدة، وعليها ثياب شبكية تكشف بصورة ما عن فلقه أردافها، بينما تغطي ساحة المعركة. كان المالك أكثر جرأة في الحمام لوجود مستنسخات من أعمال «فيلسيان روبس».

سألته:

- أنهوى الفن؟

ابتسم لي ابتسامة متكلفة كأنه رفيق متأمر. كان بدينا له شارب أسود صغير، وتغطي رأسه شعيرات رقيقة. قال:

- أفضل لوحاتي موجودة في باريس.

وكان بحجرة الاستقبال مظفأة سجاجير طويلة غير معتادة على هيئة امرأة عارية بوعاء في شعرها. وكان ثمة أيضًا بعض الزخارف الصينية لفتيات عاريات يحتضن نمورًا، وحلية غريبة لفتاة تركب

دراجه، وقد تجردت من ملابسها حتى خصرها. وعلق في مواجهة
سريه الضخم بحجرة النوم لوحة زيتية مصقولة لفتاتين مضطجعتين
معاً. سألت عن ثمن الشقة من دون المجموعة الفنية ولكنه أبى أن
يفصل بين الاثنين.

سألني:

- ألسنت من هواة جمع اللوحات الفنية؟

- لا.

- عندي بعض الكتب أيضًا سأضمها إلى المجموعة. وإن كنت
قد عزمت على أن آخذ هذه معي.

وفتح خزانة الكتب ذات الواجهة الزجاجية وعرض لي مكتبته،
كانت بها طبعات مصورة ثمينة لـ «أفروديت» و«نانا»، وكان من بينها
كذلك «لأجارسون» بل وعدد من كتب «بول دي كوكس». وراودتني
نفسي أن أسأله إن كان يود أن يبيع نفسه كذلك مع مجموعته. فقد
اعتاد التنقل معها، وكان كإحدى قسماتها. قال:

- إذا كنت تعيش وحيداً في البلاد الحارة فإن مجموعة من الأعمال
الفنية هي خير رفيق.

وتذكرت «فونج» لغيابها التام عني. دائماً؛ إذ ما لذت بالصحراء
فإن الصمت يصرخ في أذنيك.

- أحسب أن صحيفتي لن تسمح لي بشراء مجموعة فنية.

- بالطبع لن تذكر هذا في الإيصال.

أحسست بالسعادة لأن «بايل» لم يره. إذ ربما وجد «بايل» في
قسمات هذا الرجل الصورة التي يتخيلها عن «الاستعماري القديم»

الذي يشعر تجاهه بالنفور. عندما خرجت من عنده كانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة والنصف، وقصدت «البافيلون» لأشرب زجاجة بيرة مثلجة. «البافيلون» مقهى وملتقى للنساء الأوروبيات والأمريكيات. كنت على ثقة من أنني لن أرى «فونج» هناك. مر الحقيقة كنت أعلم على وجه الدقة واليقين أين تكون في مثل هذا الوقت من النهار، إنها ليست الفتاة التي تحطم عاداتها. وهكذا فإنني بعد أن خرجت من شقة المزارع عبرت الطريق لتجنب المرور أمام بار اللبن حيث اعتادت في مثل هذا الوقت من النهار أن تتناول شرابها من المولت والشوكولاتة.

وكانت فتاتان أمريكيتان صغيرتان تجلسان إلى المائدة المجاورة. وكانتا في هذا القبط أنيقتين في هندامهما نقيتين، وشرعتا تغترفاً الأيس كريم بالملعقة، وعلقت كل منهما على كتفها اليسرى حقيه تماثل حقيه الأخرى، عليها شارة لنسر نحاسي. وكانت سيقانهما أيضًا متماثلة، طويلة ورشيقة. وأنفاهما فيهما انحناء خفيف. وكانا تأكلان الأيس كريم باهتمام وكأنهما تجربان تجربة في معمل الكلية. وتساءلت ما إذا كانتا من رفاق «بايل». كانتا فاتتين. ووددت لو بعثت بهما إلى الشقة أيضًا. أتتا على الأيس كريم. ونظرت إحداهما إلى ساعتها وقالت: «يحسن بنا أن ننصرف حتى نلتزم جانب الأمان». وفكرت في غير اكتراث أي موعد هذا الذي يشغلها.

- قال «وارين» يجب ألا نمكث إلى ما بعد الحادية عشرة وخمس

وعشرين دقيقة.

- لقد تعدت ذلك الآن.

لا شك أن في البقاء متعة، ولست أدري لِمَ كل هذا. أتعرفين أنتِ؟

- ليس على وجه الدقة، ولكن «وارين» فضل ألا نبقي.
- ألحسينها مظهرة؟

- لقد سبق لي أن شهدت مظاهرات كثيرة.

قالتها الفتاة الأخرى بصوت خافت كأنها سائحة غرقت لأذنيها في الكنائس. ونهضت وتركت على المائدة ثمن المرطبات. وقبل أن تنصرف ألقت نظرة حول المقهى. وعكست المرايا الصورة الجانبية لوجهها من كل زاوية منه وقد غطاه النمش. ولم يبقَ غيري وغير سيدة فرنسية في متوسط العمر، زرية الهيئة تحاول جاهدة أن نجمل وجهها ولكن دون جدوى. أما هاتان الفتاتان فما كانتا بحاجة إلى تجميل، جرة سريعة بأحمر الشفاه، ومشط في الشعر. واستقر نظر الفتاة الأمريكية عليَّ للحظة خاطفة. لم تكن نظرتها كنظرات النساء، بل نظرة رجل جادة للغاية، وتبدو كأنما تمعن التفكير في بعض الأمور. وفجأة استدارت بسرعة إلى رفيقتها: «خير لنا أن ننصرف من هنا». وراقبتهما في تراخ وهما تسيران جنبًا إلى جنب في الشارع الذي تناثرت فوقه أشعة الشمس. كان من المستحيل عليَّ أن أتصور أيًا منهما فريسة لآلام القذارة. فهما لا علاقة لهما بعرق الجنس وملاءة السرير المثنية. ترى هل تستخدمان مزيلًا للروائح أثناء النوم؟ وألفيتني للحظة أغبطهما لعالمهما النظيف الذي يختلف اختلافًا بينًا عن هذا العالم الذي أقطنه، الذي تحول فجأة إلى شظايا متناثرة لسبب غير واضح.

تطارت ناحيتي اثنتان من المرايا المعلقة على الجدران، وسقط
على الأرض في منتصف الطريق. وانكفأت المرأة الفرنسية الزرراء
الهيئة على ركبتيها وسط حطام من المقاعد والموائد، وفتح
حافظتها دون أن يقع منها شيء وسقطت في حجري، وبقيت مكانها
حيث كنت جالساً من قبل في غير اكتراث، رغم أن المائدة التي د.
جالساً إليها لحقت بالحطام الذي أحاط بالمرأة الفرنسية. وا.ه.
المقهى بأصوات غريبة منبعثة من الحديقة: التقاطر الرتيب لـ.ه.
نافورة. وألقيت نظرة إلى البار فألفيت صفوفاً من الزجاجات المهشمة.
وقد انسكبت محتوياتها عبر أرضية المقهى وصنعت جدولاً متعاً.
الألوان: شراب «البورتو» الأحمر، ونبذ «الكرانترو» البرتقالي.
وشراب «الشارتروز» الأخضر، و«الباستيس» الأصفر القاتم. اعتدل
المرأة الفرنسية في جلستها ونظرت في هدوء حولها بحثاً عن حافظتها
فأعطيتها لها. شكرتني بطريقة رسمية وهي جالسة فوق الأرضية
وتحققت من أنني لم أسمعها جيداً، إذ كان الانفجار قريباً جداً حتى
إن طبله أذني كانت ما تزال بحاجة إلى بعض الوقت لتخفف من أثر
ضغط الانفجار عليها.

قلت في نفسي وقد غلب عليَّ إحساس نكد: «دعابة أخرى من
دعابات البلاستيك، ترى ما الذي يتوقع السيد «هنج» أن أكتبه الآن؟»
ولكن ما إن دخلت إلى ميدان جرانبير ورأيت سحب الدخان الكثيف
حتى أدركت أنها لم تكن هذه المرة دعابة. كان الدخان ينبعث من
السيارات المحترقة في موقف السيارات المواجه للمسرح القومي
وتناثرت شظايا السيارات فوق أرض الميدان، ورأيت رجلاً قد فقد.

..أقبله ملقى عند سور الحديقة وهو يتلوى. وتراحت حشود الناس
الوافدين من شارع كاتينات وبوليفار بونار. وتنبهت طبله أذني التي
اصمها الانفجار المباغت إلى أصوات سرينة عربات الشرطة وأجراس
مربات الإسعاف والحريق. وللحظة خاطفة كنت قد نسيت أن «فونج»
فانت بالضرورة في بار اللبن على الجانب الآخر من الميدان، فقد كان
نمة ستار من الدخان مسدلاً بيننا واستحال عليّ أن أبصر من خلاله.
وخطوت إلى وسط الميدان فأوقفني أحد رجال الشرطة. كانوا قد
شكلوا سياجاً حول السور ليمنعوا الحشود المتزايدة وسرعان ما بدأت
النقلات في الظهور. وتضرعت إلى الشرطي الواقف أمامي قائلاً:
- اسمح لي بأن أعبر، نمة صديق لي...
- قف هناك، كل إنسان هنا له أصدقاء.

وتنحى جانباً ليسمح لقسيس بالمرور، وحاولت أن أقتفي أثر
القسيس ولكن الشرطي شدني إلى الخلف.
وقلت له: «صحافة». وبحث عبثاً عن حافظة نقودي التي أحتفظ
فيها ببطاقتي الشخصية ولكنني لم أعثر عليها. ترى هل خرجت في
ذلك اليوم من دونها؟ وقلت له:

- أخبرني على الأقل بما حدث لبار اللبن.
بدأ الدخان يخف تدريجياً، وحاولت أن أرى شيئاً، ولكن الحشود
التي تفصل بيننا كانت كبيرة جداً، وقال شيئاً لم أتبينه فسألته:
- ماذا قلت؟

فردد ما قال:

- لا أعرف شيئاً. ارجع. إنك تعوق الطريق أمام النقلات.

ترى هل سقطت مني حافظة نقودي في «البافيلون»؟ واستدردت لأعود وإذا بي أجد «بابل». وصاح بي:

- «توماس».

- «بابل»، بحق المسيح أين جواز مفوضيتك؟ علينا أن نعبر. إن «فونج» في بار اللبن.

- لا، لا.

- إنها هناك يا «بابل». إنها تذهب إلى هناك دائمًا في الحادية عشر والنصف، علينا أن نبحث عنها.

- إنها ليست هناك يا «توماس».

- وكيف عرفت؟ أين بطاقتك الشخصية؟

- لقد حذرتها من الذهاب.

واستدردت ناحية الشرطي قاصداً أن أنحيه جانباً وأن أندفع عبر الميدان. قد يطلق عليّ النار ولكنني لن أبالي، وهنا ملأت عليّ مشاعري كلمة «حذرتها». وأمسكت بذراع «بابل»، وقلت له:

- حذرتها؟ ماذا تعني بكلمة «حذرتها»؟

- طلبت منها أن تبتعد عن المكان هذا الصباح.

والتأمت أطراف الموضوع في ذهني، وقلت له:

- وماذا عن «وارين»؟ من هو «وارين»؟ لقد حذر هاتين الفتاتين أيضًا.

- لا أفهمك.

- يجب ألا تقع إصابات بين الأمريكيين، ليس هذا هو الواجب؟ شقت عربة إسعاف طريقها قادمة من شارع كاتينات إلى وسط

الميدان، وتنحى الشرطي الذي أوقفني جانباً ليفسح لها طريقاً. وكان الشرطي الواقف بجواره منهمكاً في مناقشة، فدفعت «بابل» أمامي إلى وسط الميدان وأنا من ورائه قبل أن يتمكن أحد من إيقافنا.

الفينا أنفسنا وسط مناحة. وتمكن رجال الشرطة من أن يمنعوا غيرنا من دخول الميدان، ولقد خارت قواهم وهم يحاولون إخلاء الميدان ممن بقوا على قيد الحياة ومن الوافدين الجدد. زاد عبء العمل على الأطباء حتى ما كان في وسعهم الالتفات للموتى، وهكذا خلفوا الموتى لأصحابهم، ذلك لأن المرء يستطيع أن يمتلك ميتاً مثلما يمتلك مقعداً. واتخذت امرأة مكانها على الأرض وفي حجرها ما تبقى لها من طفلها، والتزاماً بنوع من الحياء غطت طفلها بقبعتها الريفية المصنوعة من القش. وجلست جامدة في وجوم. وما أذهلني أكثر من أي شيء آخر هو الوجوم الذي ساد الميدان. كان أشبه بكنيسة زرتها ذات يوم أثناء القداس، الأصوات الوحيدة بها هي تلك التي تنبعث ممن يقومون بالصلاة، فيما خلا الأوربيين الذين تراهم هنا وهناك وقد انخرطوا في بكاء وتضرع، ثم خيم عليهم الصمت ثانية وكأنهم صمتوا حياء مما يتسم به الشرق من تواضع وتجلد واحتشام. كان الجذع الآدمي الذي فقد ساقيه لا يزال يتفرض قرب سور الحديقة كأنه دجاجة ذبيحة. رجحت حين نظرت إلى قميص الرجل أنه كان يعمل سائقاً لعربة «تريشو». قال «بابل»:

- هذا مريع.

ونظر إلى البلبل الذي علق بحذائه وقال بصوت أجش:

- ما هذا؟

- دم، ألم يسبق لك أن رأيته في حياتك؟
- لا بد لي من تنظيفه قبل أن أقابل الوزير.
- لا أحسب أنه كان يدري معنى ما يقول، فقد كان هذا أول عهده بحرب حقيقية يراها. لقد سبق له أن سار بقاربه في فات ديم ولكن كان ذلك بالنسبة له أشبه بحلم يترأى لتلميذ. وعلى أي حال ففي نظره أن الجنود لا قيمة لهم.
- ها أنت ترى ما الذي يمكن أن تفعله أسطوانة من «الديولاكتون» حين تكون بين أيدي أثيمة.
- ودفعته بيدي التي استقرت على كتفه لينظر حواليه. قلت له:
- هذه هي الساعة التي يعج فيها الميدان دائماً بالنساء والأطفال، إنها الساعة التي يتردد فيها الناس للشراء. لماذا اختيرت هذه الساعة دون غيرها من ساعات النهار؟
- قال بحماسة:
- كان من المقرر أن يُقام استعراض عسكري.
- وكان أملككم أن توقعوا ببعض الضباط، ولكن تقرر إلغاء الاستعراض يا «بايل».
- لم أكن أعرف.
- لم تكن تعرف؟
- ودفعته وسط بقعة من الدم حيث كانت إحدى النقالات موضوعة.
- يحسن أن تصلك معلومات دقيقة.
- قال وهو ينظر إلى حذائه:
- كنت خارج المدينة، كان واجباً عليهم وقف العملية.

سألته:

- وتحرمون من هذا المجون؟ أتتوقع أن يتخلى الجنرال «تي» عن استعراضه؟ إن هذا خير من الاستعراض، فالنساء والأطفال يمثلون أخبارًا وقت الحرب، أما الجنود فلا. إن هذا من شأنه أن يحقق مغنمًا لوكالات الأنباء العالمية. ها أنت يا «بايل» قد أبرزت الجنرال «تي» على الخريطة كما يحلو له، وظفرت بالقوة الثالثة والديمقراطية الوطنية على حذائك الأيمن. عد إلى «فونج» في بيتك وأنبئها بأخبار عملك البطولي، فثمة عشرات على الأقل من بني وطنها لتحزن عليهم.

قدم على عجل قسيس قصير بدين حاملاً شيئًا ما فوق طبق مغطى بغطاء. وكان «بايل» قد ظل صامتًا لفترة طويلة ولم يتبق لديّ ما أقوله، بل إنني في الحقيقة أسرفت في القول. بدا شاحبًا كسيرًا وعلى وشك الإغماء. وقلت في نفسي: «ما الفائدة؟ سيظل ساذجًا دائمًا وأبدًا، وليس في وسعك أن تلوم السذج. فهم دائمًا أبرياء. وكل ما تستطيع هو أن توجههم أو أن تمحوهم. فالسذاجة ضرب من الخبل».

قال:

- إن «تي» ما كان يرتضي أن يقدم على هذا، أنا على يقين. لا بد أن شخصًا ما خدعه. الشيوعيون...

لقد كانت نواياه الطيبة وجهله هما درعه الواقية. تركته واقفًا في الميدان واتخذت طريقي إلى شارع كاتينات حيث تقوم الكاتدرائية البشعة الصورة ذات اللون القرنفلي حاجزًا يسد الطريق. ورأيت

الناس وقد هرعوا إليها. لا بد أنهم يجدون في الضراعة إلى الموتى عن الموتى سلوى لهم.

وعلى خلافهم كان عندي ما يبرر الشكر. أفلم تكن «فونج» على قيد الحياة؟ ألم تتلقَ «فونج» تحذيرًا؟ بيد أن ما طاف بذاكرتي كان صورة الرجل المبتور في وسط الميدان والطفل في حجر أمه. إنهم لم يتلقوا تحذيرًا إذ لم يكن لهم شأن كبير. ولو قدر أن يقام الاستعراض ألم يكن من المحتمل أن يكونوا هناك أيضًا بدافع حب الاستطلاع لمشاهدة الجنود والاستماع إلى الخطباء ولينثروا الزهور؟ إن قبلة زنتها مائتا رطل لن تميز. ترى كم عدد الموتى من الضباط الذي يبرر موت طفل أو سائق عربة «تريشو» إذا ما كنت بصدد بناء جبهة وطنية ديمقراطية؟ وأوقفت عربة «تريشو» آلية وطلبت من السائق أن يتجه بي إلى كاي ميثو.

الجزء الرابع

الفصل الأول

كنت قد أعطيت «فونج» نقودًا لتذهب مع أختها إلى السينما حتى
أضمن لها الأمان بعيدًا عن الطريق. وخرجت لتناول الغداء مع
«دومنجيز» ثم عدت إلى حجرتي وانتظرت بها إلى أن نادى عليَّ
«فيجو» في العاشرة. واعتذر عن تناول أي شراب، قال إنه متعب
ل للغاية، والشرب قد يسلمه للنوم. كان يومًا طويلًا حافلًا.

- جريمة قتل وموت مباحة؟

- لا، سرقات تافهة وبضع عمليات انتحار، هؤلاء الناس
يعشقون القمار وإذا خسروا كل شيء قتلوا أنفسهم. ربما
ما كنت أرتمي لنفسي أن أكون من رجال البوليس لو كنت
قد عرفت أنني سأضطر إلى قضاء هذا الوقت الطويل في
المشرفة. إنني أعاف رائحة النشادر. ربما، بعد كل هذا،
سأشرب بيرة.

- ليست عندي ثلاجة للأسف.

- على عكس المشرفة. إذن قليلًا من الويسكي الإنجليزي؟

وتذكرت ليلة أن صحبته إلى المشرحة، وأخرجوا جثة «بايل»
وكانهم يسحبون صينية عليها مكعبات من الثلج. سألتني:

- إذن فلن تعود إلى بلادك؟

- هل يعنيك التأكد من ذلك؟

- أجل.

قدمت له الويسكي حتى يتبين مدى هدوء أعصابي. قلت له:

- «فيجو»، وددت لو قصصت عليّ لماذا ظننت أن لي مصلحة من

وفاة «بايل». هل هي مسألة دافع؟ هل لأنني أردت أن أسفه.

«فونج»، أم أنك تتصور أن هذا كان انتقامًا لأنني فقدتها؟

- لا، فلست غيبًا إلى هذا الحد. إن المرء لا يحتفظ بأحد كـ

عدوه لمجرد الذكرى. ها هو ذا فوق رف كتبك «دور الغرب».

من هو هذا المدعو «يورك هاردنج»؟

- هو الرجل الذي تبحث عنه يا «فيجو»، لقد قتل «بايل» على

المدى الطويل.

- لا أفهم.

- إنه صحفي من النوع الراقي. يسمونهم «مراسلون دبلوماسيون».

يلتزم بفكرة ماثم يغير كل موقف يصادفه بحيث يتلاءم مع هذه

الفكرة. جاء «بايل» إلى هنا مشبعًا بفكرة «يورك هاردنج».

وحدث أن قدم «هاردنج» إلى هنا ذات مرة وقضى أسبوعًا وهو

في طريقه من بانكوك إلى طوكيو. وقد ارتكب «بايل» غلطة

محاولة تطبيق فكرته في الحياة العملية. فقد كتب «هاردنج»

عن القوة الثالثة، وعمل «بايل» على تشكيل واحدة، عصابة

حقيرة هي صورة مقلدة قوامها ألفان من الرجال وزوجان من
النمور المستأنسة. تورط في الأمر.
- ألم يحدث لك أن تورطت في هذا؟
- حاولت جهدي ألا أتورط.
- ولكنك أخفقت يا «فاولر».

ولسبب ما طاف بخاطري الكابتن «تروين»، وتلك الليلة التي
فصيناها في بيت الأفيون في هايفونج، التي يُخيل إليّ وكأنما انقضى
عليها سنون عديدة. ما الذي قاله؟ قال كلامًا يعني أننا جميعًا إن عاجلاً
أو آجلاً سنتورط في لحظة من لحظات الانفعال. قلت له:

- كان أولى بك أن تكون قسيسًا ممتازًا يا «فيجو». ما حكايتك حتى
يأتي الاعتراف هكذا سهلاً على يدك، إن كان ثمة ما أعترف به؟
- أنا لم أطلب أبدًا أي اعترافات.
- ولكنك تتلقاها.
- من حين لآخر.

- ترى هل لأنك تتصرف كما يتصرف القسيس فإنك تتوخى
ألا يكون عملك مفعًا بل متعاطفًا. «يا سيد «فليك»، أجد
لزامًا عليّ أن أقص عليك بالدقة لماذا هشمت جمجمة المرأة
العجوز». «أجل يا «جوستاف»، خذ فسحتك من الوقت،
واقصص عليّ لماذا حدث هذا!».

- إنك تتمتع بخيال جامع. ألسنت ثملًا يا «فاولر»؟
- يقينًا ليس من الحكمة في شيء أن يسكر مجرم وهو في صحبة
ضابط بوليس.

- ما قلت قط إنك مجرم.
- ولكن لنفترض أن الخمر أهاجت في نفسي الرغبة في الاعتراف،
إن مهنتكم لا تؤمن بسر الاعتراف.
- السرية نادرًا ما تكون أمرًا ذا بال لمن يقدم على الاعتراف حنرٍ
وإن كان بين يدي قسيس، إذ إن ثمة بواعث أخرى تدفعه.
- أن يطهر نفسه.
- ليس ذلك دائمًا. أحيانًا لا ينشد أكثر من أن يرى نفسه نقيًا
كما هو. وأحيانًا يكون قد أنهكه خداع النفس. لست مجرمًا
يا «فاولر» بيد أنني أود أن أعرف لماذا كذبت عليّ. لقد رأيت
«بايل» ليلة مصرعه.
- من أعطاك هذه الفكرة؟
- أنا لا يدور بخلدي ولو للحظة أنك قاتله. ربما لم تستخدم قط
سكينًا صديًا.
- صديًا؟
- هذه بعض التفاصيل التي عرفناها من التشريح الكشفي، قلت
لك هذا رغم أنه ليس هو سبب الوفاة، بل طمي قنطرة داکو.
قدم لي كأسه الفارغة لمزيد من الويسكي. استطرد:
- لنر الآن، هل تناولت شرابًا في «الكونتنتال» في الساعة السادسة
وعشر دقائق؟
- أجل.
- وفي السادسة وخمس وأربعين دقيقة كنت تتحدث مع صحفي
آخر عند باب «الماجستيك»؟

- أجل، «ويلكنز». ولقد قصصت عليك كل هذا من قبل يا «فيجو»،
في تلك الليلة.

- أجل، ولقد تحققت من هذا بعد ذلك. من دواعي الدهشة حقًا
أنك تحتفظ في رأسك بكل هذه التفاصيل الصغيرة.
- أنا مخبر صحفي يا «فيجو».

- ربما كانت المواعيد غير دقيقة تمامًا. ولكن ليس هناك من
يستطيع أن يلقي عليك اللوم إذا ما أخطأت في ربع ساعة هنا أو
عشر دقائق هناك. أليس كذلك؟ فليس ثمة ما يدعوك للاهتمام
بالمواعيد. والحقيقة أن دقتك الكاملة مدعاة للشك.
- ألم أكن دقيقًا تمامًا؟

- ليس على وجه الدقة. إذ إنك كنت تتحدث مع «ويلكنز» في
السابعة إلا خمس دقائق.

- وهذه عشر دقائق أخرى.

- بالطبع، كما قلت لك. ودقت الساعة السادسة عندما وصلت
إلى «الكونتنتال».

- ساعتني دائمًا تقدم قليلًا، كم ساعتك الآن؟

- العاشرة وثمانين دقيقة.

- وساعتني العاشرة وثمانين دقيقة. أرايت؟

لم يكلف نفسه عناء النظر إليها. قال:

- إذن فقد أخطأت في خمس وعشرين دقيقة في تحديدك للموعد
الذي تحدثت فيه مع «ويلكنز»، حسب ساعتك هذه غلطة،
أليس كذلك؟

- ربما قدرت الزمن الصحيح في ذهني. أو ربما ضبطت ساءر في ذلك اليوم. فأنا أفعل ذلك أحياناً.
- إن ما يعنيني - هل لي في قليل من الصودا؟ إن هذه الكأس لو بعض الشيء - هو أنك لم تغضب مني أبداً. ومن ثم فليس المستحب أن أستجوبك كما أستجوبك الآن.
- أما أنا فأحس بمتعة كأنها قصة بوليسية. ثم إنك تعرف في نها الأمر أنني لم أقتل «بايل»، لقد قلت لي هذا.
- أعرف أنك لم تشهد الجريمة.
- لست أدري ما الذي تود أن تدلل عليه حين تبين أنني أخطأ. في عشر دقائق هنا وخمس دقائق هناك.
- إنها تعطي فسحة قليلة من الوقت، فجوة زمنية ضئيلة.
- فسحة من الوقت لأي شيء؟
- لـ «بايل» حتى يأتي ويزورك.
- لماذا تلح في التدليل على هذا؟
- بسبب الكلب.
- وماذا عن الوحل العالق بمخالبه؟
- لم يكن وحلاً، كان أسمنتاً. معنى هذا أنه وقتما كان يقتفي ان «بايل» في مكان ما في تلك الليلة خاض في أسمنت مبال وفطنت إلى أن بعض البنائين كانوا يعملون فوق أرضية الشقة، وهم ما زالوا يعملون. لقد مررت بهم الليلة وأنا قادم إلى هنا، إنهم يعملون ساعات طويلة في هذا البلد.

- ما أكثر البيوت التي يعمل فيها بناءون وبها أسمنت مبلل، هل يذكر أيُّ منهم الكلب؟

- سألتهم عن هذا بطبيعة الحال، ولكنهم لو تذكروا فلن يبنثوني بذلك، فأنا الشرطة.

كف عن الحديث ومال بظهره إلى الكرسي، وهو يحدق في الكوب. وأحسبت أن تشابهها ما قد أثار انتباهه وأنه سرح بفكره إلى أمال بعيدة. ومشت ذبابة على ظهر يده فلم يطردها، إنه لا يزيد في شيء عما كان يمكن أن يفعله «دومنجيز». واستشعرت في نفسي مرة ما جامدة وغامضة. ذلك لأن كل ما استطعت أن أميزه هو أنه بما كان يصلي.

ونفضت ودلفت بين الستائر إلى حجرة النوم. لم يكن ثمة ما أريده منها سوى أن أتخلص لحظة من هذا الصمت الجالس فوق المقعد. لقد عادت كتب «فونج» مرة أخرى إلى الرف، ولصقت بين الأدهنة بريقة مرسله لي. قد تكون رسالة أو شيئاً ما من مكتب الصحيفة في لندن. لم أكن في حال مزاجية تسمح لي بفضها. كل شيء كما كان قبل مجيء «بايل». الحجرات لا تتغير والحلي تبقى حيث تضعها، فيما خلا القلب فهو الذي يضمحل.

عدت إلى غرفة الاستقبال، ووضع «فيجو» كأسه على شفتيه. قلت:

- ليس عندي ما أقوله لك، لا شيء على الإطلاق.

- إذن سأصرف، أحسبني لن أزعجك ثانية.

وعند الباب استدار لي وكأنه لا يريد أن يفقد الأمل، أمله هو أ
أملِي أنا.

- لقد كان غريبًا بالنسبة لك هذا الفيلم الذي ذهبت لمشاهدته في
تلك الليلة. لم أكن أحسب أنك تهتم بأفلام الدراما التاريخية.
ما اسم ذلك الفيلم؟ «روبن هود»؟
- أظنه كان «سكاراموش». أردت أن أقتل الوقت، وكنت بحاجة
إلى التسلية.
- تسلية؟

وحرصت على أن أفسر له ذلك قائلاً:
- كلُّ منا له همومه الخاصة يا «فيجو».

بعد أن انصرف «فيجو» كان لا يزال أمامي ساعة من الزمن أنظر
فيها «فونج» وصحبة منعشة. لقد كان غريبًا ما أحدثته زيارة «فيجو»
من اضطراب. كان أشبه بشاعر قدم ليعرض عليّ إنتاجه لأنقاد.
ولكنني هدمته له بإهمالي. كنت رجلًا بغير مهنة، إذ إنني لا أستطيع
بصورة جدية أن أعتبر الصحافة مهنة، ولكنني أعترف بأن ما سواه
مهنة حقيقية. والآن بعد أن انصرف عني «فيجو» ليختتم ملفه الذي
لم يكن قد اكتمل بعد وددت لو وائتني الشجاعة لأستدعيه ثانية وأقول
له: «أنت على حق، لقد رأيت فعلًا «بايل» ليلة أن لقي مصرعه».

الفصل الثاني

(١)

في طريقي إلى كاي ميثو مررت بعدد من سيارات الإسعاف خارجة من حي شولون ومتجهة صوب ميدان جارنير. بوسع المرء أن يقدر سرعة انتشار الإشاعة من خلال التعبيرات المرتسمة على الوجوه في الشوارع، التي قد تقبل لتوها ناحية شخص ما مثلي قادم من ناحية الميدان وفي عيونها ترقب وتفكير. في الوقت الذي دخلت فيه حي شولون أحسست أنني سبقت إليها الأخبار: الحياة نشطة عادية لم يقطعها شيء، لا أحد يعرف.

وصلت إلى مستودع السيد «شو». صعدت الدرج قاصداً بيته. لم يتغير فيه شيء منذ زيارتي الأخيرة. القطة والكلب يتنقلان من فوق الأرضية إلى صناديق الكرتون ثم إلى الحقائب كأنهما زوج من أحصنة الشطرنج لا يستطيع أن يمسك أحدهما بالآخر. الطفل يحبو على الأرض. وما زال الشيخان يلعبان معاً لعبة «المهيونج».

لم يغب سوى الشبان. وما إن ظهرت عند الباب حتى شرعت إحدى السيدات تصب لي الشاي. المرأة العجوز جالسة على سريرها تتطلع إلى قدميها.

سألت: «السيد «هنج»». وهزئت رأسي رافضاً الشاي، إذ لم أكن في حالة مزاجية تسمح لي أن أبدأ سلسلة طويلة من هذا الشراب المر الحقيق. قلت بالفرنسية: «يجب أن أرى السيد «هنج» بأي وسيلة». وبدأ لي أن من المستحيل أن أعبر لهم عن مدى ما في قلبي من إلحاح وعجلة. ولكن ربما تسبب رفضي للشاي بجفاء شديد في نوع من عدم الارتياح. أو ربما كنت مثل «بايل» يغطي الدم حذائي. على أي حال فبعد فترة انتظار وجيزة قادتني امرأة إلى الخارج ثم هبطت معي الدرج، وسارت على طول شارعين تحف بهما الأعلام وتعج بالناس الذين انكبوا على أعمالهم. وتركتني أمام مكان أحسب أن الناس في بلاد «بايل» يسمونه «البهو الجنائزي». كان مليئاً بجرار حجرية وهي الجرار التي يضعون فيها أخيراً عظام الموتى من الصينيين بعد أن يخرجوها من قبورها. قلت لعجوز صيني عند المدخل: «السيد «هنج»، السيد «هنج»». وخلته المكان الملائم لكي أخرج إليه في يوم بدأته مع مجموعة مزارع المطاط الفنية الإيروتيكية، ثم واصلته مع جثث القتلى في الميدان. نادى شخص ما في حجرة داخلية، أفسح الصيني العجوز وسمح لي بالدخول.

قدم السيد «هنج» مُرحباً في بشاشة، وأدخلني حجرة صغيرة بعيدة، وقد صفت بها مقاعد سوداء منحوتة وغير مريحة، وهي من النوع الذي تصادفه في كل حجرة انتظار صينية، وتلاحظ دائماً أنها لم

نستعمل ولم تستقبل أحدًا. بيد أنني أحسست هذه المرة أن المقاعد
قد استخدمت، إذ وجدت على المائدة خمسة أقذاح صغيرة للشاي
من بينها اثنان لم يفرغا بعد. قلت:

- لقد قطعْتُ لقاءكم.

قال السيد «هنج» مراوغًا:

- كان لقاء من أجل العمل غير ذي أهمية. يسعدني دائمًا أن أراك
يا سيد «فاولر».

- قدمت من ميدان جارنير.

- هذا ما قدرته.

- هل سمعت...

- حدثني أحدهم بالتلفون. ورأيت من الأفضل أن أبتعد لفترة عن
بيت السيد «شو»، إذ إن البوليس سينشط كثيرًا اليوم.

- ولكن لا علاقة لك بالموضوع؟

- إن عمل البوليس هو العثور على متهم.

- إنه «بايل» مرة أخرى.

- أجل.

- إنه لشيء مريع هذا الذي أقدم عليه.

- إن الجنرال «تي» ليس بالشخصية التي يسهل التحكم فيها.

- والبلاستيك لا يأتي من بوسطن من أجل الصبية هنا. من هو

رئيس «بايل» يا «هنج»؟

- يخالجنى إحساس بأن السيد «بايل» هو سيد نفسه إلى حد كبير.

- من يكون؟ «أو. إس. إس»؟

- الحروف الأولى غير ذات أهمية كبيرة.

- ماذا يمكنني أن أفعل يا «هنج»؟ لا بد أن يوقف عند حد.

- بوسعك أن تنشر الحقيقة، أم ترى لا تستطيع ذلك؟

- صحيفتي لا يعينها الجنرال «تي». إن ما يعينهم فقط هو شعبهم يا «هنج».

- أتريد حقاً يا سيد «فاولر» أن يقف السيد «بايل» عند حد.

- آه لو رأيته يا «هنج». لقد وقف هناك وقال إنها غلطة محزنة، فها كان من المنتظر أن يتم استعراض عسكري. قال إن عليه أن ينظف حذاءه قبل أن يرى الوزير.

- بوسعك بالتأكيد أن تخبر البوليس بما تعرفه.

- البوليس هو الآخر لا يعنيه الجنرال «تي». وهل تظن أنهم يجروون على المساس بأي أمريكي؟ إنه يتمتع بحصانة دبلوماسية. وهو خريج جامعة «هارفارد»، والوزير مولع به.

- «هنج»، كانت هناك امرأة غطت طفلها بقبعتها المصنوعة من القش. صورتها لا تفارقني. كانت هناك غيرها في فات ديم.

- يجب عليك أن تهدئ من روعك يا «فاولر».

- ماذا سيفعل بعد ذلك يا «هنج»؟ كم قبلة وطفلاً ميتاً يمكنك الحصول عليهم من أسطوانة من «الديولاكتون»؟

- هل أنت على استعداد لمساعدتنا يا سيد «فاولر»؟

- إنه بصدد أن يمعن في خطته، والناس سيموتون بسبب أخطائه.

- وددت لو أن أتباعكم اقتصوا منه عند النهر ناحية نام دين، فلو حدث هذا لكان ثمة فارق كبير لأرواح عديدة.

- أوافقك على هذا يا سيد «فاولر». يجب أن يكبح جماحه. عندي اقتراح لتنفيذه.

وسعل شخص ما في رقة خلف الباب، ثم بصق بصوت عالٍ. قال:
- ماذا لو دعوته للغداء الليلة في «فيو مولان»، فيما بين الثامنة والنصف والتاسعة والنصف.

- ما جدوى...

- ستحدث معه في الطريق.

- قد يكون مشغولاً.

- ربما يكون من الأفضل لو طلبت منه زيارتك في السادسة والنصف. سيكون طليقاً في ذلك الوقت، وسيأتي يقيناً. وإذا كان بوسعه أن يتناول الغداء معك خذ كتاباً ناحية النافذة وكأنك تريد مزيداً من النور.

- لماذا «فيو مولان»؟

- لأنه عند قنطرة داکو، أحسب أننا سنستطيع أن نجد هناك مكاناً للحديث.

- ماذا ستفعل؟

- أنت لا تريد أن تعرف ذلك يا «فاولر». ولكن أعدك أننا ستصرف معه برقة حسبما يسمح الموقف.

تحرك أصدقاء «هنج» غير المرثيين كما تتحرك الجرذان خلف الحائط.

- هل لك أن تفعل ذلك من أجلنا يا سيد «فاولر»؟

- لست أدري، لست أدري.

- على المرء أن يلتزم جانبًا ما، إن آجلًا أو عاجلًا. هذا إذا ما أراد،
أن يظل إنسانًا.

قالها «هنج». وعادت إلى ذاكرتي صورة كابتن «تروين» و«ه»
يتحدث إليَّ في بيت الأفيون.

(٢)

تركت مذكرة في المفوضية أطلب فيها من «بايل» أن يأتي، ثم اتخذت
طريقي إلى «الكونتنتال» للشرب. كان قد أزيل كل الحطام هناك،
وأغرقت المطافئ الميدان بالمياه. ولم تكن لديَّ أي فكرة آنذاك كيف
سيصبح المكان والزمان مهمين. بل إنني فكرت في أن أقضي المساء
هناك جالسًا وأخلف موعدي. ثم دار بخلدي أنني ربما أتمكن من أن
أخيف «بايل» وأشل نشاطه إذا ما حذرته من مغبة أعماله وخطواتها.
أيًا كان هذا الخطر. وهكذا أتيت على ما أمامي من بيرة، وذهبت إلى
البيت. وعندما وصلت إلى البيت شرعت آمل لو أن «بايل» تخلف
عن الحضور. حاولت أن أقرأ ولكن لم أجد على الرف شيئًا يسترعي
انتباهي. ربما كان يحسن بي أن أدخن. ولم يكن هناك من يعد لي
غليوني. وأنصتُ على غير رغبة مني لعلي أسمع وقع أقدام، وأخيرًا
ها هي ذي. وطرق شخص ما الباب. فتحت الباب ولكنني لم أجد.
أمامي سوى «دومنجيز». قلت:
- ماذا تريد يا «دومنجيز».

نظر إليّ وقد بدت عليه معالم الدهشة:
- تريد؟

وتطلع إلى ساعته:

- هذا هو الموعد الذي آتي فيه دائماً. هل وصلتك أي برقيات؟
- آسف، لقد نسيت. لا.

- ولكن موالاة أخبار القنبلة؟ ألا تريد أن تسجل شيئاً بالبريد؟
- أوه، سجل رسالة نيابة عني يا «دومنجيز». لست أدري ما الوضع،
يبدو أنني عانيت قليلاً من أثر الفجيرة لأنني كنت هناك في
مكان الحادث. لا يسعني التفكير في الأمر في حدود صيغة
خاصة برفقة.

سدّدت ضربة لبعوضة أنت تظن قرب أذني، ورأيت «دومنجيز»
يرتد بحركة غريزية مجفلاً عند هذه اللطمة:
- حقاً يا «دومنجيز»، لقد قصرت في هذا.

كشر عن أسنانه مبتسماً. لم يكن يجد مبرراً للنفور من الحياة. ثم
إنه مسيحي في نهاية الأمر، واحد من أولئك الذين تعلموا من «نيرون»
كيف تصنع الشموع من أجساد البشر. سأل:
- هل ثمة ما يمكن أن أؤديه لك؟

إنه لا يشرب الخمر، ولا يأكل اللحم، ولا يقتل، وغبطته لرقعة
تفكيره:

- لا يا «دومنجيز»، كل ما أريده هو أن تتركني وحدي الليلة.
راقبته من النافذة وهو يمضي عبر شارع كاتينات. توقف سائق
عربة «تريشو» بجانب الرصيف المقابل لنافذتي. حاول «دومنجيز»

أن يستأجره ولكنه هز رأسه رافضًا. ظننت أنه يقف في انتظار زبون في أحد المحال، لأن هذا المكان ليس مخصصًا لانتظار عربات «التريشو». وعندما نظرت إلى ساعتى دهشت حين تبين لى أنى وقفت منتظرًا ما يزيد عن عشر دقائق.

عندما طرق «بابل» الباب لم أكن قد تمكنت حتى من سماع خطوه. - ادخل.

ولكن كما هي العادة دائمًا دخل الكلب أولًا.

- أسعدتني مذكرتك يا «توماس». ظننت هذا الصباح أنك ضقت بي ذرعًا.

- ربما كان هذا صحيحًا، فلم يكن منظرًا شيقًا.

- لعل الأمر يكون قد اتضح لك الآن أكثر من ذي قبل. ومن ثم فلا ضرر في أن أقص عليك المزيد. لقد رأيت «تي» بعد ظهر اليوم. - رأيت؟ هل هو في سايجون؟ أحسبه جاء ليرى النتائج التي حققته قبلته؟

- هذا سر يا «توماس». لقد تعاملت معه بقسوة بالغة.

كان يتحدث كرئيس لأحد الفرق المدرسية وجد أحد صبيته يخرج على تعاليمه في التدريب. وأيًا كان الأمر فقد سألته وفي نفسي أمل غامض:

- هل نبذته تمامًا؟

- قلت له إنه لو أقدم ثانية على مثل هذا العمل الأهوج فإننا لن نتعاون معه ثانية.

- ولكن ألم تقطع علاقتك معه تمامًا يا «بابل»؟

ولكزت في ضجر كلبه الذي أخذ يدور حولي ويشم كعب قدمي.
- لا أستطيع ذلك، اهدأ يا «ديوك»، فهو الأمل الوحيد لنا على
المدى الطويل، إذ لو أتى إلى السلطة بمساعدتنا فلنأمن نستطيع
أن نركن إليه.

- كم من البشر يجب أن يلقوا حتفهم قبل أن تدرك...
ولكن بوسعي أن أقول إن هذا جدال ميؤوس منه.
- أدرك ماذا يا «توماس»؟

- ليس ثمة شيء اسمه «العرفان بالجميل» في السياسة.
- على الأقل فلأنهم لن يكرهونا مثلما يكرهون الفرنسيين.
- هل أنت على يقين من ذلك؟ إننا أحيانًا نشعر بنوع من الحب
لأعدائنا. وفي بعض الأحيان نشعر بالكراهية لأصدقائنا.
- أنت تتحدث كأوروبي يا «توماس»، هؤلاء الناس ليسوا معقدين.
- هل هذا هو ما تعلمته خلال أشهر قليلة؟ ربما نسيمهم بعد ذلك
«أشباه أطفال».

- حسن، على نحو ما.
- اثنتي بطفل غير معقد يا «بايل». عندما كنا في ميعة الصبا كنا
مجموعة متشابكة من التعقيدات. إننا نبسط الأمر كلما امتد
بنا العمر.

ولكن ما جدوى الحديث معه؟ ففي حجج كل منا جانب من
الزيف. لقد كنت على وشك أن أصبح محررًا مسؤولًا قبل دوري.
نهضت قاصدًا رف الكتب.

- ما الذي تبحث عنه يا «توماس»؟

- أوه، مجرد فقرة مولع بها. هل لك في العشاء معي يا «بايل»؟
- أحب ذلك يا «توماس». إنني مسرور غاية السرور إذ لم تعد.
تضيق بي. أعلم أنك تختلف معي في الرأي، ولكن بوسعنا أن
نختلف في الرأي ونظل أصدقاء. أليس كذلك؟
- لست أدري، لا أظن ذلك.

- إن «فونيج» أخطر شأنًا من كل هذا في نهاية الأمر.
- هل تؤمن بذلك حقًا يا «بايل»؟
- إنها أهم من كل شيء في الدنيا، عندي وعندك يا «توماس».
- لم تعد كذلك بالنسبة لي.

- لقد كانت صدمة مفزعة لك اليوم يا «توماس». ولكن سترى
كيف تنسى كل هذا بعد أسبوع. نحن نعني بذوي القربى أيضًا.
- نحن؟

- لقد أبرقنا إلى واشنطن، سنحصل على إذن باستخدام جانب
من رصيدنا.
قاطعته قائلًا:

- ما رأيك في «فيو مولان»؟ بين التاسعة والتاسعة والنصف؟
- حيثما تحب يا «توماس».
ذهبت ناحية النافذة.

كانت الشمس قد غابت إلى ما دون السقوف. وسائق «التريشو»
ما زال منتظرًا أجره. نظرت إليه من على ورفع وجهه لي.
- هل تنتظر أحدًا يا «توماس»؟
- لا، ثمة مقطوعة شعرية أبحث عنها.

ولكي أخفي عنه تصرفي رفعت كتابي أمام آخر شعاع من الضوء
وقرأت:

أشق بعربتي الطرقات غير عابئ
يحدجني الناس بنظراتهم ويسألون من أنا
ولو تصادف أن قتلت تحت عجلاتي خسيسًا
فبوسعي أن أدفع ثمن الخسارة مهما كان باهظًا
آه، ما أطيب أن تكون ذا مال
ما أطيب أن تكون ذا مال.

قال «بايل» بإشارة منه تنم عن الاستنكار:

- هذه قصيدة من النوع الخفيف.

- إنها لشاعر شاب في القرن التاسع عشر، لم يكن ثمة كثير من
أمثاله.

تطلعت إلى الشارع ثانية.

كان سائق «التريشو» قد انصرف.

سألني «بايل»:

- هل أقلعت عن الشراب؟

- لا. ولكن أحسب أنك لم...

- ربما بدأت أشعر باسترخاء. هذا تأثيرك. في ظني أنك خير عون
لي يا «توماس».

وأحضرت الزجاجاة والكأسين، كنت قد نسيت واحدة منها في
المرة الأولى، ثم كان عليّ أن أعود ثانية لأحضر الماء. كان كل ما
أفعله في هذا المساء يستغرق مني وقتًا طويلاً. قال:

- أتعرف أن لي عائلة تبعث على العجب. ولكن ربما كان أبواي على صواب إلى حد ما. فنحن نمتلك بيتاً من تلك البيوت العتيقة في شارع شستينات على الجانب الأيمن وأنت في طريقك إلى التل. وأمي تهوى جمع الآنية الزجاجية. ويعمل أبي عندما يفرغ من تفتيت الصخور القديمة على تنسيق كل ما يقدر عليه من مخطوطات ومسودات «دارون». وهكذا كما ترى فإنهما يعيشان مع الماضي. وربما كان هذا هو السبب في أن «يورك» كان له هذا التأثير عليّ، فقد بدا لي نوعاً من الانفتاح على الأوضاع العصرية. أما أبي فإنه انعزالي.

- ربما يستهويني أبوك، فأنا انعزالي أيضاً.

كان «بايل» في تلك الليلة، وهو الرجل الصموت، في حالة مزاجية تشجعه على الحديث. ولم أسمع منه كل ما قاله، فقد كان ذهني شاردًا في مكان آخر. وحاولت أن أقنع نفسي بأن السيد «هنج» يملك وسائل أخرى ميسرة له غير الوسيلة الفظة المعروفة. بيد أنني كنت أعلم ألا مجال للتردد في حرب كهذه، فالمرء يستخدم ما يملك من سلاح، الفرنسيون يستخدمون قنابل «النابالم»، والسيد «هنج» يستخدم الرصاصة أو السكين. وحدثت نفسي، ولكن بعد فوات الأوان، أنني لم أنصّب قاضيًا. على أن أترك «بايل» يتحدث هنيهة ثم أحذره. فبوسعه أن يقضي الليلة في بيتي. ولسوف يكون عسيرًا عليهم أن يقتحموا المكان حينئذ. أحسب أنه كان يتكلم عن مربيته العجوز في الماضي - وذلك عندما قاطعته وهو يقول:

- لقد كانت في الواقع تعني الكثير بالنسبة لي أكثر من أمي.
واعتادت أن تصنع لي فطائر التوت.
قلت له:

- هل تحمل معك سلاحًا الآن، بعد تلك الليلة؟
- لا، لدينا أوامر المفوضية.

- ولكن أأست تقوم بمهام من نوع خاص؟

- لا جدوى في ذلك، فلو أرادوا قتلي لاستطاعوا ذلك في أي
وقت. وعلى أي حال فأنا أعمى كطائر الغر. كانوا يسمونني في
الكلية «الخفاش»، ذلك لأنني كنت قادرًا على الرؤية في الظلام
مثل الخفافيش. حدث ذات مرة بينما كنا نلهو...

وهكذا ابتعد عن الموضوع ثانية. عدت إلى النافذة.

ألفت في مواجهتي سائق عربة «التريشو» منتظرًا. لم أكن على
يقين فهم متشابهون إلى حد كبير، ولكن أحسب أنه شخص آخر.
ربما اهتدى إلى زبون حقًا. خطر في ذهني أن «بابل» يجد أمانًا أكثر
في المفوضية، إذ لا بد أنهم، بعد إشارتي، قد أعدوا خططهم لما
سيحدث بعد ذلك في المساء، شيء ما عند قنطرة داکو. لم أستطع
أن أفهم لماذا أو كيف، ولكن من المؤكد أنه لن يكون من الحمق
بحيث يتجه بسيارته عبر قنطرة داکو بعد الغروب، فضلًا عن أن جانب
القنطرة الواقع ناحيتنا تحرسه دائمًا قوة من الشرطة المسلحة.
قال «بابل»:

- أنا وحدي أثرثر، لست أدري كيف حدث هذا، بيد أنني إلى حد
ما هذا المساء...

- استمر، إنني أميل إلى الصمت. هذا كل ما في الأمر، ربما كان من الخير أن تلغي هذا العشاء.

- لا، لا تفعل ذلك. لقد أحسست بالقطيعة عنك منذ... حسن..
- منذ أن أنقذت حياتي.

قلت ذلك ولم أستطع أن أخفي مرارة جرحي الذي لا يلتئم.
- لا، لم أقصد ذلك. ألم تكن نتحدث بنفس الطريقة في تلك الليلة. أليس كذلك؟ وكأنها كانت ساعتنا الأخيرة. لقد عرفت يومها الكثير عنك يا «توماس». أنا لا أتفق معك، إن كنت تذكر ذلك، ولكن ربما تكون على حق من وجهة نظرك. في ألا تتورط. ولقد التزمت بذلك حتى بعد أن كسرت ساقك، بقيت محايدًا.

- ثمة نقطة يحدث عندها التحول دائمًا، لحظة من لحظات الانفعال.

- لم نبلغ بعد هذه اللحظة، وأشك في أنك ستبلغها يومًا ما.
ثم أردف قائلاً في طرب:

- وليس من المحتمل أن أتحوّل أنا أيضًا، إلا إذا كان دون ذلك الموت.

- حتى رغم ما حدث هذا الصباح؟ أما كان من الممكن أن يغير هذا من آراء الإنسان؟

- كانوا ضحايا حرب لا غير. إنه أمر يدعو للثناء، ولكنك لا تستطيع دائمًا أن تصيب هدفك. على أي حال فقد ماتوا من أجل قضية عادلة.

- أكنت ستقول نفس هذا الكلام لو كان الأمر متعلقًا بمريبتك العجوز وفطيرتها المحشوة بالتوت؟
أغفل هذا المعنى السهل الذي ذهبت إليه. قال:
- بوسعك أن تقول بشكل ما إنهم ماتوا من أجل الديمقراطية.
- لن أعرف كيف أترجم هذا إلى اللغة الفيتنامية.
وفجأة أحسست بسأم شديد. وددت لو أنه غرب عن وجهي بأسرع ما يمكن ولقي حتفه. وهنا قد أستطيع أن أبدأ حياتي من جديد، من حيث كنت قبل أن يأتي.
- لن تأخذ حديثي مأخذ الجد أبدًا يا «توماس».
قالها شاكياً وفي نفسه فرحة التلميذ الذي يلوح عليه أنه شمر عن ساعده لهذه الليلة الليلية.
- اسمع، ماذا لو نقضي هذه الأمسية كلها معًا حيث إن «فونج» في السينما؟ ليس عندي ما يشغلني الآن.
وخُيِّلَ إليَّ وكان شخصًا ما في الخارج كان يدلّه على الطريقة التي يتقي بها ألفاظه بحيث يسلبني كل عذر ممكن. استطرد يقول:
- لماذا لا نذهب إلى «الشاليه»؟ لم أذهب إليه منذ تلك الليلة.
والطعام هناك يضارع الطعام في «فيو مولان»، فضلًا عن أن هناك موسيقى.
- أفضل ألا أذكر تلك الليلة.
- آسف. فأننا أحيانًا نكون غيبًا أحرق يا «توماس». ما رأيك في عشاء صيني في شولون؟
- عليك أن تحجز مقدمًا لو شئت الحصول على طعام جيد. هل

تخشى «فيو مولان» يا «بايل»؟ إنه محاط بالأسلاك بطريقه محكمة، وتجد الشرطة دائمًا فوق الكوبري. ولا أحسبك من الحمق بحيث تجوس بعربتك في داكو؟ أليس كذلك؟
- ليس هذا، كل ما في ذهني أنه سيكون مضحكًا أن نقضي أمسية طويلة هناك الليلة.

ندت عنه حركة قلبت الكأس فتهشمت فوق الأرضية. قال بطريقة آلية:
- أتمنى لك حظًا سعيدًا يا «توماس»، أنا آسف.
بدأت ألتقط شظايا الزجاج وأضعها في الصينية.
- ما رأيك في هذا يا «توماس»؟
ذكرني حطام الكأس بالزجاجات المهشمة في بار «البافيلون» ومحتوياتها تقطر منها.

- حذرت «فونج» من أنني قد أخرج معك الليلة.
ما أسوأ اختيار لفظ «حذرت». التقطت آخر شظية من الزجاج.
قلت:

- أنا على موعد في «الماجستيك»، ولا أستطيع أن أرتبط بموعد قبل التاسعة.

- حسن، أحسب أنني سأضطر إلى العودة إلى المكتب. إن ما أخشاه دائمًا هو أن يعوقني شيء.

لم يكن ثمة ضير في أن أمنحه تلك الفرصة الوحيدة. قلت له:
- لا تنزعج إذا ما تأخرت، لو عاقلك شيء ما فائت إلى هنا بعد ذلك. سأعود في العاشرة، وسأكون في انتظارك لو لم يتسن لك تناول الغداء.

- سأخبرك.

- لا تحمل همًا. ليس عليك إلا أن تذهب إلى «فيو مولان» أو تقابلني هنا.

وهكذا وضعت القرار مرة أخرى بين يدي هذا الشخص الذي لا أثق به، قد تتدخل لو أردت ذلك، برقية على مكتبه، رسالة من الوزير. إنك لا يمكنك الوجود ما لم تملك القوة لتغيير المستقبل.

- انصرف الآن يا «بايل». ثمة أمور عليّ أن أفرغ منها.

وأحسست بإعياء غريب، وأنا أسمع خطوه وهو يمشي بعيدًا مصحوبًا بحفيف مخالبل كلبه.

(٣)

عندما خرجت من البيت كان أقرب مكان يمكن أن أهتدي فيه إلى سائقي عربات «التريشو» هو شارع دورامي. سرت حتى «الماجستيك». ووقفت هنيهة أرقب تفريغ قاذفات القنابل الأمريكية. كانت الشمس قد غربت، والعمال يعملون على ضوء مصابيح البطاريات. لم أفكر إطلاقًا في اختلاق سبب أثبت به غيابي سوى أنني أخبرت «بايل» أنني ذاهب إلى «الماجستيك». وأحسست بنفور غير معقول لأنني كذبت أكثر مما يقتضي الأمر.

- مساء الخير يا «فاولر».

كان «ويلكنز».

- مساء الخير .
- كيف حال الساق؟
- لا بأس الآن.
- هل أبرقت بقصة صحفية جيدة؟
- تركت ذلك لـ«دومنجز».
- أوه، قيل لي إنك كنت هناك.
- أجل، كنت هناك، ولكن الصحيفة مزدحمة بالمواد هذه الأيام، وهم لا يحبذون الإطناب.
- لقد فقد الطبق نكهته الشهية، أليس كذلك؟ كان حريًا بنا أن نعيش أيام «رسل» و«التايمز» القديمة. ترسل برقياتك بالبالون. كان المرء يجد فسحة من الوقت آنذاك ليسطر بعض كتابات من نسج الخيال. بل إنه كان قادرًا على أن يكتب عمودًا بأكمله من عنده. الفندق الفخم وقاذفات القنابل وهبوط الليل. أما اليوم فإن الليل لا يهبط أبدًا، حتى وإن تكلفت الكلمة قروشًا عديدة. وهناك على البعد حيث تطالعك السماء سمعنا صيحات ضحك خافتة: ثمة شخص ما حطم كأسًا مثلما فعل «بايل». سقط علينا الصوت كأنه مخروط جليد مدبب. ساق «ويلكنز» العبارة التالية وهو يحس بالضغينة: «وسقط ضوء المصابيح المتلألئة على نساء جميلات ورجال بواسل»، ثم أردف يقول:
- هل لديك ما يشغلك الليلة يا «فاولر»؟ هل لك أن نبحث عن مكان للعشاء؟
- اتفقت على موعد للعشاء في «فيو مولان».

- أتلهنى أن تستمتع. سيكون «جرانجر» هناك. أخرى بهم أن يعلنوا
عن ليالي «جرانجر» الخاصة من أجل أولئك الذين تروقهم
الضوضاء في خلفية النوادي.

ودعته ودخلت السينما المجاورة. كان «إيرول فلين» أو ربما
«تيرون باور» (فلست أدري كيف أميز بينهما من حيث ملابسهما
الضيقة) معلقاً ببعض الحبال يتأرجح بها ويقفز من شرفة إلى أخرى،
ثم يمتطي صهوة جواد عاري الظهر مع أشعة النهار الأولى بألوانها
الطبيعية. أنقذ فتاة وقتل عدوًا وعاش حياة بهيجة. كان واحدًا من
تلك الأفلام التي يسمونها «أفلام للصبيبة». ولكن من المؤكد أن
رؤية أوديب وهو يخرج دامي العينين من قصر طيبة هي خير درس
عن الحياة نتعلمه اليوم. ليس ثمة حياة ساحرة. كان الحظ حليفًا
لـ «بابل» في فات ديسم وفي طريقه عائداً من تانين، بيد أن الحظ
لا يدوم، وخلال ساعتين علموا أن لا أثر للسحر. جلس بجاني
جندي فرنسي ويده في حجر فتاة، وغبطته، ولكن لست أدري هل
لبساطة سعادته أم لتعاسته. خرجت قبل أن ينتهي الفيلم، وأخذت
عربة «تريشو» قاصداً «فيو مولان».

كان المطعم مسوراً بالأسلاك لتحمية من القنابل، ووقف
جنديان مسلحان للحراسة عند طرف الكوبري. وصادفت صاحب
المطعم الذي زادت بدانته من تناول الطعام الدسم الممزوج ببيذ
«البورجاندي»، وأدخلني من خلال السلك بنفسه. كان المكان يعبق
برائحة الديوك المسمنة المخصصة والزبد المنصهر في حرارة المساء
القائظة. سألتني:

- هل ستلحق بحفل السيد «جرانجر»؟
- لا.

- مائدة لشخص واحد؟
وهنا ولأول مرة بدأت أفكر في المستقبل، والأسئلة التي سيتعب علي أن أجيب عليها.
- لواحد.

قلت ذلك، وخلت أنني قلت بصوت عالٍ لقد مات «بايل».
كانت هناك قاعة وحيدة، وشغل حفل «جرانجر» مائدة كبيرة في آخر القاعة. وأعد لي صاحب المطعم مائدة صغيرة قريبة جدًا من الأسلاك. كانت النوافذ بلا زجاج خوفًا من شظايا الزجاج إذا ما تحطم. وتعرفت على عدد قليل يشاركون «جرانجر» لهوه وانحنيت لهم قبل أن أجلس. أما «جرانجر» نفسه فقد أشاح بوجهه. لم أكن قد رأيته منذ عدة شهور، سوى مرة واحدة في تلك الليلة التي عرف فيها «بايل» الحب. وربما بدت مني ملاحظة عدوانية في تلك الأمسية واخترقت الضباب الذي صنعه الكحول، ذلك أنه جلس متجهماً عند رأس المائدة، بينما حياني بإيماءة كل من مدام «ديبريه»، وهي زوجة ضابط في العلاقات العامة، وكابتن «دوبراك» المختص بالخدمات الصحفية. وكان ثمة رجل ضخم أحسب أنه صاحب فندق في بنوم بنه، وفتاة فرنسية لم يسبق لي أن رأيتهما، ووجهان آخران أو ثلاثة لم أشهداها إلا في البارات. وبدا الحفل هذه المرة حفلًا هادئًا على غير العادة. أردت أن أمهل «بايل» حتى يعجيء فطلبت كأسًا من «الباستيس»، ندبر وتأتي الأحداث على غير ما نشتهي، وكان يتراءى لي ما دمت

لم أتناول بعد العشاء فثمة فسحة أمل، ثم تساءلت عن ما أمل فيه. حظ سعيد لـ «أو. إس. إس.» أو أيًا كان اسم عصابته؟ أم حياة مديدة لقنابل البلاستيك والجنرال «تي»؟ أم أمل أنا - وحدي دون الناس جميعًا - في أن تحدث معجزة ما. أن يدبر السيد «هنج» أسلوبًا للمناقشة لا يكون هو الموت بعينه؟ ما أيسر الأمر لو أننا لقينا حتفنا على قارعة الطريق ونحن عائدون من تانين. وجلست قبالة كأس «الباستيس» ما يقرب من عشرين دقيقة ثم طلبت العشاء. اقتربت الساعة من التاسعة والنصف، إنه لن يأتي الآن.

وأنصتُ رغماً عني، لأي شيء؟ صرخة؟ طلقة؟ حركة ما من الشرطة في الخارج؟ ولكن الأرجح على أي الأحوال أنني لن أسمع شيئاً، إذ بدأ الحماس يدب في حفل «جرانجر». شرع صاحب الفندق الذي يتمتع بصوت عذب غير مدرب في الغناء. وما إن انطلقت سداة زجاجة جديدة من الشمبانيا حتى لحق آخرون بالحفل. ولكن لم يكن «جرانجر» أحدهم. لقد ظل جالساً هناك يحملق فيَّ بعينه الصامتتين عبر القاعة. وتساءلت هل ستنشب معركة؟ فلست ندًا لـ «جرانجر».

كانوا يتغنون بأغنية عاطفية، وبينما كنت جالساً بغير شهية أمام النموذج السيئ لطبق «شابون دوك شارل» طافت «فونج» بخاطري. وهذه هي أول مرّة أفكر فيها منذ عرفت أنها آمنة لم يمسهما ضرر. وتذكرت قول «بايل» وهو جالس على الأرضية في انتظار قوات «الفيتمه»: «إنها تبدو يانعة كالزهرة الغضة»، وكان ردي عليه: «زهرة نعسة». إنها لن ترى أبداً «نيو إنجلند» بعد الآن ولن تتعلم أسرار

«الكناسانا». ربما لن تعرف الطمأنينة بعد الآن. بأي حق بخس قيمتها عن قيمة الجثث الصريعة في الميدان؟ إن المعاناة لا تزيح زيادة رقمية. فجسد واحد قد يسع كل ما يشعر به العالم من معاناة. لقد حكمت كصحفي بمقاييس كمية وخت مبادئي. أصبحت متورطاً مثل «بايل» تماماً. وخيل إليّ أن أي قرار لن يكون أمراً يسيراً عليّ بعد الآن. ونظرت إلى ساعتني وكانت العاشرة والرّبع على نحو التقريب، ربما وقع في الشرك. وربما تصرف ذلك «الشخص المجهول» الذي يطمئن إليه لصالحه، وهو الآن جالس في غرفته بدار المفوضية مهتاج أمام برقية يحاول فك رموزها، ثم سيذهب من فوره ليطلب درج السلم صاعداً إلى غرفتي في شارع كاتينات. وفكرت: «لو فعل هذا فسوف أفضي إليه بكل شيء».

فجأة نهض «جرانجر» وترك المائدة وأتى إليّ. إنه لم ير حتى المقعد الذي في طريقه وتعرّ وأسند يده على حافة مائدتي. قال: - «فاولر»، تعالّ معي إلى الخارج.

أمسكت عن تفسيرات كثيرة واقتفيت أثره. لم أكن في حالة مزاجية تسمح لي بالعراك معه، ولكن ما كان لي في تلك اللحظة أن أعبأ إذا ما هزمني لاشعورياً، فنحن لا نملك غير وسائل قليلة جداً نخفف بها من الإحساس بالإثم.

مال على حافة سور القنطرة وتطلع إليه رجلا الشرطة عن بعد. قال: - عندي حديث أود أن أفضي به إليك يا «فاولر».

دنوت منه إلى مسافة تنالني فيها يده وانتظرت. لم يبد حراكاً. كان أشبه بتمثال يرمز لكل ما أمقته في أمريكا، تصميمه سيئ

كتصميم تمثال الحرية وكانعدام معناه. قال من دون أن يتحرك من مكانه:

- تظنني غاضبًا. أنت مخطئ.

- ماذا يا «جرانجر»؟

- عندي ما أفضي به إليك يا «فاولر»، لا أريد أن أجالس الليلة أكلة الضفادع هؤلاء. أنا لا أحبك يا «فاولر» بيد أنك تتحدث الإنجليزية، ضربًا من الإنجليزية.

مال في وقفته. بدينًا غير محدد الهيئة في الضوء الخافت، أشبه بقارة مجهولة لم تكتشف بعد.

- ماذا تريد يا «جرانجر»؟

- أنا أكره الإنجليزية، لست أدري لماذا يرتاح إليك «بايل»، ربما لأنه من بوسطن. أنا من بتسبرج، وإني لفخور بذلك.

- لم لا؟

- ها أنت ذا ثانية.

وأبدى محاولة تافهة ليسخر فيها من نبرتي. ثم استطرد:

- تتحدثون جميعًا من أنوفكم. عليكم اللعنة أيها السادة المترفعون. تظنون أنكم أحطتم بكل شيء علمًا.

- طبت مساء يا «جرانجر»، عندي موعد.

- لا تنصرف يا «فاولر». ألا تملك قلبًا؟ أنا لا أطيق الحديث مع أكلة الضفادع هؤلاء.

- أنت ثمل.

- لم أشرب سوى كأسين فقط من الشمبانيا، لو كنت مكاني أكانت

- الخمر تذهب بعقلك؟ عليّ أن أذهب إلى الشمال.
- وما الخطأ في هذا؟
- أوه، أنا لم أقص عليك، هل قصصت عليك؟ لا أفأ أظن أن الناس جميعًا يعرفون. وصلّتي برقية صباح اليوم من زوجتي.
- أجل؟
- أصيب طفلي بالتهاب في الحبل الشوكي وحالته سيئة.
- هذا أمر مؤسف.
- لا حاجة بك للأسف، فهو ليس طفلك.
- ألا يمكنك الطيران إلى بلدك.
- لا أستطيع، إنهم يريدون مني قصة صحفية عن بعض عمليات التطهير العسكرية اللعينة قرب هانوي، و«كونيللي» مريض.
- («كونيللي» هذا هو مساعده).
- آسف يا «جرانجر»، كان بودي أن أساعدك لو استطعت.
- الليلة عيد ميلاده، سيبلغ الثامنة من عمره في الساعة العاشرة والنصف الليلة. وهذا هو السبب في أنني أقمت هذا الحفل قبل أن أعرف أخباره. كان لا بد لي أن أقص ذلك على شخص ما
- يا «فاولر»، ولا أستطيع ذلك مع أكلة الضفادع.
- ثمة وسائل عديدة اليوم لعلاج التهاب الحبل الشوكي.
- لا يهمني يا «فاولر» أن يصاب بكساح أو حتى أن يعيش. بالنسبة لي فإنني لن أكون كسيحًا نافعًا، ولكنه يتمتع بذهن متوقد. أتعرف ما الذي كنت أفعله هناك بينما كان أولاد الحرام يغنون؟ كنت أصلي وقلت في نفسي ليت الله يقبضني إليه إن كان يريد حياة

إنسان.

- إذن هل تؤمن بالله؟

- وددت لو أنني أؤمن به.

ومسح وجهه براحة يده وكأنه يعاني صداعًا، بيد أنه أراد بحركته هذه أن يخفي الحقيقة، وهي أنه كان يمسح دموعه. قلت له:

- لو كنت مكانك لشربت حتى سكرت.

- أوه، لا. أردت أن أظل متمالكًا لنفسي. لا أريد أن أذكر بعد

ذلك أنني كنت ثملًا كريبه الرائحة ليلة وفاة ولدي. وزوجتي لا تترضي لنفسها أن تشرب، أليس كذلك؟

- ألا تستطيع أن تخبر صحيفتك...

- إن «كونيللي» ليس مريضًا حقيقة. لقد اقتضى أثر فتاة سافرت إلى سنغافورة، ومن ثم وجدت لزامًا عليّ أن أعطي موقفه، إذ إنهم سيفصلونه لو علموا بذلك.

استجمع شمل بدنه غير المحدد الهيئة. قال:

- آسف إذا كنت قد شغلتك يا «فاولر». كنت فقط أريد شخصًا

ما أبته ما في نفسي. لك أن تدخل الآن لتبدأ في شرب أنخابك.

من المضحك أن يكون حديثي إليك، وأنت الذي تمقت سماع صوتي.

- سأكتب لك قصتك الصحفية نيابة عنك. بوسعي أن أكتبها وكان

«كونيللي» هو كاتبها.

- لن يتسنى لك تقليد لكتته تمامًا.

- أنا لا أكرهك يا «جرانجر»، كنت أعمى عن أمور كثيرة...

- أوه، أنت وأنا، كالقط والكلب، ولكن شكرًا لتعاطفك معي.
تساءلت في نفسي هل أنا أختلف في كثير عن «بايل»؟ أكان لزامًا
عليّ أنا أيضًا أن تزل قدمي في شرك الحياة قبل أن أرى الألم؟ دلف
«جرانجر» إلى الداخل، وتناهدت إلى سمعي أصوات ترتفع محييه
إياه. اهتديت إلى عربة «تريشو» ودرج بي سائقها عائداً إلى البيت
لم يكن ثمة أحد في انتظاري. جلست وانتظرت حتى انتصف الليل.
ثم نزلت إلى الشارع بغير أمل، وجدت «فونج» هناك.

الفصل الثالث

سألتني «فونج»:

- هل جاء السيد «فيجو» لزيارتك؟

- أجل، وخرج منذ ربع ساعة. هل استمتعت بالفيلم؟

كانت قد أعدت الصينية في حجرة النوم، وها هي الآن تضيء

المصباح. قالت:

- كان فيلمًا حزينًا للغاية. أما الألوان فقد كانت تستهوي الفؤاد،

ماذا كان يريد «فيجو»؟

- أراد أن يسألني بعض الأسئلة.

- عن ماذا؟

- مواضيع شتى، لا أحسبه سيزعجني ثانية.

- تروقني الأفلام ذات النهايات السعيدة، فهي عندي أفضل. هل

أنت على استعداد للتدخين؟

- أجل.

استلقيت على فراشي، وانهمكت «فونج» في عملها وقد أمسكت

بالإبرة. قالت:

- لقد قطعوا رأس الفتاة.
 - ما أغرب هذا.
 - كان ذلك إبان الثورة الفرنسية.
 - أوه، تاريخي. فهمت.
 - لقد كان محزنًا للغاية على أي حال.
 - أنا لا أبتش كثيرًا لحال الناس في التاريخ.
 - وحبیبها، عاد أدراجہ إلى غرفته فوق السطح. كان بائسًا وسطر
 أغنية، أنفهم؟ كان شاعرًا. وسرعان ما تغنى بأغنيته كل أولئك
 الذين قطعوا رأس فتاته. كانت أغنيته هي نشيد «المارسيليز».
 - يبدو أنه ليس تاريخيًا بكل معنى الكلمة.
 - كان واقفًا هناك عند طرف الجموع الحاشدة وهي تغني
 وبدأت عليه المرارة الشديدة، وإذ يتسم تدرك أن ما يشعر به
 من مرارة قد تضاعف، وأنه يفكر فيها. بكيت كثيرًا، وكذلك
 فعلت أختي.
 - أختك؟ أنا لا أصدق ذلك.
 - إنها عاطفية جدًا. وذلك الرجل المريع المدعو «جرانجر» كان
 هناك. كان ثملًا وظل يضحك طوال الوقت، علمًا بأن الفيلم
 ليس مضحكًا على الإطلاق. كان فيلمًا محزنًا.
 - أنا لا ألوّمه، فثمة مناسبة عليه أن يحتفي بها، إذ أنقذ ابنه من
 خطر. هذا ما سمعته في «الكونتنتال»، وأنا أيضًا أحب النهايات
 السعيدة.
 بعد أن فرغت من تدخين غليونين استلقيت على ظهري

وأسندت رقبتى إلى الوسادة الجلدية، واستراحت يدي في حجر «فونج». قلت:

- هل أنت سعيدة؟

قالت في تراج:

- طبعًا.

لم أكن جديرًا منها بإجابة تنطوي على مزيد من التروي. كذبت عليها وأنا أقول:

- مثلما اعتدنا منذ عام مضى.

- أجل.

- لم تشتري إيشاربا جديدًا منذ وقت طويل. لماذا لا تخرجين للشراء غدًا.

- غدًا يوم عيد.

- نعم، هذا صحيح. لقد نسيت.

قالت:

- لم ترفض برقيتك.

- لا، فقد نسيتها أيضًا. لا أريد أن أشغل بالي بالعمل الليلة، فضلًا

عن أن الوقت متأخر جدًا لعمل أي شيء الآن. احكي لي المزيد عن الفيلم.

- حسن، حاول حبسها أن يخلصها من السجن، فهرَّب إليها ملابس

صبي وقبعة رجل تشبه القبعة التي يضعها حارس المرمى على

رأسه. ولكن في اللحظة التي كانت تجتاز فيها بوابة السجن

انسدل كل شعرها، وصاحوا جميعًا «أرستقراطية، أرستقراطية».

أحسب أن هذه غلطة في الفيلم. كان أحرى بهم أن يدعوها
تهرب، ومن ثم كان بوسعهما أن يغنما أموالاً كثيرة من أغنيتهما،
وكان في استطاعتهما أن يسافرا إلى أمريكا أو إنجلترا.
وأضافت هذه الكلمة الأخيرة بما ظنته دهاء منها. قلت لها:
- أفضل أن أقرأ البرقية. أسأل الله ألا أسافر إلى الشمال غداً. أريد
أن أنعم بالهدوء معك.
أخرجت المظروف من بين أوعية الكريم وناولتني إياه. فضضته
وقرأت:

أعدت التفكير في خطابك ثانية. سأصرف بطريقة
غير رشيدة كما كنت تأمل. طلبت من محامي أن يبدأ
إجراءات الطلاق بحجة الهجر. ليباركك الله.
«هيلين» المحبة لك

- هل ستضطر إلى السفر؟
- لا. لن أضطر إلى ذلك. سأقرأ لك. إليك نهايتك السعيدة.
وقفزت من على الفراش:
- مدهش. يجب أن أذهب إلى أختي لأقص عليها. سنُسّر للغاية.
سأقول لها: أتعرفين من أنا؟ أنا الزوجة الثانية للسيد «فاولير».
ورأيت في مواجهتي في خزانة الكتب كتاب «دور الغرب»، برز
أمامي كأنه صورة كبيرة لفتى في زي البحارة يقتني أثره كلب أسود.
لم يعد في استطاعته أن يلحق أذى بأي إنسان بعد الآن. سألتها:
- هل تفتقدينه كثيراً؟
- من؟

- «بايل».

ومن الغريب أنني أشعر إلى الآن أن من المستحيل عليّ أن أستخدم اسمه الأول، حتى إن كان ذلك في حديثي إليها.

- هل لي أن أذهب لو سمحت؟ إن أختي ستطير فرحًا.

- نطقَت باسمه ذات مرة وأنتِ نائمة.

- لا أذكر أحلامي أبدًا.

- كان بوسعكما أن تفعلوا الكثير معًا، لقد كان شابًا.

- أنت لست شيخًا.

- ناطحات السحاب، ومبنى «إمباير ستيت».

قالت بعد قليل من التردد:

- أريد أن أرى أخدود «شيدر جورج».

- إنه ليس مثل «الجراند كانيون».

طرحتها على السرير. قلت:

- آسف يا «فونج».

- لماذا تأسف؟ إنها بريقة رائعة. إن أختي...

- أجل. اذهبي إلى أختك واحكي لها. قبليني أولاً.

وإذا بفمها المهتاج يمس وجهي مسًا رقيقًا. وانطلقت.

طاف بخاطري اليوم الأول للقائي بـ «بايل»، كان جالسًا بجانبني في

«الكورنتنتال»، وكانت عيناه على محل بيع المياه الغازية عبر الطريق.

سارت الأمور معي على خير وجه منذ أن لقي حتفه، ولكن هأنذا أود

لو وُجد إنسان أقول له إنني آسف.

مارس ١٩٥٢ - يونيو ١٩٥٥

الكاتب

جراهام جرين (١٩٠٤-١٩٩٠) كاتب إنجليزي، كتب أكثر من خمس وعشرين رواية، من أشهرها: «الأمريكي الهادي»، و«رجلنا في هافانا»، و«القوة والمجد»، بالإضافة إلى عدد من كتب الرحلات وكتب الأطفال والسيرة الذاتية.

عمل جرين محررًا أدبيًا في جريدتي «تايمز» و«سبكتاتور»، كما عمل في وظيفة تابعة للمخابرات البريطانية في سيراليون أثناء الحرب العالمية الثانية. وقضى السنوات الأخيرة من حياته في فرنسا وسويسرا. وقد أصبحت عليه ملكة المملكة المتحدة وسام الاستحقاق البريطاني.

المترجمان

شوقي جلال كاتب ومترجم مصري من مواليد عام ١٩٣١. كتب عددًا من الكتب المهمة، مثل: «نهاية الماركسية»، و«العقل الأمريكي يفكر»، و«ثقافتنا والدائرة المفرغة». وترجم كثيرًا من الكتب المؤثرة، مثل: «الآلة قوة وسلطة»، و«لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة»، و«بنية الثورات العلمية»، و«المسيح يُصلب من جديد»، و«الأمريكي الهادئ». وحصل على جائزة الكويت للتقدم العلمي.

محمود ماجد تخرج في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٩٥٨، وحصل على دبلوم معهد التخطيط القومي عام ١٩٨٣، وعمل لفترة طويلة في التخطيط القومي، واشتغل بالترجمة الصحفية منذ عام ١٩٧٨، فترجم وشارك في ترجمة عدد من الكتب، مثل: «الأمريكي الهادئ»، و«ما وراء المركزية الأوروبية»، و«دائرة المعارف الإسلامية»، و«في نشأة اللغة».

ترجمات الكرمة

١. صونيتشكا - لودميلا أوليتسكايا. ترجمها عن الروسية: عياد عيد.
٢. سالباتييرًا - بيدرو مايرال. ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال.
٣. أصوات المساء - نتاليا جينزبورج. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٤. النورس جوناثان ليفنجستون - ريتشارد باخ. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٥. جاتسبي العظيم - ف. س. فيتزجيرالد. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مستجير مصطفى.
٦. الاعتداء - هاري موليش. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.
٧. صباح ومساء - يون فوسه. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش.
٨. الإوزة البرية - أوجاي موري. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.
٩. عشيق الليدي تشارتلي - د. ه. لورانس. ترجمها عن الإنجليزية: أمين العبوطي.
١٠. الوعد - فريدريش دورنمات. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
١١. طيف ألكسندر ولف - جايتو جازدانوف. ترجمها عن الروسية: هفال يوسف.

١٢. رسائل إلى شاعر شاب - راينر ماريا ريلكه. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.
١٣. قلب الظلمات - جوزيف كونراد. ترجمتها عن الإنجليزية: هدى حبشة.
١٤. تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين - هانس فالادا. ترجمه عن الألمانية: سمير جريس.
١٥. أرض البشر - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: مصطفى كامل فودة.
١٦. ملحمة أسرة فورساي: صاحب الملك - جون جالزوردي. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.
١٧. اعتراف منتصف الليل - جورج دو هاميل. ترجمها عن الفرنسية: شكري محمد عياد.
١٨. الأمريكي الهادئ - جراهام جرين. ترجمها عن الإنجليزية: شوقي جلال ومحمود ماجد.
١٩. الأمير الصغير - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: محمد سلماوي.
٢٠. أربطة - دومينيكو ستارنونه. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.

١

«إنجاز رائع»

«الساترداي ريفيو»

«لا يوجد كاتب جاد في هذا القرن استطاع أن يغزو الخيال العام

ويشكله أكثر من «جراهام جرين»»

«التايم»

«واحد من أفضل الكتاب بأي لغة»

«الواشنطن بوست»

«لم أعرف قط رجلاً كان لديه دوافع أفضل لكل المشاكل التي سببها». هكذا يصف الراوي، «فاولر»، المبعوث الأمريكي «آلن بايل»، المسمى «الأمريكي الهادئ».

«بايل» شاب مثالي أرسلته واشنطن في مهمة غامضة إلى فيتنام، حيث يخارب الجيش الفرنسي الفيتناميين. وبينما تؤدي سياسات «بايل» حسنة النية إلى إراقة الدماء، يجد «فاولر»، المراسل البريطاني المحنك والساخر، أنه من المستحيل أن يقف ويراقب، لكن دوافعه للتدخل مشكوك فيها، سواء بالنسبة إلى الشرطة أو إلى نفسه.

على الرغم من انتقاد رواية «جراهام جرين»، «المعقدة والمليئة بالمؤامرات والمكاند المضادة»، بأنها معادية لأمريكا، فقد أثبتت بعد سنوات قليلة من إصدارها، صوابها في إدانتها للتدخل الأمريكي في فيتنام.

تحولت هذه الرواية المثيرة للجدل، التي تدور حول الحب والبراءة والأخلاق، إلى فيلمين سينمائيين ناجحين.

ترجم شوقي جلال ومحمود ماجد هذه الرواية بدقة وبراعة، واستطاعا בזكاء نقل أسلوب «جرين» السلس والتلغرافي إلى اللغة العربية.